غادة السمّان

غربة تحت الصّفر

منشورات غادة السمان

غربة تحت الصفر

لمنشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان
ص ب : ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
أيلول (سبتمبر) ١٩٨٦
الطبعة الثانية
آب (أغسطس) ١٩٩٣

○ لوحة الغلاف للفنان الايطالي الكبير جيرار دي ماتشيو

○ الأسماء على الغلاف الأخير بالترتيب الأبجدي

« أعود إليكم ، مغسولة بفجائع عشرة أعوام من الحروب والأهوال والكوارث . لقد زحفت اليكم وسط حقول الجثث والألغام . تطاير جسدي مرات عديدة على أرصفة السيارات المتفجرة . ذبحت على الحواجز كلها لأنني لن انتمي لغير طائفة « اللاطائفية » ، وافراد « ميليشيا المحبة » . . تسلقت اليكم درباً قاسية متوحشة ، تهت فيها بين قصف العدو ومدافع الصديق وصوت الرعد . تساقطت عن فمي الكلمات كريش الطير في العاصفة . نسيت ذاكرتي ولم يبق بين شفتيَّ المقددتين غير كلمة: الحرية . . . وحينما اتحدث عن الحرية لا املك الا أن أذكر اسم لبنان . . لقد كان لبنان لحظة حرية في خاطر الزمان العربي ، أكرم الادباء العرب جميعاً واستضافهم ، وحتى الذين لا يستحقون وجدوا فيه ذات يوم موطىء قلم ـ

التتمة في صفحة ١٦٤-١٦٧ من هذا الكتاب .

لحظة وفاء

أهدي هذا الكتاب إلى لبنان الحبيب لأنه . . . .

غادة

الغربة الأولى

كم ذرفنا ليلة الرحيل ، من دموع
ثم اعتللنا ـ خوف ان نلام ـ بالمطر . .
مطر . .
مطر . .

« بدر شاكر السياب »

أقصى الأمل يولد من أقاصي اليأس .

«برتراند راسل»

ان تسبب الخوف للآخرين يعني ان تكون خائفاً بقية حياتك . لم يسبق ان استطاع احد بث الذعر في قلوب الناس مع احتفاظه بسلامه الداخلي .

« سينيكا»

عتبة الغربة

انتهت الاجازة في سنغافورة . الآن نفتح الجرح قطبة بعد أخرى ، ونقف على حافته الدامية . نحدق في الهوة ، وها هي بيروت تطل علينا مدججة بالحزن .

وأنا خارجة من النسيم . مرمية في الاعصار . خارجة من خضرة الغابات . مرمية في مستنقع الرمال المتحركة . خارجة من الشواطىء الخرافية . ممددة في ماسورة مدفع ، ورأسي يتدلى من فوهته ، أحدق في هذا الوطن الذي يستقبلني مدججاً بالحزن . وطن الذين يحبون الإنسانية ويكرهون الناس . يحبون النضال ويكرهون المناضلين . يعشقون الثورة ويذبحون الثوار . يحبون الوطنية ويكرهون الوطن . يحبون الأدب ويكرهون الأدباء . يرعون الطفولة ويقتلون الأطفال . يمتدحون حرية الكلمة ويجلدون الكتاب .

أعود الى الوطن ، فيستقبلني في يومي الأول بألف جسد نازف - بين قتيل وجريح - ممدد أمامي ، ويغلق المطار ورائي . . . ويقول لي : هذه هي المدينة التي اخترت العيش فيها . . . فلتكن مشيئتك ! واؤكد لنفسي : الأدباء ذاكرة الحب. . وبيروت عاصمة الذاكرة العربية . . . ولكن . .

***

ماذا فعلنا بالثورة ؟

وماذا فعلت الثورة بنا ؟

آه كيف تحول الحلم الثوري الى كابوس طائفي سادي معقد ؟ من ثورة الى مذبحة طائفية . من مذبحة طائفية أحادية الى مذبحة داخل الطائفة الواحدة . كل طائفة تقتتل فيما بينها بينما تقاتل بقية الطوائف ! . . .

كيف انتقلنا من الحرب الواضحة المعالم الى الحرب السرابية ، ومن الحرب البسيطة الى المركبة ، ومن الهدف الأوحد الى الهدف المزدوج ؟

هذه حرب اختلاط الحروب ، وزمن اختلاط الأزمان ، ونحن الوقود والشهود ، القتلة والضحايا ، السجين والسجان . المحايد والفاشي . المدعي العام والمحامي . من يحاول صهر الاشياء كلها في اناء واحد ، عظيمها وحقيرها ؟ من يحاول تمييع المفاهيم وخلط المقاييس وتشويش القيم ؟ واي فخ ستكونه الخطوات اللاحقة ؟

أن تختلط الأشياء ،

هذا هو الحصار . وهذي مدينة لكل الاعياد . لكل الفصول . لكل الميتات . مدينة الأوراق (المخلوطة) والمتناقضات . الثوار الأبرياء وتجار تلزيم الثورات . نعوات الشهداء على الجدران الى جانب الاعلانات عن الكلاب المرفهة المفقودة . حفلات الكوكتيل والندوات العمالية النضالية . عروض الأزياء الجامعية والمذابح الجماعية . القنابل . الصحف المسيلة للدموع . الصداقات الملغومة . الخبز المسوس والخروف المحشي الملفوف بالسيلوفان والدانتيل وربطة عنق حريرية . مدينة فنيي الإذاعة المضربين عن العمل وفنيي القتل العاملين على الموجات كلها . مدينة السكتة الفكرية والقنص النفسي والحواجز المسلحة بالجهل والمجلات العقائدية (الحرة) التي تقمعك لتبيعك صحفها والرشاش مصوب الى رأسك لكي تشتري منشوراتها (الديمقراطية) ! مدينة البائعات الارستقراطيات اللواتي يعاملن الزبائن بقرف ، والمتسولات اللواتي يعاملن المتصدقين بقرف . مدينة المطار المغلق والجبهات المفتوحة للجهات الأربع وجهة التاريخ الخامسة. مدينة الشواطىء المقصوفة والصيادين المقهورين وانتخابات ملكة جمال البحر . القمر الغارب والقمار ومزارع الحشيش والخطب الطائفية والسفراء المدللين والمقنوصين ، والجيش الذي يأتي ولا يأتي ، وينزل ولا ينزل . مدينة الاعراس التي لا تحمد عقباها ، والقتلى الذين يتساقطون في الشوارع إذا مرت مواكب الأفراح ، لأن (القبضاي) قرر تكريم العريس بإطلاق رشقات احتفالية من رشاشه على المارة الحمقى الذين غادروا بيوتهم .(٢٢ شخصاً أصيبوا بالرصاص الاحتفالي بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك !) مدينة الحمقى الذين لا يصدق جحا نوادرهم . كذلك (القبضاي) الذي أراد تكريم صديقه في مطعم وأصر على دفع (الفاتورة) وحين رفض الصديق ، شهر مسدسه ، وحين اصر الصديق على الرفض ، اطلق عليه الرصاص وقتله تكريماً !! . .

***

آه ماذا فعلنا بالثورة ؟
ماذا فعلت الثورة بنا ؟
لماذا تسخر منا المدينة هكذا ، حينما ندخلها ونحن ما نزال نرفع رايات الحلم والحب والثورة النقية ، اللامنسية رغم القراصنة الذين داسوا ذاكرتنا بجنازيرهم ؟
لماذا تسخر منا المدينة هكذا ؟
مدينة اللصوص الصغار الذين يقبض عليهم اللصوص الكبار ويتم ذبحهم في طقوس احتفالية تضج بتصفيقنا ونحن نبكي ونقذف بدموعنا الى الداخل . .
مدينة قوات الطوارىء الطارئة والمحلية . مدينة الموت حباً ، والموت سكوتاً ، ما دام ثمن الكلمة الصادقة العارية الرافضة لارتداء (الحجاب) أو (الملاية اللف) رصاصة في رأس الذي ارتكب معصية حرية التفكير وحرية التساؤ ل كما لو أنه يعيش في غير العصور الوسطى وزمن محاكم التفتيش .
مدينة الكلمة التي ترتدي(الكمامة) خوفاً من طردها من العمل ، والحنجرة ترتدي (الصمت) خوفاً من السكين ، والعين ترتدي جفنيها خوفاً من المخرز ، والقلب يعلن الإضراب صارخا بصمت جهنمي الصدى : « لكن العين تقاوم المخرز . . . يجب أن تقاوم المخرز » . . .
وأحياناً نجلس لنكتب ونحن نرتدي قمصاناً ضد الرصاص في غرفنا المغلقة بعد أن نسدل الستائر ، ونرتدي قبعاتنا ومعاطفنا ونمسك بمظلاتنا ، ونربط الأعلام البيضاء الصغيرة على طرف أقلامنا ! . . . فتصاب الحروف بشلل الأطفال ، وتتلوى على السطور ، وتعرج تحت الحافات الحادة للمقص الذاتي الذي تكاد تتحول إليه أصابعنا ! . . .
لماذا كل كلمة صدق كلفتها رصاصة مع كاتم للصوت ، لكتم صوتنا الى الأبد ، او بطاقة طائرة الى مدن الحزن في المنفى ؟

***

آه ماذا فعلت بنا الثورة ؟
وماذا فعلنا بالثورة ، حتى هرب البعض منها الى كهوف العصور الحجرية ، ونصوص العصور الوسطى ، وتخدير العصور المستقبلية ؟ وهذه المدينة تحاول كسر ظهرنا فقرة بعد أخرى ، ونحن نهرول كالحمقى ونتابع حمل بيارق الحلم .
سياراتنا لا تمشي لأن المحتكر شرب البانزين بدلاً من قهوته الصباحية . مطارنا

ممدد كالجثة ، وطائراتنا لا تطير لأن المستثمر قرر منع كل ما يحلق بما في ذلك الفراشات والعصافير والثوار والشعراء . وأنا أخفي أجنحتي كل فجر كالمناشيرالسرية ، خوفاً من أن يقصوها تمهيداً لتوظيفي في (حدائق النفايات) كي أمتدح جمال المعلبات الفارغة الصدئة ، وكهارب العشق الأفلاطوني المشعة من بعض رجال (الطائفية) الأوصياء على المقابر الجماعية التي سيعمرونها بدلاً من المساكن الشعبية .

وهذه المدينة تسخر منا ،

مدينة القصف والمجازر على أنغام خوليو ايجليزياس والقتل على أنغام « سأحيا » لجلوريا جاينر . مدينة الفيديو والنداءات للتبرع بالدم والمذيعات ذوات الأسنان الناصعة اللامبالاة ، والاطفائيين المحروقين بالإهمال ، الملتهبين شوقاً الى بئر نفط يطفىء نيران فقرهم . مدينة الفساد والرشوة وسرقة الأرواح العامة ومدينة البذل والتبرع حتى بأعضاء الجسد فداء ليقين . مدينة الذباب والقمامة والكاسيت والامتحانات المؤجلة والعمر المؤجل والفرح المسروق والهواتف المسروقة وغصن الزيتون الجاف المستعمل خصيصاً لإحراق غابات الزيتون والأرزة . مدينة القتل بالسكين والرجم والشيكات المزودة بكاتم للصوت ، وبالابرة والخيط والصليب والهلال غير الخصيب . مدينة استئصال بقايا الزائدة الضميرية للأثرياء الجدد ، والعمليات التجميلية لنجمات الطبقة المخملية الجديدة ، والآهات العاطفية لنجمات الطبقة المخملية السالفة التي تجدد جواز سفرها اللبناني بإطلاق الآهات في « كان » على أنغام « بحبك يا لبنان ! » .

* * *

ماذا فعلنا بالثورة ؟

ماذا فعلت الثورة بنا ؟

آه مدينة توحيد الصف الوطني المشاكس كصف الحضانة ، وربما توحيد الزي النسائي (!) ، والمعارض الفنية في صالات الفنادق الفخمة ، ومعارض الطبيعة البشرية على الأرصفة الفقيرة . العناق التوفيقي بين العصور الوسطى والطموح المستقبلي في أرشيف المنظرين العقائديين المعقدين والمقعدين فكرياً . مدينة المستشفيات النقالة ومسالخ الدواجن والبشر ومناقصات العلف لإطعام جياع البيوت المنسوفة تمهيداً لتدجينهم . الشهادة المدرسية تحصل عليها بقوة السلاح والتلميذ يؤدب أستاذه بالمسطرة والرشاش . مدينة الإذاعات بعدد الحناجر ، وكل فرد جمهورية لكنها غير مستقلة ، وكل

عائلة امبراطورية لكنها تحت الانتداب . مدينة السوريالية السياسية والباطنية الفكرية . مدينة تنفست ، فولدت كلمة : آه .

***

انتهت الإجازة .

نعود الى الوطن ونراه بعين جديدة ، لم تفسدها بعد الألفة مع الكارثة . . .

نفتح الجرح قطبة بعد أخرى ، نحدق في الهوة ، وها هي بيروت تغلي . . . أهي رقصة الثورة أم رقصة الموت ؟

ومدينة المتناقضات تسخر منا . يفور فيها القتلة المندسون وسط الثوار . يختبئون خلف أقنعة الثورة ويدورون في الشوارع كرنفالاً جهنمياً . . . وعلى الكورنيش يلتقي كل ليلة هتلر والمركيز دي ساد ودراكولا وفرانكشتاين وجنكيزخان ويتسامرون حول عربة الذرة المشوية بعد تخدير البائع المتجول . . . ويتابعون التخطيط لمصير المدينة ، ويلغمون أصابع أرغن الثورة كي تتفجر تحت أيدي الثوار . . .

آه مدينة الكرنفال الكابوسي التناقضات . . . مدارس القتال ومدارس تعليم الرقص . حفلات الافطار التي لا يدعى اليها إلا مجتمع الذين التهموا طعام الغداء جيداً . الحفلات التأبينية . الاعلانات عن المقويات الجنسية جنباً الى جنب مع الإعلانات عن حبوب منع الحمل . الندوات الأدبية تحت رعاية الصمت عن الجرح ، ومقاهي الأدباء الشفهيين لتفريغ ما يجب ان يكتب ثم كتابة ما لا ينفع ولا يضر . مدينة الكادح والنرجسي والذاهب إلى المستشفى أو المسّاج ، والأبرياء والمجرمين ، الفقير وسارق اللقمة . الثائر وسارق الثورة . العظماء والأنذال . القادة والجبناء . الديسكو والمناشير السرية . السرقات . السيارات المتفجرة . المناطق المعزولة والمستباحة والمنكوبة والثرية بشهيد حقيقي ، أو حتى بناقد حقيقي يجرؤ على أن ينقد ربطة عنق زعيم ميليشيا بدلاً من تفريغ قهره في نقد مي زيادة !

ها نحن نمحو في النهار ما نكتبه في الليل ، وتصطك حروفنا وأسناننا حين نسمع برفيق حرف أطلقوا الرصاص عليه . ولا نجرؤ على السؤال عمن فعل به ذلك . مدينة صار السؤال الفاتر فيها عن هوية القاتل شجاعة فائقة . مدينة تحولت فيها مراكز التطعيم ضد المرض الى مراكز لتطعيمنا بالمرض كي نصير من بعضه وندعوه « بالعافية السارية » .

ومع ذلك فإننا نحاسب انفسنا قبل النوم : هل انزلقت الكمامة عن فمنا ؟ هل

انتقدنا أحداً ؟ هل قلنا لا ؟ هل نبسنا ببنت حق ؟ صرنا ندهش كل صباح حين نستيقظ : أما زلنا أحياء ؟ كيف لم نقتل في اليوم السابق ؟ نفتش في عمود الوفيات وندهش : اين اسمنا ؟

* * *

آه ماذا نكتب في مدينة حيث الشجار على افضلية المرور يتحول الى مرور فوري للطرفين في طريق الأبدية ؟ مدينة الألعاب النارية احتفالاً بالزمن الهيولي والاعياد التي ركبت طائراتها الورقية الملونة وحاولت الهرب فاحترق معظمها بعد استعمالها كأهداف لتدريب الصبية على القتل .

آه ماذا نكتب في مدينة تحكمها الرصاصة لكن القلم ما يزال يقف الى جانبها من آن الى آخر ويقول : انا أطول قامة . ثم يسقط صريعاً مثل نقطة تحت علامة تعجب !

في اسرائيل يعمرون ٨٥ مستوطنة جديدة . . ونحن في مدينة تعمر ٨٥ مركزاً لميليشيات جديدة ، لتكريس استيطان الفوضى والقتل والارهاب عندنا . مدينة الراكضين الى موتهم والى (سفينة المرح Love Boat) .

آه ماذا نكتب ، نحن الذين قام اليقين باعتقالنا ، ولن يخلي سبيلنا الا بكفالة من الموت ؟ وكيف لا نعلن انه لم يعد بوسع أحد ان يكون محايداً في هذا الجحيم حتى ولو كان نملة ؟ وكيف لا نطلق رصاصة على ليلة نوم من آن الى آخر ، لننبش جرح القلب قطبة بعد أخرى ؟

* * *

ماذا فعلنا بالثورة ؟

ماذا فعلت بنا الثورة ؟

لماذا لا نهاجر من مدينة الكرنفال العربي الكبير ؟

لماذا نلتصق ببيروت حيث اختلطت الأشياء كلها بعضها ببعض كما في بدء الخليقة ؟

إنها الحرب في ظل السلام المزيف . فماذا نفعل هنا ؟ وحتام نبقى والوطن يكاد يغادر ذاته ، مرتحلاً من مرفأ عنف بلا معنى الى آخر ؟ . . .

إنها الحرب في ظل السلام .

إنها الحرب المسالمة المضادة للهدف الأصلي . الحرب المسالمة للعدو الحقيقي !

من أين لبيروت هذه الجاذبية كلها ، وهذا العنفوان ؟

ولماذا نلتصق بها هكذا ، تذلنا وتسلبنا أحلى أعوام عمرنا فنزداد عناداً ونمد جذورنا الى رملها أوتاداً لخيامنا ؟ وهذا السقوط الممكن . السقوط المختمل . السقوط . . السقوط . . الموت شبه المؤكد . . .

ماذا نفعل هنا بعدما تأكد لنا أن لا بحر في بيروت ؟ أم أننا ما نزال على الخيط بين الشك واليقين ؟

***

ربما نبقى هنا لأن بيروت لم تعد بيروت . إنها مزيج من الوطن العربي بعدما خلع أقنعته كلها ، وعرى على شاشتنا سقطاته وسموه وشهواته ونواياه الحقيقية القومية .

هذه ليست بيروت ،

إنها الزمن العربي الآتي يتحدى .

هذه مدينة التحدي ،

الحلم يتحدى الحرب .

الثورة تتحدى الإبادة .

العذوبة تتحدى البشاعة . العقل يتحدى الأوثان .

الحب يتحدى الفوضى . النقاء يتحدى تعهير القيم و (تمييعها) . صار الرحيل مستحيلاً . . . فالمعركة انتقلت الى داخلنا . والتحدي استوطن دورتنا الدموية ، وانتهى الأمر . والجسد ليس حقيبة سفر فقط : صار حقلاً للمعركة .

***

اعرف ان الهرب يعني ان أطلّق الحلم . أن أتزوج من القهر . أن تنتظرني الغصة كل صباح داخل فنجان القهوة لكن البقاء هنا لم يعد يطاق ! الهرب يعني هجرتي النهائية الى مدينة الحزن . الركوب في طائرة الهجرة دخول الى زنزانة الركوع .

لن نركع .

رُكبنا مكسورة ، لكننا لسنا في (وضعية الركوع) !

ولن . . .

لن ندع لهبة الحب تخمد في القلب ، رغم مستنقع الرعب هذا كله .

وسنبقى هنا ما استطعنا الى ذلك سبيلاً . فالبقاء فعل إصرار على الحلم . الزهرة . الأغنية . الحب .

ووسط هذا الحصار المروع .

المهم أن نظل نلحظ الفرق بين الحي والمقدد . .
بين الثورة والمذبحة ،
بين الشجرة والمشنقة !
ولكن البقاء هنا مستحيل .
والرحيل مستحيل .
الحياة في بيروت غير ممكنة . والحياة بدونها غير ممكنة . فماذا نفعل ؟

سنغافورة ـ بيروت ١٠/ ٧/ ١٩٨٠

ارجوك : فتشني . راقبني . استجوبني .

حدث الأمر على الحدود السويسرية ـ الفرنسية .

كنت أركب (الباص) متجهة من جنيف إلى احدى القرى الفرنسية (أنماس) . . وكانت سيارة النقل الكبيرة هذه تعج بعشرات الركاب ، وأكثرهم من الفلاحين والعمال الذين تدعوهم أعمالهم للتنقل بين المنطقتين ، وربما ببعض الغرباء أمثالي ، الذين قرروا ان للقرى سحرها أيضاً كما للمدن الكبيرة . . وان الريف أكثر حناناً على القلب المتوجع من هستيريا العواصم الأوروبية . وان زحام الأشجار في الغابات ، خير من زحام البشر في محطات المترو ، (في الفترة الأولى من الرحيل على الأقل !)

كنت أتأمل تلك الخضرة المفترسة الضياء والتنوع . . تخترق الروح بأشعتها السرية ، وتنظف غرف القلب من الأثاث العتيق والأوراق المصفرة ، وتشرع نوافذه الصدئة ، وتمزق بقايا الستائر التي التهم أطرافها حريق ما . . . ليدخل ضياء النقاء بحيث يرى الانسان (داخله) بصورة أفضل . .

وكنت اتساءل : لماذا لا يذهب العرب غالباً إلا إلى العواصم الكبيرة في إجازاتهم ؟ لماذا لا يجربون الريف (غير السياحي) ، وسحره العفوي المسكون بحنان أخضر ؟ . .

***

تأملت رفاق (الباص) . .

بعضهم يقرأ . بعضهم ينام . قلت في نفسي : انه البطر . لقد شبعوا من هذا الجمال الطبيعي المسكون بالهدوء والسلام حتى الضجر . ها هم يتثاءبون . لو قفزت فجأة وشهرت مسدساً لتدفق دم الاثارة في وجوههم ، وقد يشكرني البعض ! إنها الطبيعة البشرية ، وصوت السكينة الذي يبعث بالتثاؤب في أوصالهم هو نفسه الذي يبعث برعشات الفرح المنسي في عروقي . . .

اقتربت من جاري العجوز نصف النائم في المقعد الملاصق . كان يحدق في شرخ الزجاج المجاور دون ان يرى (بـانوراما) سحر الـطبيعة خلف الـزجاج . . امتـلأت غيظاً ، وأشرت بأصبعي الى نهر بديع يركض في الوديان وقلت للعجوز : انظر كم هو جميل . فنظر العجوز الى إصبعي ـ ولم يتجاوزه الى النهر والوادي ـ ثم قـال : « نعم . اصبعك جميل ! » . ثم نام ! . . .

أما أنا ، فلم أنم .

قـرأت لافتة تشـير الى اننا نقتـرب من نقطة الحـدود السويسرية . أعـددت جواز سفري . قرأت من جديد تأشيراتي السياحية التي تسمح لي بالتنقل بين البلدين مرات عديدة ، شرط البقاء في كل منها لفترة محدودة طبعاً .

تحفزت قليلاً . لم التحفز ؟

أوراقي كلها قانونية ، ولا احمل شيئاً ممنوعاً ـ حتى ولا رأسي ـ لأنه كان في تلك اللحظة برية مسكونة بالخضرة والحنان والسلام .

أجل ! تحفزت قليلاً ، فأنا غريبـة ، ولست في مزاج يسمـح لي بغير الحـوار مع شجرة . . . ناهيك عن (الاستجواب) وسواه . . .

***

إليكم ما حدث !

لم يحدث شيء على الاطلاق !!

لقد مرت سيارة الباص التي تضم حوالي خمسين راكباً على الحـدود السويسـرية باشارة عابرة من يـد رجل البـوليس ، ومرت بعـدها بنصف دقيقـة على نقـطة الحدود الفرنسية بإشارة مشابهة ، دون ان يطلب احد من السيارة التوقف .

وذهلت . . .

لقـد دخلنا من بلد مستقـل إلى بلد آخـر ، ليست بينهـا وحـدة ، ولا مشـروع وحدة ، وليس هنالك ما يربطهما غير الصداقة الدولية ضمن حدود الاحترام والسيادة ، دون أن يسألنا احد عن جواز سفرنا ونقودنا ، او يستجوبنا عن ماضينا ، او يعتقلنا ، او يهيننا ، أو يذلنا ساعات . . .

نعم . هكذا بكل بساطة تم اعتبارنا جميعاً (ابرياء) . فالبـراءة هي القاعـدة ، والجريمة هي الاستثناء . والانسان بريء حتى يثبت العكس . أما في بلاد اخرى ، فكل

انسان هو حتماً (مجرم) إلا إذا استطاع ان يثبت براءته ، وهو مطالب بذلك في كل مناسبة ! . . .

* * *

أحسست بالغيرة . . . التهمت ركاب الباص بنظرات تقطر حسداً وغيظاً . وأحسست بالأسى . . فهي المرة الأولى في حياتي التي اتنقل فيها بين بلد وآخر دون ان يمسك احد بجواز سفري او يضع ختمه عليه . . . والمهزلة انني كنت هذه المرة بالذات بحاجة الى ختم على جواز سفري !! . . . فقد كان علي ان أثبت انني لم اقم في احد البلدين أكثر من فترة تحددها التأشيرة . .

نهضت نحو السائق ، بالرغم من اللافتة التي تمنع مخاطبته ، توسلت اليه ان يتوقف قليلاً كي أعود الى نقطة الحدود للحصول على التأشيرة اللازمة لأنني أجنبية .

قال السائق باسترخاء : لا أحد يريد جواز سفرك . لن يضايقك احد . . ثم انني لا استطيع التوقف اذا لم يطلبوا مني ذلك .

قلت : ولكنني بحاجة الى ختم يثبت انني غادرت سويسرا الى فرنسا .

قال : عودي اذن الى جنيف ، واستأجري من هناك سيارة خاصة لأنني لا استطيع هدر وقت ركابي (الخمسين) من أجل مخاوفك الغامضة !!

وهكذا كان . . . وعدت الى جنيف ثانية !

* * *

ومع صباح اليوم التالي ، غادرت جنيف في سيارة اجرة (راديو تاكسي) الى نقطة الحدود لأكرر السفر . . واحصل على (تأشيرة) .

لكن الشرطي أشار الى سيارتي بأن تتابع المسير ! . . وكنت اضحك قهراً . . طوال عمري وأنا أتمنى ان ألقى معاملة كهذه في بعض نقاط الحدود العربية . . . كنت أحلم دائماً بشيء مماثل . . وها هو الحلم يتحقق في المرة الوحيدة التي أجدني فيها بحاجة ماسة الى من يسجل تاريخ رحيلي على جواز سفري ! . .

طلبت من السائق التوقف . لم يتقدم من السيارة أحد . هبطت . حملت اوراقي ودخلت الى المبنى الصغير الزجاجي الذي يتوسط الشارع . نظر إلي الشرطي بدهشة ، حدقت فيه بدهشة مماثلة . قدمت إليه جواز سفري . لم يأخذه . سألني : ماذا تريدين ؟ قلت : أريد ان (تراقبه) . قال : لا داعي لذلك ، إننا لم نستوقفك !

قلت : انا التي استوقفك . ارجوك . راقبني ! اختم جواز سفري ! قلب أوراقه

وقال : لديك تأشيرة وكل شيء (صح) . .

توسلت اليه : ارجوك ان تضع ختمك عليه وتاريخ اليوم لأثبت أنني غادرت ارض بلادك ، فأنا أجنبية ، ولا يفترض ان ابقى فيها أكثر من زمن محدد . . الى آخره . . . الى آخره . .

لم يقتنع . ظل يحدق في وجهي بدهشة .

كدت اصرخ به : ارجوك . فتشني . راقبني . استجوبني . لست معتادة على هذا النمط من التعامل . إنك تعذبني حين تجعلني أدرك كم أنا وسواي (مذلون مهانون ومدانون) سلفاً على بعض حدود اقطارنا العربية . . .

وضع لي رجل البوليس ختمه بعد طول تفسير . . وتوسل ! ولكن كيف اشرح له ان في عقلي الباطن يكمن تاريخ من المخاوف والعذابات (الحدودية) . . بعضها حدث لي ، وأكثرها لرفاق الدرب سواي ؟

***

كدت أجر رجل البوليس من يده ، لنجلس فوق العشب تحت تلك الشجرة الشاسعة الى جانب الطريق . . نأكل التوت البري والفطر والتفاح ، ونداعب كلب الراعي ، وندخن السجائر الشهية المسببة لسرطان الرئة ، وأروي له آلاف الحكايا عن مآسي المواطن العربي على حدود بعض اقطارنا . . كيف يتم تفتيش الحقائب بدقة هائلة ، وحتى (حبة الاسبرو) يفتشون تحتها وفوقها . . .

ساعات من الوقوف تحت الشمس أو المطر او في غرف (السونا) بالمطارات . . . ساعات من الاذلال . . . شخص ينهرك . . آخر يدفعك . . ثالث ينفخ في وجهك كأنك تحجب الشمس عن الكرة الأرضية . . واذا كنت سعيد الحظ يكتفون بتفتيش حقائبك . . وإلا فقد يفتشون دماغك ، وينبشون تراب قلبك قبراً بعد آخر ، وكنزاً بعد آخر . . ويدخلون الى ماضيك بكل دهاليزه ، ويستبيحون اسرار حياتك ، ثم يرمون بك في السيارة او الطائرة مثل ممسحة داستها الأقدام ، فتشكرهم بحرارة لأنهم اكتفوا بذلك . .

وأحياناً لا احد يستجوبك . لا احد يقول لك شيئاً . تصل الى المطار . يأخذون جواز سفرك . يذهبون به ، ويهملونك لساعات . ساعة بعد اخرى . وكلما تجرأت على الاقتراب من الموظف لسؤاله عما حدث ، يهمهم في وجهك بعواء غير مفهوم ، او يرميك بنظرة اتهام رهيبة كما لو كنت هتلر شخصياً او فرانكشتاين . . .

كدت اروي له كيف حدث لي ذلك مثلاً في مطار القاهرة في مطلع السبعينات . . كنت ارافق صديقاً (مشاكساً) سياسياً ، فسمحوا له بالدخول ، واستبقوني وجواز سفري ، واحتجزوا معي لمدة ٣ ساعات طفلي الذي كنت حاملاً به في الشهر السادس ! ولو لم يتصل يومها صديقي برفاق القلم في القاهرة ، لطال احتجازي لجرم ما زلت اجهله . وان كنت قد اعتقدت انهم يعتقلون النساء الحوامل لأن في جوفهن طفلاً ، وكل طفل في وطننا العربي (مشروع ثائر) من الضروري استجوابه حتى قبل ولادته . انه (الاستجواب الاحتياطي) للجنين !!

***

وقبل ان اجر رجل البوليس من يده لأروي له هذه الحكايا وسواها ، ايقظني صوته : سيدتي . ماذا تفعلين هنا ؟ هل من خدمة اخرى اقدمها لك ؟

واكتشفت انني كنت ما ازال جالسة على المقعد امامه ، احدق في شرخ زجاجة الطاولة ، الشبيه بخط الحدود بين أقطار عربية . . واخرى .

جنيف ـ أغماس ٢٥/ ٧/ ١٩٨١

صباح الخير أيها الليل

صباح الخير أيها الليل الطويل . . كأنما لا آخر لك . . ليـل المخاوف والأحـزان والآمال الرثة . . ليل النقد الذاتي ، والامعان في التجول داخل الجرح . .

ليل الوعي بمكائد الصيادين ، وأنت الشاهـد والفريسـة ، وكل خـطوة تقود الى خلل بطريقة ما . . صباح الخير ايها الليل الطويل . .

ليل العالم الخارجي الديناصوري . . ليـل عالمك الداخـلي الحائـر بين السـادية والمـاسـوكيـة . . ليـل شـارات الاستفهـام التي تتـربص بـك الـدوائـر ، والمـربعـات والمستطيلات ، ومثلثات الحيرة بزواياها الحادة . .

***

صباح الخير ايها الليل الطويل . . الممتـد من الليل الى الليـل ، ومن الفجر الى السر . . . ومن الحيرة الى الغضب . . . ومن التساؤ ل الى حافة اليقين .

صباح الخير يا ليل الشكوك والوعي . لم يعد بوسعك ان تنظر ببراءة الى هذا العالم المتوج بالجريمة ، وعلى شفتيه ابتسامة التحدي . .

ولم يعد بوسعك إلا ان تتحدث عن تلك المشاعر نصف المبهمة ، التي تنتابك امام مشاهد كثيرة ، وتستنفر فيك الشعور بالخطر ، والقهر الداخـلي ، لأنك فـريسة كـذبة حاذقة أليفة ، وموتك هو « كلمة السر » في لعبة الكلمات المتقاطعة السياسية .

لا تحب الشعر ؟

لا تحب لغة (اللمح) ؟

تريد أمثلة حسية ؟

حسناً . تعال معي مثلاً لزيارة بعض المتاحف في باريس. هل هنالك مكان أكثر براءة من متحف ؟

***

نحن الآن في متحف « روائع الفن اليهودي » في قصر (الجراند باليه) .
لماذا « الفن اليهودي » ؟ ولماذا لا ؟

أجل . لم لا نذهب ونرى (روائعهم) الفنية ، كما سبق وقضينا ساعات في متحف (قصر طوكيو) ونحن نشهد روائع « الفن المغربي القديم » و « قرن من الاكتشافات الفرنسية في مصر » وتحف « سومر وآشور وبابل » التي استعارها قصر « بيتي باليه » من متحف بغداد ، وسواها من روائع التراث الانساني . . فلماذا لا تذهب لمشاهدة روائع الفن اليهودي ؟

هل تكره اليهود ؟ انك لا تستطيع ان تكره اليهود . إنك لا تستطيع ان تكره الالمان . إنك تكره الصهيوني وتكره النازي ، أي إنك تكره السلوك غير الانساني وغير العادل أينما وجدته . تكره العدوان ، ولكنك ـ من حيث المبدأ ـ لا تكره اي انسان آخر لمجرد أن اسمه (حاييم) لا (حليم) مثلاً ! . . . .

* * *

ندخل المتحف ونحن نركب موجة المحبة هذه . . .

نصعد حتى (الطابق ٤) في « الجراند باليه » حيث يعرضون الروائع اليهودية .

عند المدخل ، نلحظ الجو (الهتشكوكي) المسرحي الخاص . القاعات تسبح في الظلمة ، والاضاءة مركزة على الأشياء المعروضة فقط . حسناً . ربما كنت تفضل أن يغمر ضوء الشمس الأشياء كلها بصراحة ووضوح ، كما في المتحف الذي يضم روائع الفن المغربي مثلاً ، ولكن هذا شأنهم . وحتى حينما تكاد تجلس على مقعد ريثما تألف عيناك العتمة ، ثم تشهق اذ تكتشف انك كدت تجلس فوق رجل الأمن (المتربع في الظلمة حتى كدت لا تلحظه) ، تظل تقول لنفسك : ولله في خلقه شؤون . والديكورات فنون .

في مدخل المتحف لوحة تمثل « اسحق شتراوس » قائد الاوركسترا اليهودي الشهير ، الذي قام بجمع اكثر تحف المعرض في بيته بايفيان ، والى جانبه لوحة تمثل البارونة ناثانييل دي روتشيلد التي اشترت (مجموعته) بعد موته في اواخر القرن التاسع عشر ، واهدتها الى متحف « كلوني » في باريس .

القاعة الرئيسية للمتحف تنقسم الى شطرين . الأول يضم تحفاً فنية ، يعود بعضها بتاريخه الى القرن الثالث عشر ، وكلها يمثل طقوس الحياة اليهودية : الختان . السابات . الحجابات . الشاداي . التوراة . عيد البوريم . حكاية استير . مصباح

هالوكا . طقوس الزواج . الشمعدان اليهودي الشهير . .

وكل هذا مزود بالشرح ، ويسبح في الضوء الغامض والظلال المخاتلة داخل اوعيته البلورية . . . وأنت قد تحبه قليلاً او كثيراً من الناحية الفنية ، وهذا شأنك . واخيراً نأتي الى « طقوس الموت » في القاعة الثانية من المتحف . . . وهنا المفاجأة . . اذ تجد نفسك داخل مقبرة !! . .

***

تكتشف ان نصف هذا المتحف مقبرة . نعم مقبرة . هكذا بكل بساطة ، نصف المعرض فقط مكرس لطقوس الحياة اليهودية كلها ، والنصف الثاني لـ « مقبرة » يهودية قديمة وجدت في باريس .

طقوس الموت جزء من طقوس حياة الانسان . هذا صحيح . وقد شاهدنا مقبرة صغيرة جداً في متحف الفن المغربي القديم ، لم تكن مساحتها لتتجاوز المتر المربع تقريباً ، فلماذا يقدم اليهود هذه المقبرة الارهابية السابحة في الليل والحزن ، في حجرة مقفلة معتمة تفوح من جدرانها صرخات اليهود على حائط المبكى ؟ . .

لماذا هذا الإخراج المسرحي الدراماتيكي للموت اليهودي والمقبرة لا تعني كقيمة فنية أثرية أكثر مما تعنيه اية مقبرة اخرى ؟

***

تجد نفسك امام ليل من التساؤلات . .

هل هي مصادفة ان المعرض افتتح في يوم ٥ حزيران/ يونيو ؟

وهل هي مصادفة ان تحتل المقبرة نصف المعرض ؟

واذا كان ذلك لقيمة فنية خارقة ، فلماذا لا يتحدث كراس المعرض المطول عن المقبرة التي تحتل نصفه ؟ ولا يذكره الا بعدة كلمات موجزة ؟

لماذا ؟ . . .

وهل اصبحت سيء الظن كثير الافتراء ، ام ان المقصود من المقبرة انعاش ذاكرة الفرد الأوروبي امام الموت اليهودي المفجع في الحرب العالمية الثانية ؟ هذا الموت الحزين الذي يعرضونه ، هل المقصود منه ضمان استمرار الحس الأوروبي بالذنب والرثاء امام مأساة اليهودي التائه واليهودي المسور بالعزلة ، واخيراً اليهودي المخنوق في افران الغاز النازية ؟ . . . وبالتالي جر الفرد الأوروبي للوقوف الى جانب ذلك (الشعب المقهور) ،

وجر السياسي الأوروبي لمباركة منحه وطناً اغتصبه وشرد شعبه الفلسطيني ؟

***

هل المطلوب غض النظر عن مأساة الفلسطيني واللبناني الحي ، كي تهدأ عظام اليهود الأموات ؟ . . هذا التركيز الشديد على الموت اليهودي ، اليس المقصود منه سرقة الاهتمام الذي قد يحيط بالموت الفلسطيني والموت اللبناني خاصة ، والعربي عامة ؟

تقف في المقبرة مقهوراً ، وعلى حافة الشعور بأنك ترى عملية سرقة تمارس في المتحف . . سرقة من نوع فريد ، اذ ليست هنالك عصابة للسطو على المتحف ، وانما هو المتحف الذي يسطو على زواره هذه المرة ! . . يسرق انتباههم ويخطفه الى ارض الحزن اليهودي ، ثم يحوله في اللاوعي لصالح القتل الاسرائيلي اليومي للعربي من فلسطيني ولبناني وعراقي وسوري ومصري . . الى آخره . .

ترى هل هنالك « شيء ما » في السلوك الجماعي لليهود ؟ « شيء ما » دفع بعض عباقرة الفن القدامى للسخط عليهم ؟ شكسبير كرههم ، وعبر عن (عواطفه) هذه حينما رسم شخصية « شيلوك » اليهودي في مسرحيته «تاجر البندقية» . دوستويفسكي كرههم . . غوغول كرههم . لماذا ؟

واليوم يدفع الفنان الاوروبي (الثمن) ، فالفعاليات اليهودية كلها مكرسة باستمرار لإثارة حس الشفقة لديهم ، ثم (تجييره) لصالح العدوانية الصهيونية الاسرائيلية . . وفي يوم واحد بباريس ، شهدت نموذجين للفن الاوروبي الذي يتضمن حساً بالذنب نحو (اليهودي) ويحاول تسديد (فواتير النازية) . . اولهما هو الفيلم الجديد للمخرج الفرنسي كلود لولوش واسمه (هؤلاء واولئك ـ لي زان اي لي زوتر) وفيه لوحة تقطع نياط قلوب نصف المليون المتفرج (شهدوا الفيلم حتى الآن) عن تشرد اسرة يهودية وعذاباتها في زمن النازية .

أما النموذج الثاني فهو منحوتة « حائط المبكى » للفنان سلفادور دالي وقد صب منها ألف نسخة ثمن الواحدة (٣٧ ألف فرنك فرنسي) وقد شاهدت نسخة منها معروضة للبيع في مدخل (الباليه دي كونغري) . . والأمثلة المشابهة لا تحصى ، وكلهم يبكي الموت اليهودي ، وعبر لعبة اعلامية صهيونية ذكية ، يتم (تجيير) هذه الفعاليات كلها لحساب اسرائيل ، ولا احد من فناني الغرب يتذكر الموت الفلسطيني اليومي . . والموت اللبناني . . والميتات الآتية . .

***

صباح الخير أيها الليل الطويل . . وانت أيها القارىء ما زلت تتشرد معي . .

نجلس قليلاً لنستريح . . تطالعنا على شاشة التلفزيون صورة اليهودي « ايـزاك شتيـرن » وهو يعـزف على الكمـان مقطوعـة للموسيقـار اليهودي « مـانـدلسـون » . . (فايولين كونشرتو سي ماينور) .

وجه « شتيرن » مليء بخشوع الفن ، والضوء يتدفق من دموعه وهـو يعزف . . والحنان يتدفق من الحان « ماندلسون » .

وتظل مصمماً على ان لا تكرهما . كلاهما يهودي وانت لا تكره (الطائفة) . انت تكره الصهيوني ، لا اليهودي . . ولكن ،

ما حيلتك امام اليهود الذين يوظفون جرحهم من اجل الامعـان في طعننا نحن العرب ؟ وهل تملك الا الخروج من غابـة الحيرة الى وضـوح الغضب والرفض ؟ ومن التساؤ ل الى حافة اليقين ؟

باريس ١٠/ ٨/ ١٩٨١

والقلب طائر ليلي مدجج بالحنين

ترحل . . .

تتوهم أنك رحلت . .

لكنك ما زلت مسكوناً بتلك الأصوات الشرسة ، القادمة من مغاور الأجداد .

وروحك ما زالت سجينة ذلك الزمن الذي فارقت ، والوطن الذي تركت . .
تقول لنفسك : ولكني هنا في إجازة عابرة . . . وسأعود قريباً ، فلأسترح قليلاً . . .
ولكن روحك تقفز من منطاد النسيان الى أرض الوعي . . . وتسدل على المرئيات كلها ستارة شبيهة بالحزن الشفاف . .

الجسد حقيبة سفر ،

لكن القلب طائر ليلي مدجج بالحنين ، يغافلك ، ليطير دائماً صوب الوطن . . . .

***

ترحل . .

تتوهم انك رحلت حقاً . .

تغادر وكرك في الفندق . تهيم على وجهك في الشوارع ، باحثاً عن الجمال في الطبيعة والفن والبشر . . .

ها أنت في شارع (كي دي مون بلان) . بحيرة (ليمان) إلى يسارك ، وحديقة عامة خرافية الجمال إلى يمينك (حديقة برينزويك) . أزهار تشتعل بالألوان مزروعة بصورة فراشة ، يخيل إليك أنها تكاد تطير عن الأرض في مهرجان شفافية ضوئية .

تخطف أبصارك تلك القبة المشيدة وسط الحديقة العامة . تدخل ، تجلس على أحد المقاعد ، وإلى جانبك تجلس السيدة (ذاكرتك) ، وقد طالت أظافرها ، وشهرت سجل معلوماتها على (رومانسيتك) ، لتنغص عليك كل بهجة قد تجرؤ على أن تعبر

خاطرك . . . كأنها رفيقتك المحتومة القادمة من أرض الأحزان .

ستفكر : ما أجمل هذه القبة .

ستقول لك السيدة (ذاكرتك) : ولكنها قبر .

ـ قبر من ؟

ـ قبر الدوق برينزويك ـ لونبرغ ، ألا تعرف ؟ وهذا التمثال يمثله . وتماثيل الأسود لتحرس مهابته . .

ـ من هو (الأخ) برينزويك ؟

ـ مليونير أحب جنيف حتى قرر أن يدفن فيها منذ أكثر من قرن .

ـ وماذا في أن يدفن انسان في مكان أحبه ؟

ـ هكذا ؟ وسط المدينة ؟ تخيل لو أن كل انسان دفن حيث يشاء . . . سيقرر البعض أن يدفن في المقهى ، أو غرفة النوم ، أو الشرفة ، أو الرصيف ، أو مدخل الملهى ، أو المكتبة العامة . . . سيتعثر الأحياء بالأموات ، وتعم الفوضى . . .

ـ اذن كيف تمكن برينزويك من احتلال أحلى بقعة في جنيف ليدفن فيها ؟ ماذا قدم للانسانية ؟ ما فضيلته ؟

ـ المال يا عزيزي (فضيلته) ، وقد قدمه لبلدية جنيف شرط أن تدفنه هنا . . الثري يستطيع أن يقرر أين يقطن حتى بعد موته . . . أما الفقير فلا يستطيع أن يقرر ذلك حتى أثناء حياته !

ـ حسناً أيتها السيدة (الذاكرة) . إنك مضطرة للاعتراف بالجمال الفني الباهر للقبة وتماثيلها .

ـ لا جمال في المطلق . لا جمال بلا عدالة . ثم أن هذه القبة منقولة حرفياً عن قبة مشابهة في « فيرونا » بايطاليا . . . تلك كانت مشيئة الفقيد ، ومشيئة الأثرياء مقدسة في بعض (الحضارات) . . . حتى بعد الموت ! كعربية ، لن يكون بوسعك قبول ذلك يوماً ، فأنت من نسل (منقرض) ما زال يؤمن بقيم أخرى . . فماذا تفعلين هنا ؟

* * *

ترحل . . .

تتوهم انك رحلت حقاً . .

تمسك بجريدة النسيان وتقرأ .

في الصفحة الأولى حكاية انتخاب أجمل وردة في حديقة الـ (غرانج) بجنيف .

وإذا كنت قادماً من لبنان مثلي ، ستقول لنفسك : لماذا لا أذهب وأنتخب وردة ؟

ستجد ذلك أكثر جدوى من انتخاب الأكثر عنفاً ، وضراوة ، أو انتخاب أجمل قناص ، أو جلاد أو تاجر أسلحة . ثم أن الوردة لطيفة وغير مؤذية ، وليست لديها (ميليشيات) مكرسة للمجازر .

ثم أننا في لبنان لم نذق نعمة الانتخاب منذ زمن بعيد ، ولم نضع في صندوق الاقتراع ورقة هي بمثابة جواز سفر الى أرض الديمقراطية والحرية واحترام المواطن . صارت النيابة عندنا كالموت . . . متى حدثت مرة لأحدهم ، تستمر .

لقد اشترك في التصويت للورود ٦٢٣٦ مواطناً هرولوا الى حديقة (الغرانج) على شاطى بحيرة ليمان ، كي يتأملها كل منهم ، وينتقي أجملها في اقتراع سري ، ويضع ورقته في الصندوق ، دون تدخل سماسرة الانتخابات و (عملاء) الورود . لم يكن لديهم ما يشغلهم في كوننا البائس المسكون بالمجاعات والحروب والأحزان غير انتقاء أجمل وردة ، أو ألطف كلب ، أو أحلى قطعة حلوى . . .

تدهش كثيراً ، وربما تحسدهم سراً !

تحدق بأسى : ها هي جريدة « تريبيون دي جنيف » تحمل على صفحتها الأولى صور الورود الفائزة . . . أما صحفنا فلا تحمل في صفحاتها الأولى إلا صور الجثث المقطعة الأوصال ، المشوهة ببشاعة تخشى منها على مشاعر أولادك ، فتخفي عنهم جريدتك ، كما لو كانت مجلة عري وخلاعة (بورنو) . . .

* * *

يلفت نظرك أمر : الوردة التي صوت لها (الناس) هي غير الوردة التي صوت لها (النقاد) . . لماذا ؟

وهل ما يختاره (عامة الناس) هو بالضرورة أقل جمالاً مما يختاره (النقاد) ؟

وهل الانفصام بين ذوق الناس وذوق النقاد محتوم ؟

ببساطة : أحببت الوردتين .

وردة الناس كانت تتفجر حيوية ونضارة . . .

وردة النقاد كان فيها جمال سري خفي . . . إنها أقل نضارة ، وأكثر ايحاء عاداً . وفي النهاية ، لست متأكدة من شيء سوى : أن الوردتين ستذويان !! . . .

الظاهرة نفسها تنسحب على أمور كثيرة ، منها الكتب . ففي مجلة « التايم » مثلاً ، هناك باستمرار قائمة لأكثر الكتب مبيعاً (أي الكتب التي صوت الناس لها ،

وكانت ورقتها الانتخابية ثمن الكتاب الذي دفعه القارىء) ، وإلى جانبها قائمة تضم أسماء أفضل الكتب (فنياً) في نظر النقاد . والكتب دوماً مختلفة ومتباينة في القائمتين . وما يختاره الناس هو باستمرار مغاير تماماً لما يختاره النقاد . هل ذلك يعني أن أحدهما على خطأ ؟ ليس بالضرورة . . . ذلك يعني ببساطة اختلاف زاوية الرؤ يا . ماذا نفعل ؟ وأي كتاب نقرأ ؟ أنا شخصياً أقرأ القائمتين : ما اختاره الناس ، وما اختاره النقاد ، لكنني أدين بشدة أولئك النقاد الذين يستخفون بإجماع الناس . الناقد الحقيقي يحاول أن يفهم مدلول هذا الاجماع ، مما يقوده إلى وعي أكبر بحال الذين يدعي النقد لهم ومن أجلهم . . . فالناقد كالأديب ، لا يكتب (للتاريخ) فقط ، وإنما يكتب لمعاصريه ولزمنه ؟ ومن فهمه لهذا الزمن قد يكتسب مزيداً من الرؤ يا المستقبلية والشمولية .

***

ترحل . . .

تتوهم أنك رحلت حقاً . . .

تجلس في مقهى الغربة . تشرب عصير الرمان ، وتتأمل التلفزيون الموضوع خصيصاً للوحيدين أمثالك ، كي لا يتظاهروا بقراءة جريدتهم باهتمام بالغ دون أن يطالعوا حرفاً واحداً منها !

شاشة التلفزيون ممتلئة بعبارة « ٣٠ مليون (صديق) للنجدة والمساعدة » . تقرر أن صديقاً واحداً فقط يكفيك ، ولكن لا بأس بـ ٣٠ مليوناً !! تخرج قلمك ، وتبدأ بتدوين عنوان مقر هذا النادي الباريسي للصداقة . تكتشف أنه خاص بصداقة الكلاب لا الناس ، والغرض منه البحث عن الكلاب الضائعة والقطط ، وإعادتها إلى أسرها (المنكوبة) ، التي أضاعت (فلذات أكبادها) التي تمشي على الأرض وتنبح وتلوث الأرصفة ، وتوشَمُ على آذانها أو مؤخراتها برقم (الكود) يدل عليها ، ويؤكد (هويتها) في حال ضياعها . . تفكر بأوطان ضائعة . بلا مبالاة الآخرين أمام مآسي أهلها . تتساءل : ترى هل حب (التفاصيل الداجنة) هنا ، هو في جوهره فعل هرب من مواجهة الواقع الانساني الشاسع الموجع ؟؟ . . . هل تخفي أوروبا رأسها داخل فروة كلب كي لا تسمع صراخ العالم البشري المتألم ؟

***

ترحل . .

تتوهم أنك رحلت حقاً . . .

تتأمل مشاهد العيد الـ ٥٠٠ لدخول مدينة « فريبورغ » في الاتحاد السويسري . . هنالك موكب مهرجاني حافل بالألوان والزينات والأفراح . . . آلاف الأشخاص ، وكلهم يرقص . يغني . يقدم لقطة رمزية عن حرفته . ها هم حراس الغابات . عمال الحدادة . عمال البناء . (الشونسونية) . عمال قص الأحجار . . وغيرهم . . إنهم يستعرضون طقوس الحياة في موكب يمثل النوازع المختلفة للنفس البشرية ، المسكونة بحب الفن والحياة والفرح والخصب .

هنا مدن النسيان . . . مدن الفرح . . . مدن المهرجانات . . . وأنا قادمة من مدينة تنتحر ، أتأمل مدينة تحتفل . . .

ماذا لو قدمنا في بيروت مهرجاناً كهذا ، نستعرض فيه (فعالياتنا) ومعظمها مقتصر هذه الأيام على ما نمارسه من عنف في مدينة الاقتتال اللامجدي ؟ ستحل المشنقة وأدوات التعذيب محل عربة الأزهار الشاسعة التي تغطي الأفق أمام عيني الآن . . .

* * *

تحب الكلاب ؟ تذهب لحضور سباقها في الـ (ريف جوش) ، لا تحب الكلاب ؟ تذهب الى جاليري « سان ليجي » للاستماع الى البصارة « فرانسين ميرسيه » في محاضرة عن . . . برج الحوت !

لا تحب الكلاب ولا الورود ولا المهرجانات ولا القبور ولا الحدائق العامة ولا « برج الحوت » ؟

حسناً . اشتر بطاقة سفر ، وعد غداً الى « برج المر » أو « برج رزق »(*) في بيروت !

جنيف ١٧/ ٧/ ١٩٨١

(*) برجان سكنيان في بيروت تحولا الى موقعين حربيين شهيرين في الحرب الأهلية اللبنانية .

دعوة لاحترام القارىء العربي

في زمن الكتابة فوق سطح من القصف الساخن ، وفي ظل (بارومتر) عربي لا يشير إلى الطقس السيء فحسب ، بل وإلى مناخ الزلازل والانهيارات والحرائق والمذابح ، ودرب طويلة من الصراع ، هنالك من يجلس على قارعة الزمن العربي ، يتسول قرش فرح ، وقرص تخدير ، وحكاية حب ملفقة ، وحلماً موهوماً . ويجد من يكتب له حكايات كهذه تسلخه عن واقع قومه ، وترمي به في شرك حلم ضبابي زائف .

* * *

في زمن الكتابة فوق سطح من القصف الساخن ، تطالعنا باستمرار كتابات تحدثنا بالتفصيل عن الحياة الخاصة لرموز المجتمع الاستهلاكي الأوروبي والأميركي ، وأهل الـ (جيت ست) الذين جواز سفرهم بطاقة (الأميريكان اكسبريس) ، وخارطة وطنهم دفتر (الشيكات) وأحزانهم بعمق زجاجة الويسكي .

حكايا لا تنتهي عن أفراح الأميرة جريس دي موناكو العابرة ، وأحزان كريمتها كارولين وخيانات الزوج فيليب جونو ومعاطف فراء غونتر ساخس ، وحيوانات بريجيت باردو ، وعشاق مرغريت ترودو ، والقمصان الحريرية لميك جاغر ، وعدد أحذية ريجين الباريسية وملهاها ، وقبعات (بارونة الحشيش) كريستينا فون اوبل ولون أظافر ديوي سوكارنو ومجوهرات ثريا وكلاب بيانكا جاغر وألاعيب جاكلين كنيدي أوناسيس وطلاق سيلفي فارتان والحبيب الأخير لشايلا . . و . . و . .

اللعنة . . لماذا نعرف ذلك كله ؟

* * *

أجل ! أصبحنا نعرف كل شيء عن الثياب الداخلية للسيد فيليب جونو والفساتين الحريرية للأميرة كارولين ، فقد رافقناهما في رحلة شهر العسل ، وكنا هناك يوم الشجار ، وكفكفنا دموعها بالمناديل المطرزة ، ووقعنا معهما على وثيقة الطلاق ،

ونحن الآن نقضي فترة قلق بالغة التوتر للتأكد مما إذا كانت علاقتها مع الصديق الجديد (أخوية) أم (تفاحية) ! وقد ينسيان هما الحكاية قبل أن ننساها نحن !

ونعرف أن بريجيت باردو قررت هجر بيتها في سان تروبيز ـ يا للأسف ـ ونعرف أن مطلقها غونتر ساخس لم يطلق زوجته الجديدة بعد ، ونحن نصحو أحياناً من نومنا مذعورين حين نرى كابوساً كهذا ، وقد بكينا فرحاً وصفقنا لأن بارونة الحشيش كريستينا غادرت السجن بعد صدور عفو عنها . والحقيقة أن قلبنا يدمى على المطلقة مرغريت ترودو التي (تناضل) بحثاً عن الحب ـ غير حبها لبناتها الثلاث ـ وتتابع أبحاثها بكل همة حول « أصل الجنس والأجناس » ولعل علاقتها بميك جاغر أكدت لها نظرية داروين حول أصل الانسان .

وكم سعدنا ونحن نقرأ الخبر الذي ارتعشت قلوبنا له فرحاً هو شراء بيير كاردان لمطعم مكسيم في باريس ، فالرجل فقير والله أعطاه (!) ، ومن دواعي سرورنا أن الليدي ديانا تصفف شعرها بهذه الطريقة الفريدة ، لكن طلاق سيلفي فارتان ينغص علينا هذه البهجة فهو طلاق نهائي كما أكدت . . و . . و . . وهذا كله نعرفه من مجلاتنا وصحفنا العربية .

اللعنة . . لماذا نعرف ذلك كله !؟

هل يعقل أن نعرف عن عائلة أمير مُوناكو أكثر مما نعرف عن عائلة بسام الشكعة أو أسرة الشهيد كمال ناصر ؟

وهل يعقل أن نعرف عدد مايوهات كارولين بدقة أكثر مما نعرف عدد عاملات الخياطة وقاطفات التبغ في بلدي ؟

وهل يعقل أن نعرف عن دخل غونتر ساخس أكثر مما نعرف عن متوسط دخل الفرد في الأقطار العربية ؟

وهل يعقل أن نعرف عن (العيش الارستقراطي) في ملهى (توينتي وان) بنيويورك أكثر مما نعرف عن (الموت العربي) ؟

* * *

للوهلة الأولى ، نغضب من الصحافة العربية . . نسأل بحنق : ما تفسير اهتمام الصحافة العربية ـ حتى الجادة ـ بنجوم المجتمعات الاستهلاكية ورموزها ؟

أليس في ذلك ما يضرب مثلاً خاطئاً للأجيال العربية الطالعة عن مفهوم السعادة وهدف الحياة ؟

لماذا أخبار (الكوت دازور) أهم من أخبار جنوب لبنان ؟

لماذا بيت بريجيت باردو في سان تروبيز أهم من البيوت التي دمرتها الطائرات الاسرائيلية في حي الفاكهاني وحاولت إبادة سكانها ؟

لماذا عدد أحذية آلان دولون أهم من عدد الطائرات الاسرائيلية التي تطلع كل يوم فوق بيروت ، وعينها على بغداد ودمشق وعمان والكويت والرياض وأبو ظبي وكازابلانكا والجزائر وبنغازي والقاهرة والخرطوم . . و . . و . .

لماذا موت إبن رومي شنايدر الصبي الجميل أكثر أهمية من موت حفيد عمر أبو ريشة ، أو موت آلاف الصبيان العرب الذين لم ينشر أحد صورهم على (٣ أعمدة) بالرغم من سقوطهم الفاجع في المذابح التي لم تحدث قضاء وقدراً وإنما حدثت عن سابق تصميم وتصور عدواني ، ولم تقع في حديقة الجد ، وإنما وقعت بعيداً عن أرض الأجداد في مخيمات القهر ؟!

ولماذا نذرف الدمع لطلاق كارولين وفراقها عن فيليب جونو (ولعلها نسيت الحكاية قبلنا) ولا نذرف الدمع لفراق آلاف النساء العربيات عن أزواجهن الضائعين بين سجون بعض الأنظمة ومقابرها ؟

وهل هذه الظاهرة في بعض الصحافة العربية هي بند من بنود خطة شاملة لتخدير المواطن العربي ، وإلهائه عن واقعه المرير ؟

***

لا أعتقد أن الصحافة العربية تمارس ذلك ـ عن سابق تصميم وتصور ـ إلا فيما ندر . . وهذه الندرة نعرفهاجيعاً وهي تتساقط بشكل تلقائي ، فالمرحلة تدفنها . أما بوجه عام ، فيخيل إلي أن حسن النية هو الأصل ، وأن التفسير التالي قد يكون مقبولاً بشكل مبدئي : الصحافة العربية تعطي القارىء ما يحب ، أو تتوهم أنه يحب قراءته . والإنسان يحب قراءة قصص الحب ، وتجتذبه حكايات العشاق . . والانسان ـ بوجه عام ـ يحب أن يكون ثرياً . محبوباً . معشوقاً . متحرراً من المسؤوليات . يرتدي فاخر الثياب ويدخن سيجار (روميو وجولييت) ويتأبط ذراع فرح فوست أو بو ديريك ، ويرتدي ساعة (بياجيه) ويستحم بماء الورد .

وأولئك (الملاعين) الذين تروي الصحافة حكاياتهم يفعلون ذلك كله وأكثر منه . لديهم المال ، أي لديهم الوقت للتفرغ لحكايات الحب .

القارىء حين يقرأ حكاياتهم (يكونهم) ولو للحظات . يصير القارىء هوغونتر ساخس ويمتلك أحلى النساء ويطلقهن أيضاً . وتصير القارئة هي سندريلا الأساطير الأميرة كارولين التي ترقص مع الألعاب النارية الملونة في سماء مونتي كارلو .

كان هذا يحدث لبعض القراء . وهو الآن يحدث لعدد أقل بكثير من الناس . لقد تبدل القارىء العربي ، وتبدل الانسان العربي والزمن العربي ، وبقي أن تعي الصحافة العربية ذلك وتواكبه . .

أصبح عدد الذين يصابون بالتقزز عند قراءة هذا البطر المترف كبيراً جداً . صاروا يحتقرون هذا النمط من الحياة ، وهذه السطحية في امتلاك المتعة وهذا الهذر أمام البؤس البشري في كل مكان . . وبقي أن تثق الصحافة العربية بالوعي المتنامي لقارئها ، وتلحظ وقوفه ساخراً أو مشمئزاً أمام هذا النمط من البشر وحكاياهم ، مثل وقفة شاب أمام قنينة الرضاع بالحليب التي يصر أهله على تغذيته بها ، أو بـ (السيريلاك) ، دون أن يلحظوا أن بوسعه قطع (رأس الحية) بأسنانه ! !

***

هذا لا يعني أننا نريد الانقطاع عن العالم الخارجي . إننا لا نزال نرغب في سماع أخبار الناس في كل مكان ، شرط أن يكون هنالك ما يربطنا بأصحابها غير شريط حذاء (بالي) الفاخر ، أو زنار جلد (كروكوديل) من عند (جوتشي) .

إننا نريد سماع أخبار الناس الذين يمسون حياتنا كعرب من قريب أو بعيد ، سلباً أو إيجاباً .

نحب مثلاً أن نسمع أخبار (التقدمية) جين فوندا ، التي كرستها بعض صحافتنا العربية ذات يوم نموذجاً للفنانة الملتزمة بالكفاح ضد (الأمبريالية) . . فذهبت (الرفيقة) فوندا لزيارة ربيبة الأمبريالية إسرائيل ، وقامت بسياحة فوق الجرح العربي مساهمة في بناء المستوطنات الصهيونية . ودعا طفل عربي صغير على رجلها (بالكسر) ، فسقطت وكسرت رجلها في تل أبيب ، وكسرت حبنا الأعمى لها .

ان نقل خبر كهذا ضروري جداً ، كي نزداد معرفة بأولئك الغرباء الذين نمنحهم الازهار البرية لقلوبنا ، وبنفسج حناننا ، فيمنحوننا الغدر .

ثمة أخبار كنا نحب أن نسمعها قبل وصولها إلينا بزمن طويل . منها مثلاً أخبار المطربة (التقدمية) جون بايز ، التي جاءت ذات عام بدعوة رسمية وغنت في بعلبك

أغنيات عن الحب والحرية والعدالة . .

وصرخ الشبان يومئذ وقد استبد بهم الطرب : أين أغنية فلسطين يا جون بابيز ؟

وردت عليهم (الرفيقة) بابيز بابتسامة صفراء، وتجاهلت الاستفسار .

قلائل عرفوا سر الابتسامة الصفراء الصامتة ، فهي لم تنشد « أغنية فلسطين » لأنه سبق لها وأنشدت « أغنية إسرائيل » وكرست من قبل أكثر من أغنية للمقاتل الاسرائيلي ومجد صهيون وإستعادة (أورشليم) و « الأطفال الذين يقودهم موسى إلى النصر » .

لكن الصحافة العربية لم تكن قد نقلت يومئذ هذا الخبر إلى قرائها . . وأمثال هذه الأخبار تمسنا بشكل مباشر أكثر بكثير من خبر رحلة جريس وكارولين إلى سالزبورغ للاستجمام ، ورخام (حمام الهنا) في البيت الجديد لسيلفي فارتان .

***

إننا لا نريد مغادرة العصر والعيش على هامشه . نريد أن نعرف كل ما يدور ، وكل ما يتوهمه الآخرون مهماً ، ولكن ضمن حجمه الطبيعي بالنسبة إلينا كعرب ، وضمن إطار مصالحنا ومعاركنا وواقعنا الاجتماعي والتاريخي . .

لا نريد أن نبتلع أقراصاً منومة تقودنا الى حلم ليس بحلمنا .

كلمة حق أخيرة . .

المسؤولية لا تقع كلها على عاتق الصحافة العربية ، وإنما على الذين جعلوا (التفاهة) هي الشيء الوحيد الذي لا تعترض عليه أكثر الرقابات العربية ولا تعتبره ضاراً .

وهذه الموضوعات التافهة هي موضوعات (محايدة) ، بمعنى أنها لا تتسبب في قطع رأس كاتبها ولا قطع رزقه ، ولا منع ناشرها في أكثر من بلد . .

الافتقار إلى حرية الكلمة بوجه عام يساهم مساهمة فعالة في تنشيط نسل التفاهة ، والترويج لهذا النمط والترجمات والسير الغرامية و (البذخية) . .

فالرداءة هي ابن شرعي من أبناء القمع . .

وحينما تكون حرية الكلمة في أكثر أقطارنا جزيرة أصغر حجماً من طابع البريد أو ورقة توت بروك شيلدز ، فيجب ألا ندهش حينما نطالع مذكرات آلان دولون وفاديم الغرامية . .

إذ من يجرؤ على أن ينشر بدلاً منها المذكرات الحقيقية للحرب اللبنانية مثلاً ؟
وإذا قيلت الحقيقة بأكملها ، ما عدد البلدان العربية التي ستسمح بدخول هـذه المجلة ؟
وتحت أي جسر في بيروت سنجد جثة صاحبها ممزقة بالرصاص ؟

جنيف ٢٠/ ٩/ ٨١

مواطنة متلبسة بالغيرة

ثمة فجر يداهمك في الغربة ، يأتيك مسكوناً بتلك الوجوه كلها التي لا تعرفها ، لكنك تحبها . . وبالوجوه التي عرفتها ، وأحببتها وكرهتها في آن . . وجوه لها ملامح الأجداد والاحفاد ، وتراها بوضوح إذا حدقت بوجهك في المرآة . . في الظلمة !! . .

ثمة فجر يداهمك في الغربة ،

يأتيك كالبرق الخاطف . يقتلع شجرة ذاكرتك بكل جذورها (المتغلغلة) في روحك ، مثل اصابع تقتلع منك القلب بشرايينه . .

ثمة فجر يداهمك في الغربة كثيفاً ، ودونما صوت ، فتعرف ان وقت العودة الى الوطن قد حان ـ إذا كان بوسعك العودة ! . . ماذا تفعل ؟ تسارع مثلي لشراء بطاقة سفر .

***

وأنت في طريقك لشراء بطاقة السفر ، ستتغزل بوطنك أينما كان ، وكيفما كان . .

وهكذا وجدتني اتغزل ببيروت ـ رغم صعوبة ذلك هذه الأيام ـ ! . .

قلت لنفسي : الحرية متوافرة في بيروت ، أكثر منها في باريس . بل انه ليس في الدنيا أي مكان أكثر (حرية) من بيروت .

في بيروت ، وحدها تستطيع ان **تقتل** من تشاء دونما عقاب ، بل دونما عتاب . . سيسارعون إلى اتهام سواك ، وسيختارون الأكثر براءة . . سيدفنون القتيل مجاناً ، ويهنئونك بالسلامة ، ويرشون الأَرُزّ والأزهار على رأسك الباهي .

وفي بيروت وحدها تستطيع ان تمارس هواياتك **كلها**، كإشعال الحرائق ، واقتحام البيوت ، وكسر زجاج المتاجر لأن بضاعتها لا تعجبك ـ او لانها تعجبك ! ـ وتستطيع أيضاً ان تمارس هواية الصيد في الشوارع ، واذا كنت قد ضجرت من صيد الطيور ، فلك في تلك المرأة الحامل خير بديل . . ام انك تفضل هذا البائع المتجول ؟ . . سئمت اطلاق الرصاص على الأهداف المتحركة ؟ حسناً . تستطيع ان تطلق النار على النجوم أو

أقفال الأبواب أو دور السينما التي لا (تستلطف) اسمها . . وقد تتحول بعد ذلك الى (بطل) شعبي .

نعم . بيروت كريمة ، ويستطيع الانسان فيها ان ينام في أي بيت يختاره ، اذ يكفي ان يكسر الباب بسلاحه حتى تضمه الجدران اليها . . . والجيران .

وبيروت مدينة لا يمكنك ان تضجر فيها ، ففي كل منعطف (مفاجأة ما) ، من نوع لا ينسى . . وقد يترك بصماته على الجسد الى الأبد . .

هكذا كنت أقول لنفسي (مهنئة) ، والتاكسي يهرول بي في الدرب الى شركة تعيدني الى بيروت .

***

صحوت من أفكاري (الممتعة) هذه على صوت شجار . كان السائق يتشاجر و (سيارة)أخرى. . . لم أفهم بالضبط ما حدث .ٓ. كل ما فهمته ان هنالك خطأ ما . . وكل سائق يهدد الآخر بالعقاب (الأعظم) : الشكوى الى البوليس! . وكل يتهم الآخر بلغة (منسية منقرضة) مثل : انتهاك النظام . . الحق . . العدالة . . وغيرها من الألفاظ (الديناصورية) التي تجاوزناها منذ زمن بعيد في بيروت .

وانتهى الشجار برتابة وبلادة ودونما اطلاق نار ولو من رشاش واحد . . حسناً . . انني لا اطالبهم باستخدام قذائف الـ (آر. بي. جي) و (ب ٧) لخلاف على افضلية المرور كما عندنا . . ولكن ، كيف ينام الليلة سائق التاكسي دون ان يحلق شاربيه ، ما دام لم ينتقم (لكرامته) ، بقتل السائق الآخر مع احد ركابه ، واحد المارة على الأقل ؟ . .

***

كنت تتمزق غيرة وانت تطالع بعض الصحف الفرنسية ، التي ينام محرروها ليلاً ملء جفونهم ، بالرغم من انهم يبدون في كتاباتهم وجهة نظرهم التي قد تعارض رأي الآخرين من ذوي السلطة والنفوذ . .

تتأمل مثلاً ذلك الكاريكاتور في جريدة (الفيغارو) ، الساخر من احد المتسلطين الجدد (قبضاي) الذي قتل رجلاً لكنه يحتج على (قسوة البوليس) الذي يريد اعتقاله ! أو ذلك المقال الذي يتحدث عن (الأمراء الجدد) ويقصد بهم بعض أصحاب النفوذ الجدد .

قد تكون حتى الموت ضد وجهة نظرهم . . لكنك ستحسدهم حتى الموت لأنهم يمتلكون حق ابداء وجهة نظرهم بحرية ! . .

* * *

النظام . . الحق . . العدالة . . الحرية . .

تتفجر احزان القلب القادم من بيروت واليها . . تخرج ذكريات رحلتك من سراديب النسيان ، وتعود تلك الغصات كلها طازجة وحارة كدمعة . .

كأنك لم ترحل حقاً قط . .

كأنك كنت تحدق في المرئيات كلها عبر نافذة الوطن التي نخرها الرصاص ، ودمرت التناقضات زجاجها ، وتحولت فيها احلام الثورة الى كوابيس .

كأن الوطن جفنك الذي ينفتح على عدسة العين عبر زاوية واقع قومك . كأنك (لا تبصر) ما ترى ، وانما (تقارن) . .

حسناً . لست مبهوراً بالحضارة الأوروبية الغربية . ولست مغرماً بكل ما شاهدت . ولعلك شعرت بالاشمئزاز في أكثر من مناسبة . . ولكن بعض ما شاهدت يثير غيرتك ، أو ينكأ احزانك ! . . .

* * *

أعلنت الغيرة على اولئك العمال والفلاحين السعداء الذين كنت التقيهم في سيارة النقل الكبيرة (الباص) ، وانا اتنقل بين القرى الفرنسية والسويسرية . .

كنت دوماً اؤمن بأن الريف يعكس الصورة الحقيقية للوطن ، المغايرة ـ غالباً ـ للصورة السياحية في العواصم . .

وكنت دوماً (منجذبة) نحو الريف ، لا حباً (بالطبيعة) وحدها ، بل حبا (بالطبيعة البشرية) الأكثر عرياً هناك .

وكنت أتأملهم بسطاء القرى من عمال وفلاحين ، وكل فرد فيهم امير بروليتاري في بيته ، وفي حقله ، وفي وطنه . . .

ولن انسى ذلك العامل في « فيرييه دي لاك » الذي تناولت العشاء ليلة السبت (عطلته الاسبوعية) الى مائدته وأسرته ، وحين قرع بابه احد وجهاء القرية طالباً نقله بزورقه الى الكازينو ، صرخ به مثل ملك اسطوري في قلعته : لقد غطست الشمس رأسها في البحيرة ، ولن اهرول الآن برأسي . . حتى الى جزيرة من ذهب . . .

* * *

أعلنت الغيرة على كرمليتا فيوليتا ، تلك الطفلة الجميلة ورفاقها الخمسة الصغار . .

كنتُ جالسة في الحديقة العامة في « آنسي » ، إحدى قرى الـ (هوت سافوا) على شاطىء النهر . . أتأمل هدية بسيطة اشتريتها لصديق لا اعرفه ، لكنني قد التقي به !

كانت الهدية لؤلؤة داخل محارتها نصف المتفتحة ، وقد صبوا عليها زجاجاً شفافاً مقصوصاً كما الماسة ، بحيث تبدو اللؤلؤة الواحدة في الداخل عدة لآلىء وفقاً لزاوية النظر اليها (كالانسان مثلاً) . .

وفوجئت لحظتها بأنني محاطة بستة أطفال يشاركونني التحديق . . والفضول . . والاسئلة . .

كرمليتا فيوليتا في العاشرة من عمرها ، وهي وحدها تسأل عني ، لا عن اللؤلؤة .

قلت لها انني عربية . قالت : جزائرية ؟ قلت : تقريباً . . فالأقطار العربية كثيرة ، لكن ذلك لن يدوم طويلاً . .

واعترف انني استرسلت في محاضرة عقائدية قلت خلالها للأطفال كل ما اشتهي قوله ولا أجرؤ !! . . . والأطفال ينصتون ويتأملونني بذهول شبيه بذهول تلك العجوز العابرة وهي تتأمل صبيتين تسبحان في النهر وقد نسيتا ثياب الاستحمام (وورقة التوت) في البيت .

وحين انتهيت من محاضرتي الجنونية قلت للأطفال فجأة : هيا اذهبوا !! . . كنتم في طريقكم الى مكان ما . . الى أين ؟

قالت كرمليتا فيوليتا : كنا في طريقنا الى بحيرة « آنسي » . وفكرت : البحيرة تبعد عنا حوالي ٢ كيلومتر !!

وامتلأت بالغصات . . تذكرت ان طفلي لا يجرؤ على الخروج الى الشرفة عبر اكياس الرمل ، بينما تستطيع كرمليتا فيوليتا ان تذهب ورفاقها الى البحيرة عبر الاشجار . .

لماذا ابني حازم وابناء بلدي الحزين يعيشون محرومين من الشمس والحدائق والانهار والطيور . . وحتى اسفلت الشارع . . وكرمليتا فيوليتا تشرب ذلك كله بزرقة عينيها ؟

لماذا يحلم حازم كل ليلة بالجثث والقتلى والمدافع والزلازل ويخاف صوت الرعد اذ يتوهمه قنبلة أخرى ؟

ولماذا تحلم كرمليتا فيوليتا بالنجوم والبجع الأبيض وميكي ماوس والتلفريك والبحيرة ؟

* * *

أعلنت الغيرة على تلك النباتات الجميلة المتوجة بالخضرة المضيئة ، التي تقطن الخيام البلاستيكية الشفافة المنصوبة لحمايتها في قرية « بيرلي » عند الحدود السويسرية - الفرنسية .

تذكرت أطفال الخيام في وطني . .

لا أطفال فلسطين وحدهم ، بل اطفال لبنان في مجاهل الهرمل وعكار الذين شاهدتهم في خيام الطين والحجر والبؤس . . وكنت اعرف انهم مجرد نموذج لبناني لما في بعض الأقطار العربية الأخرى من آلاف الفقراء والبؤساء . .

لماذا تعيش النبتة في (بيرلي) خيراً مما يعيش الانسان في أكثر أقطار وطني العربي ؟

* * *

التاكسي يتابع دربه ببطء في زحام السير الباريسي ، وذاكرتي المحمومة تهرول في دروب اللحظات المذبوحة . .

لماذا يجد أطفال باريس مكاناً مثل « سنتر بومبيدو » يذهبون اليه ، ويمثل ذلك الزواج الجميل بين العلم والفن ، بين المعمل والمتحف ، بينما ينام اطفال بلدي في (حديقة الصنائع) في العراء ، هرباً من (الفاكهاني) ، (والفاكهة) الاسرائيلية المتفجرة ، والبرود العربي اللامبالي القادم من بعض الأقطار غير الباردة ؟

لماذا تستطيع كرمليتا فيوليتا ان تذهب الى« سنتر بومبيدو » الذي يبدو من الخارج مثل معمل اخضر الانابيب ، وتكتشف في الداخل كنوز الفن العالمي المعاصر والغابر ، ولا يستطيع طفلي واطفال بلدي الذهاب الا الى « براد الجثث » في محاولة للتعرف على بقايا آبائهم وذويهم ؟

* * *

أعلنت الغيرة عليك يا كرمليتا فيوليتا . . ايتها الطفلة الجميلة الفقيرة ، الثرية بوطنك . . فالثري في وطن مستباح ، فقير ، فقير ، فقير . .

* * *

أعلنت الغيرة عليك أيتها البجعة الجملية الراكضة في بحيرة آنسي ، وقد رفعت منقارك البرتقالي الجميل نحونا في دلال ، كأنك تهمسين : أكاد أجوع . .

ففتشت الطفلة كرمليتا فيوليتا عن الخبز في حقيبتها ، واكتشفت انها أكلته . .

وحين لوحت بمنقارك مرة اخرى ، رمت اليك كرمليتا فيوليتا بكل براءة بقطعة نقودها الفضية الأخيرة (فرنك) وصرخت بك : اذهبي واشتري رغيفاً به !

وضحك الكبار ، وحزنت . .

أليس ذلك ما يفعله بعض العرب الكبار بجوع أطفال بلدي ؟؟

آنسي ـ باريس ٣١/ ٨/ ١٩٨١

ضد المرأة . مع الرجل

وسط فوضى العنف المتصاعدة من كل حدب وصوب ، يبدو أن المرأة هنا في سويسرا قررت أن تشن حربها الخاصة هي أيضاً ، وتلون طائراتها وأساطيلها بالكحل وطلاء الأظافر ، وتكتب شعاراتها بأحمر الشفاه : ليسقط الرجل !

فقد أعلنت الصحف في سويسرا الفرنسية والالمانية والايطالية عن إنشاء حزب سياسي نسائي ، حصلت مؤسساته على ترخيص رسمي . ووجهة نظرهن كما يقول الخبر : ان مشاكل النساء تفهمها النساء فقط ، وتجب المطالبة بها مباشرة عبر حناجرهن ، بدلاً من الوسيط : الرجل .

كمواطنة عربية عاملة ، أعتبر أن أي مكسب تحققه المرأة في وطني ، أو في أي موقع آخر على وجه الكرة الأرضية هو (كسب) شخصي لي .

كمواطنة عربية عاملة ، أعرف مدى الظلم المركب الذي تتعرض له الأكثرية الساحقة من النساء العربيات في بعض أقطارنا ، وأرى في أي نصر تحققه المرأة في أي مكان بصيصاً من الضوء يمكن ان يسهم في توجيه مسار بوصلتنا نحو العدالة الاجتماعية ، وإضافة الى الوعي الانساني الجماعي .

لكن خبر تأسيس حزب نسائي سياسي سويسري لم يفرحني ، بل وجدته كئيباً كالعزلة ، قاحلاً كخيبة الأمل ، وأثار مخاوفي واسئلتي معاً . .

فبعد مرحلة (الجمعيات النسائية) التي يطالب بعضها بحقوق المرأة على طريقة (جمعيات الرفق بالحيوان) نجدنا أمام حزب سياسي « شوفيني » يعلن ببساطة عن عدم ثقته بـ (الذكر) كنوع بيولوجي ! !

***

كأن المرأة تدور في حلقة مفرغة .

كأني بها تعود إلى نقطة البداية . . كأن امرأة هذا البلد الأوروبي المرفه تعود الى

عصر « الجمعيات النسائية » التي كانت هي (النموذج) النضالي للمرأة في أواخر القرن التاسع عشر ، مع تجديد في التسميات (حزب) ، وحفاظ على الجوهر (العزلة ، التفرقة ، الشوفينية المضادة) .

كأن المرأة العربية المعاصرة في بعض أقطارنا ـ بصورة خاصة ـ وجدت أول الدرب الذي ما زالت الغربية تفتش عنه . . فقد استطاعت المرأة العربية أن تقوم بنقلة (نوعية) ، فانتقلت من المناداة بتحريرها فقط ، إلى المناداة بتحريرها ضمن إطار تحرير (المقموعين) جميعاً في وطنها كخطوة أولى ، وعلى وجه هذا الكوكب (كحلم مستقبلي لنساء الأرض ورجالها) .

الحركة النسائية العربية لم تكن في يوم من الأيام (نسائية) بمعنى العزلة والانطواء . والصيحات التي تعالت منذ البداية بتعليمها وتحريرها لم تكن محرومة من دعم الرجال المصلحين أمثال قاسم أمين ومحمد جميل بيهم و . . إلى آخره . ولم تكن غاية (الجمعيات النسائية) الحصول على (اعتراف) ، بقدر ما كانت تهدف إلى ممارسة العمل والمشاركة في حمل المسؤولية .

السنوات العشر الأخيرة حملت إلينا التطور الجميل في قضية تحرر المرأة في غير قطر . . إذ أضحى ذلك هم المناضل بوجه عام ، للمشاركة والالتحام في درب واضحة المعالم والأهداف : العمل من أجل الوطن ، والحيلولة دون تشتت القوى والفعاليات كلها . . ورافق تطور عمل المرأة الوعي الأساسي بجوهر القضية :

الرجل ليس هو المضطهد (بكسر الهاء) الرجل ليس هو العدو . إنه الشريك . انه هو أيضاً يعاني . الحل في أن تضع يدها في يده ، لا في أن يتلهيا معاً في شجار (كاريكاتوري) لا تربح حصاده غير القوى التي تسعى لتكبيلهما معاً . .

* * *

بالرغم من هذا الوعي الجميل لدى المرأة العربية ، ظلت هنالك صيحات تتعالى من وقت إلى آخر ، تحرضها ضد الرجل الكادح ، رفيقها في درب الألم ، وتصور القضية خارج إطارها الاجتماعي والسياسي والتاريخي ، كما لو لم يكن على وجه الكرة الأرضية سوى طبقة واحدة مرفهة تطالب بحرية العبث والكسل .

بعض هذه الصيحات كانت وليدة رؤيا طبقية وتاريخية قاصرة ، وبالتالي كانت تتحدث عن (حرية) طبقة معينة نساؤها عاطلات عن العمل ، مع أن المقصود بحرية المرأة هو المناداة بالحياة الكريمة للاكثرية الساحقة من النساء العربيات (اللواتي لا يقل

رجالهن بؤساً عنهن بكثير !) ، ولا يمكن لأحدهما أن يفوز بالعيش الكريم دون الآخر ، فالقضية هي في النهاية قضية تحرير المظلومين جميعاً .

من هنا تبدو قضية (المرأة) ، قضية (رجالية) في الدرجة الأولى . . وبالأحرى قضية وطنية ترتبط بالبنى الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والسياسية للوطن .

وكل محاولة لعزل (قضية المرأة) عن هذه العوامل ، تؤدي بها إلى درب هزلية لا مجدية ، أقلها المطالبة بالعودة إلى المجتمع (الأمومي) حيث تحكم المرأة القبيلة . والعودة إلى أشكال الحياة المنقرضة قد تكون امراً مثيراً لعلماء (الأنثروبولوجيا) ، لكنها ليست كذلك بالنسبة إلى أفراد واعين ، في أمة تمر بمأزق حرج يتطلب حشد الطاقات كلها لمواجهة عدو فعلي موجود ، بدلاً من التوهم ان العدو هو . . الرجل !

والجميل ان المرأة العربية في أكثر الأقطار ، استطاعت ان تعي ذلك كله ، وان تفهم في الوقت ذاته ان كل رجل مسؤول عن المطالبة بحقوق المسحوقين بما في ذلك . . المرأة !

* * *

لقد تعرضت المرأة العربية في أكثر من قطر (للاستفزاز) السياسي والاجتماعي وحتى . . الفكاهي . . لكنها ظلت واضحة الرؤيا والأهداف . .

إليكم أمثلة من لبنان : في معرض السخرية السياسية ، كانت ذروة حملة سياسي (اشتراكي !) على الرئيس صائب سلام يوم شكل (حكومة الشباب) في أوائل السبعينات ، السخرية منه بالقول : (فليشكل حكومة نصفها شباب ونصفها « نسوان » - أي نساء !) أجل ! انها لذورة التشهير في نظر البعض أن يكون نصف الوزراء من النساء مثلاً .

حكاية اخرى : ذات يوم هاجمت رئيسة وزراء اسرائيل غولدا مايير لبنان . . فرفض رئيس الوزراء اللبناني يومئذ المرحوم « ح . ع » الرد عليها ، لا احتقاراً للعدو ، ولكن (احتقاراً) لأنها . . إمرأة . . وقال يومئذ كلمته الشهيرة (ما بحط عقلي بعقل إمرأة !) .

واعتقد ان بعض الأقطار العربية الأخرى قد لا تخلو من أمثلة مشابهة ، يستطيع كلٌ استحضارها إلى ذاكرته .

إنني إذن لا أقصد (تبرئة) الرجل ولا (إتهامه) بقدر ما أقصد توضيح الصورة المشرقة الواعية والمتزنة ، البعيدة عن (ردات الفعل) التي تتخذها المرأة العربية في

مسيرتها نحو (حقوقها) . . انني لا أدعي انها حصلت عليها ، لكن الجميل هو وعيها بأنها لن تستطيع الحصول عليها اذا لم تتبدل أشياء اخرى كثيرة خلال ذلك . أي لا يمكن للعالم كله ان يقف مكانه بكل ما فيه من بؤس ، وتنال هي وحدها حقوقها !

هذا لا ينفي طبعاً ضرورة التذكير بها باستمرار ، والمطالبة بتعديل بعض التشريعات والقوانين الجائرة بحق المرأة في أكثر من قطر ، ولا ينفي أيضاً ضرورة التوعية لتطوير نظرة الرجل العربي إلى المرأة بوجه عام (وهو أمر تستطيع أن تساهم فيه المرأة العاملة بسلوكها ، قولاً وفعلاً) . .

ولكن . . لن يصل الأمر بنا إلى إعلان الحرب الشاملة على الرجل ، أي رجل . . لمجرد أنه ولد (ذكراً) . . فنحن لن نداوي الصداع بقطع الرأس !!

***

أعرف أن الرجل العربي ـ بوجه عام ـ ما يزال ينظر بحذر إلى تحميل المرأة مسؤوليات مصيرية كبيرة .

لكن رواسب مئات من السنين لا يمكن ان تمحي عن القلب البشري بعشرات الشعارات .

حذار من استيحاء فكرة تأسيس حزب نسائي شوفيني . فالخطأ لا يعالج بتقليده !

والمطلوب باستمرار من المرأة العربية أن تتجاوز جرح أنوثتها ، إلى مسؤولية إنسانيتها ! . .

ولكن ، لماذا تعود المرأة الغربية المرفهة إلى نقطة البداية ، إلى إعلان الحرب ، في حين نجد المرأة العربية تزداد تبيناً لمعالم الدرب رغم قساوة وضعها ؟

ترى هل وجود العدو الصهيوني والمكائد ضد أمتنا قد ساهما في إنضاج الوعي النوعي لدى المرأة العربية بسرعة خارقة نسبياً ؟ . .

مع الرجل ، ضد المرأة ؟

نعم . ما دام الرجل مع المرأة !!

سان سيرج ١٧/ ٨/ ١٩٨١

القبض على تاجر البندقية

حينما يموت أديب ما ، ويرثيه صحبه وأهل القلم ، تتكرر باستمرار عبارة واحدة معينة ولكن بصيغ شعرية مختلفة ، وهي مخاطبة الفقيد بما معناه : إنك لم تمت . ما زلت حياً بيننا . ستبقى خالداً في أعمالك وحروفك . . . الى آخر المعزوفة .

وحينما يكون الفقيد صديقاً من أصدقائي ، أشعر بغصة وأنا أسمع هذه النغمة ـ أو أكتبها ـ ! . . يصرخ في داخلي صوت : ولكنه مات . مات . وكل المراثي حروف من السكر نرشها على الجثة ، ريثما يلتهمها الدود في المقبـرة ، ويأتي عليهـا دود النسيان في الذاكرة البشرية الهشة .

ولكن ، حينما أعلنت اسرائيل منع المسرحي والشاعر العظيم شكسبير من دخول أراضيها ـ وهو الميت منذ أوائل القرن السابع عشر ـ أدركت أن الفنان العظيم لا يموت حقاً . . وأن الفن العظيم يظل بصورة ما معاصراً لأنه يستشف المستقبل .

لقد منعت اسرائيل مؤخراً مسرحية « تاجر البندقية » لشكسبير المكتوبة في أواخر القرن السادس عشـر أي منذ حـوالي ٤٠٠ سنة ، وذلـك لأنها تشكل في رأي الـرقيب الاسرائيلي « خطراً على سلامة دولة اسرائيل » ! !

إذن خلود الفنان حقيقة جميلة ، وشكسبير ما زال حياً بدليل صدور قرار بترحيله من القدس . ومسرحيـة « تاجـر البندقيـة » ما زالت معـاصرة بـدليل منـع الناس من قراءتها ! . . .

* * *

ستتساءلون معي : لماذا تمنع اسرائيل مسرحية « تـاجر البنـدقية » المكتـوبة منـذ حوالي أربعة قرون ؟

المعروف منذ ذلك الزمان أن « تاجر البندقية » هي كوميـديا ، لا تـراجيديـا من (وزن) الأعمال الأخيرة لشكسبير (الملك لير ـ ماكبث ـ هاملت ، مثلاً) . . . ـ الناقد

فرانسيس مير نوه بها في كتابه « فالاديس تاميا » ككوميديا وحدد تاريخ كتابتها التقريبي بعام ١٥٩٤ .

إذن من الثابت منذ حوالي أربعة قرون أن « تاجر البندقية » هي كوميديا لا تراجيديا ، فلماذا ترى فيها اسرائيل دراما تخص حائط المبكى ، وموقعة حربية تستحق الاستنفار ، وعملاً فدائياً يجب قمعه ، وخطراً مباشراً على سلامة اسرائيل ؟

وشكسبير ، ذلك الممثل والكاتب الذي ولد منذ أكثر من ٤٠٠ سنة ، ترى هل دار بخلده وهو يكتب هذه الكوميديا لإضحاك الناس في لندن ، انه يخط سطوراً ستعتبرها (دولة ما) خطراً مباشراً يهدد سلامتها ؟

هذه التساؤلات كلها ، قد تجد أجوبة عند « تاجر البندقية » . فتعالوا نصدر (مذكرة جلب) بحقه ، ونقبض عليه في دهاليز الذاكرة ، ونستجوبه . تعالوا معي نستجوب « تاجر البندقية » لنعرف : لماذا حولت اسرائيل هذه الكوميديا الشهيرة الى تراجيديا ؟ . . .

* * *

انطونيو هو تاجر البندقية . صديقه الحميم يدعى باسانيو ، وهو بحاجة ماسة الى النقود كي يخطب الحبيبة الثرية بورشيا . الصديقان واقعان في ورطة مالية تتلخص في (الافتقار الى السيولة) . انطونيو ينتظر ربحاً وفيراً ، لكن سفنه المحملة بالبضائع لما تصل الى البندقية بعد ، وهي ما تزال مبعثرة بين موانىء الهند وطرابلس والمكسيك وانكلترا . . والبحر غدار . . . والربح ما زال أسماكاً تسبح في الماء خارج شباك تاجر البندقية .

وهكذا ، يذهب باسانيو ليستدين نقوداً من اليهودي الشهير شايلوك ، المعروف بالثراء ، والربا الفاحش الذي يتقاضاه من ضحاياه دونما رحمة ولا شفقة . لكن الحب لا يعرف الشفقة أيضاً ، وباسانيو يخشى التلكؤ في خطبة الذكية الحلوة بورشيا ـ التي يخطب ودها القاصي والداني ـ .

شايلوك يوافق على إعارة باسانيو المبلغ المطلوب (٣٠٠ دوقية) ، ما دام الكفيل هو انطونيو تاجر البندقية .

حتى هنا كل شيء عادي . لكن شايلوك يشترط نوعاً جديداً من الربا ، إذ يقول لأنطونيو (ص ٢٢٨ من كتاب الأعمال الكاملة لشكسبير ـ مراجعة البروفسور بيتر

الكسندر ـ منشورات كولينز) : ستذهب معي إلى كاتب العدل وتكتب لي صكاً و « إذا لم تدفع لي ديني في يوم محدد، في مكان محدد. . . فإن سداد الدين سيكون رطلاً من لحمك الأبيض ، أقتطعه بسكيني من أي موضع أختاره من جسدك » . ونجده فيما بعد ، يختار أقرب موضع من القلب !

ويقول أنطونيو « سأوقع صكاً كهذا
وسأقول ما أعظم حنان اليهود » ! . .

وتجري الرياح بما يشتهي باسانيو فيتزوج الرائعة بورشيا ، وتجري الرياح بما لا يشتهي أنطونيو وسفنه ، ولا يتم سداد الدين في الموعد المحدد والمكان المحدد .

وفي المحكمة ، نجد دوق البندقية يشتم شايلوك المرابي وينعته بأبشع الصفات (ص ٢٤٣) ولكن المرابي لا يبالي ، وكل ما يريده هو الحصول على رطل من لحم انطونيو ! . . . ويحاولون عبثاً إقناعه بقبول مبلغ يوازي ثلاثة أضعاف دينه ، يدفعها باسانيو . لكنه يرفض كل اغراء . إنه يريد القتل .

وهنا تأتي الرائعة بورشيا متنكرة في زي محام شاب ، وتعلن في المحكمة : القانون مع شايلوك ، وله الحق في اقتطاع (رطله) المنشود من لحم تاجر البندقية كما ينص العقد . ويقر الدوق بذلك على مضض ، فالقانون هو القانون . ويبتهج شايلوك لذلك ، ويسن سكينه متحفزاً . وتذكره بورشيا المتنكرة في زي المحامي بأن العقد ينص على أن يقتطع اللحم « من أقرب موضع من القلب » فيزداد المرابي حبوراً ويمتدح المحامي البارع ! وهنا تنادي بورشيا « أحضروا الميزان » وتقول مخاطبة شايلوك : « أحضرْ جرّاحاً ، فقد ينزف أنطونيو حتى الموت » .

يجيب شايلوك : « لكن العقد لا ينص على ذلك » .

تقول : « أحضره بداعي الشفقة والرحمة » .

شايلوك يصر : « العقد لا ينص على ذلك » .

تخاطب بورشيا انطونيو : « هل لديك ما تقوله أيها التاجر » ؟

يجيب : « القليل . إني مستعد . .
اعطني يدك يا باسانيو . وداعاً » .

وهنا تفجر بورشيا قنبلتها القانونية ، وتقول لشايلوك : مهلاً .
هذا العقد لا يسمح بإراقة نقطة دم واحدة .

كلماته تنص بوضوح ، على حقك في « رطل من اللحم فقط » .
وهكذا ، خذ بحقك ، ولكن ،
بينما أنت تقتطع لحمه ، تذكر . .
إذا أرقت نقطة دم مسيحية واحدة من دمه ،
فإن أراضيك وبضائعك
تصادر وفقاً لقانون البندقية .
وتصير ملكاً لها !
وهنا يسأل شايلوك مذعوراً : هذا هو القانون ؟
تجيب : « نعم . وما دمت راغباً في تطبيقه الى هذا المدى ، فثق بأننا سنطبقه عليك بأكثر مما اشتهيت ! » يتراجع شايلوك : إذن سأقبل عرضه . سآخذ ثلاثة أضعاف نقودي ، وليذهب المسيحي .

يهتف باسانيو : خذ المال .
تقول بورشيا المتنكرة : هدوءاً . سيحصل اليهودي على العدالة التي طلبها ، ولا شيء سواها . ولذا ، استعد لقطع اللحم ، ولا ترق نقطة دم واحدة . ولا تقتطع أقل من المقدار المتفق عليه ولا أكثر . وإذا أخطأت مثقال ذرة ، تكون قد ارتكبت جريمة قتل ، وستموت وتصادر أموالك .

يخاف شايلوك ويصرخ : حسناً . اعيدوا إليَّ نقودي ودعوني أذهب .
تكرر المتنكرة في زي المحامي : لن تحصل إلا على النص الحرفي الذي يحدده العقد ، وعلى مسؤوليتك الخاصة أيها اليهودي .

***

وهكذا يتراجع المرابي الشهير شايلوك ، إذ يستحيل اقتطاع رطل من لحم انسان دون أن تنزف قطرة دم واحدة (حتى لو تدخلت التكنولوجيا الأميركية الحديثة للمساعدة !) .

وبما أن قانون البندقية يعاقب « نية القتل » ، وقد ثبتت هذه التهمة على شايلوك ، فقد عوقب بمصادرة نصف أمواله ، ودفعها الى انطونيو تاجر البندقية كتعويض .
وتنتهي الكوميديا نهاية سعيدة بعد سلسلة من المصادفات ، ومكائد العشاق التي لا مجال الآن لشرحها (كمثال عنها : يطلب « المحامي المتنكر » من باسانيو أن يمنحه

خاتمه جزاء له على أتعابه ، وقد سبق لبورشيا أن أهدته الخاتم ، ووعدها يومئذ بعدم التخلي عنه مهما حدث ، وها هو يتخلى عنه بعد المحاكمة للمحامي - أي لها - . وعبر الخاتم ومكائد أخرى يكتشف باسانيو أن المحامي البارع لم يكن سوى زوجته الذكية المتنكرة . . .) .

***

لماذا ترى اسرائيل في هذه الكوميديا ، تراجيديا ؟

للوهلة الأولى ، يخيل إلينا أنها غاضبة من الصورة البشعة التي رسمها شكسبير لليهودي شايلوك . وهذه الصورة تتضح منذ بداية المسرحية (حين يدعو باسانيو شايلوك الى العشاء ، يرفض المرابي قائلاً : « سأشاركك في الشراء . سأشاركك في البيع . سأتحدث معك . سأمشي معك . لكنني لن أقبل أبداً مشاركتك الطعام أو الشراب أو الصلاة » - صفحة ٢٢٧) .

وهكذا منذ البداية، رسم شكسبير صورة المجتمع اليهودي كما يراه يومئذ: إنه مجتمع مغلق بالمعنى الإنساني . صلاته مع الآخرين تقتصر على جمع المال والسلطة .

وحينما يدخل انطونيو على شايلوك يقول المرابي محدثاً نفسه : «أكرهه لأنه مسيحي» ثم يتابع شرح أسباب كراهيته لأنطونيو الذي أراده شكسبير رمزاً مسيحياً ، وكلها تتلخص في حقده على التسامح ، وعلى الذين يعلنون رفضهم للربا لأنهم بذلك يفسدون عمله ، ووجودهم الفكري يتهدد خططه ومصالحه ، ويقول : « فلتحل اللعنة على قومي إذا غفرت له » ! إنها فلسفة الكراهية ، والحقد ، والانتقام .

ومما لا شك فيه ، أن شكسبير لم يكن يحب ما يمثله شايلوك ، وهو بذلك يعبر عن روح عصره ، بل ويشرح أسباب هذا الرفض . ولكن ، هل يكفي ذلك لمنع المسرحية ؟

لماذا لم يمنع المغرب مسرحية « عطيل » لشكسبير ، التي رسم فيها عطيل المغربي مجنوناً بالغيرة وحب التملك حتى القتل والانتحار ؟

ولماذا لم تمنع الدانمرك مسرحية « هاملت » لشكسبير التي رسم فيها « هاملت أمير الدانمرك » مجنوناً مصاباً بانفصام الشخصية (الشيزوفرانيا) ، يدفع بحبيبته أوفيليا الى الانتحار غرقاً وبأمه الى الموت بالسم ويتسبب بسلسلة من الكوارث والميتات الأخرى ؟

ولماذا لم تمنع الملكة اليزابيت مسرحية (الملك لير) أو (ماكبث) ؟

ولماذا لم تمنع اليونان مسرحيته (تيمون الأثيني) ؟
ولماذا لم تمنع ايطاليا مسرحيته (يوليوس قيصر) ؟
لماذا اسرائيل وحدها منعت « تاجر البندقية » ؟

* * *

ليست صورة « اليهودي البشع » هي السبب وراء منع « تاجر البندقية » . هنالك يهود طيبون ، وهنالك يهود أشرار كالبشر جميعاً . وهنالك أمراء مصابون بالفصام والشيزوفرانيا مثل « هاملت أمير الدانمرك » ، وهنالك أمراء أسوياء . وهنالك صديق غدّار في ايطاليا هو « بروتوس » وهنالك عشرات الأصدقاء النبلاء (نفسياً) فيها أيضاً .

ولكن مسرحية « تاجر البندقية » تتنبأ بالشخصية (الصهيونية) ، وتلخص ببساطة مذهلة الروعة ، مأساة فلسطين .

* * *

إنه من المستحيل وجود اسرائيل بصورتها الحالية دونما إراقة للدماء ، تماماً كما أنه من المستحيل اقتطاع رطل من لحم تاجر البندقية الطيب دونما إراقة للدماء .

الصك هو وعد بلفور . انه شبيه بصك شايلوك . ينص على منح اليهود وطناً قومياً ، لكنه لم يتطرق الى ذكر الدم الذي سيراق ، والقتلى الذين سيتساقطون .

* * *

شكسبير في « تاجر البندقية » لم يكن ضد « اليهودي » . لكنه كان ضد السلوك اللاإنساني تجاه الآخرين - المتمثل في شخصية شايلوك - والذي تبلور فيما بعد في (الصهيونية) .

شكسبير يصور لنا بمهارة فنية خارقة شخصية (الصهيوني الآتي) ، ويقنعنا بأن النازي الأول لم يكن اسمه « هتلر » ، وإنما كان اسمه « شايلوك » . وبالنسبة لشايلوك كان المسيحي هو المنافس وبالتالي (العرق) المطلوب إبادته على شواطىء المتوسط بمدينة البندقية . . .

فهل تستطيع اسرائيل تنفيذ صك بلفور دون إراقة نقطة دم واحدة ؟
أم أنه لا مفر لها من دفع ثمن الدماء التي أراقتها ، والتي تغطي شطرنج منطقتنا العربية ؟ . . .

هل كانت اسرائيل تطمح الى اقتـطاع جزء من لحم أرضنـا دون إراقة نقـطة دم واحدة ؟ . . .

أم أنها مثل شايلوك . . . وهي لذلك تكره شكسبير ، كما يكره القاتل يداً تخلع عن وجهه قناعه ؟ . . .

باريس ٧/ ٨/ ١٩٨٠

ممنوع المشي فوق العشب . . والانسان!

هنالك وجع يعيه المواطن في بعض أقطارنا العربية بدرجات متفاوتة . . . اسمه ببساطة : « الاستخفاف بالانسان » . ويرتسم بصورة خاصة هذه الأيام على شاشة لبنان . . . ذلك البلد الحبيب الذبيح . .

وهنالك فرحة يعيها المواطن في كل مكان . . اسمها ببساطة : فرحة العودة الى الوطن . . لكن هذه الفرحة مسكونة بالغصات حينما يكون المواطن عائداً الى بيروت مثلي . . .

* * *

إذا كنت عائداً الى بيروت مثلي ،

فانك تمضي الى كرسيك في الطائرة ، وترتعد كأنك تجلس في كرسي طبيب الأسنان . . أو الكرسي الكهربائي !! . . تربط حولك حزام المقعد الذي يلقبه كراس الطائرة بـ « حزام الأمان » . . وتقول لنفسك : الطائرة التي تقلع إلى بيروت يجب أن تبدل اسم « حزام الأمان » فيها الى « حزام الخطر » . . .

وتمضي بك الرياح الى بيروت ، وأنت مستسلم مثل بطل اغريقي ، يمضي به قدره إلى مأساته دون أن يملك من أمره شيئاً ، ودون أن يحاول مجرد الفرار من فاجعته . .

ومأساتك تبدأ منذ المطار ، كأن ما يدور فيه هو فاتحة لما ستلقاه فيها بعد في كل مكان . . . (وربما كان ذلك ما يدفع بالمسافرين جميعاً الى استنفار صحبهم ومعارفهم ومتاريسهم لانتظارهم في المطار يوم العودة) ! . .

* * *

هل الأمر بهذا السوء ؟ نعم ، ولا .

نعم ،

لأنك تكون مكابراً ومنافقاً اذا ادعيت أن العيش في مكان يحتقر الانسان الأعزل ،

والانسان العادي ، والانسان الفقير ، ويضطهده ، هو متعة .

ولا ،

لأنك لا تستطيع أن تتنصل من أولئك الشهداء الذين تساقطوا في بيروت على طول أعوام سبعة ، وماتوا حقاً من أجل فلسطين والكرامة والعروبة والقيم والمثل العليا والحرية في كل مكان ، وضحوا بحياتهم كي تحيا الكلمات المقدسة كلها التي يتشدق بها بعض الذين يتاجرون بالقضايا الوطنية ، ويمضغونها في أحاديثهم باستخفاف صبي يمضغ قطعة (الشيكلتس) في مباراة مدرسية لكرة القدم !

نعم . تكره العودة إلى بيروت ، لأنك تعرف أن « انسانيتك » سوف تذل وتهان كل يوم عبر التفاصيل الصغيرة التي تمزق أعصابك ، والتفاصيل الكبيرة التي تمزق جسدك ، بالرصاص ، وبالقنابل الأميركية المهداة إلى جارتنا المسالمة اسرائيل ، التي لا تبخل علينا بحصتنا من الكرم الأميركي (المتفجر) . . المشمول بمباركة الصمت العربي في بعض الأقطار . .

لا . . لا تكره العودة الى بيروت ، لأنك لا تستطيع التنصل من جوهر ما يدور . انها معركتك أنت . محاولة ابتلاع اسرائيل لجنوب لبنان هي معركتك . ومحاولة فرض سلام جزئي وغير عادل معركتك . ومحاولة تركيع الأمة العربية والحلم العربي في لبنان معركتك . والحياد أمام الظلم مساهمة في تنشيط نسله . . ولم يعد بوسعك أن تغسل يديك من الزمن العربي ، وتمضي في سبيلك . . .

* * *

وهكذا ، تهبط بك الطائرة في بيروت ، ويبدأ الاذلال الصغير المفعم بالتخلف . . وهو اذلال تتعرض له اذا كنت مثلي مسافراً عادياً (زاده الخيال) ، لا تنتظره أمام باب الطائرة سيارة ، الستائر مسدلة على نوافذها المضادة للرصاص ، ولا تتجمهر من أجله في قاعة الوصول قبيلة من (الأزلام) والاتباع ، أحدهم يحملك على ظهره ، وآخر يحمل حقائبك المحشوة بكل ما هو ممنوع ومرغوب . . .

ستقع منذ اللحظة الأولى في بركة من الحر الخانق ، لأن مكيفات الهواء تعمل فقط في (صالونات النخبة) ، أما أنت وأنا وبقية أفراد الشعب العادي وكل أولئك الذين يعملون في المطار من موظفين ورجال جمارك ورجال أمن ومن بسطاء وطيبين ، فلنا الحر . . . والزحام . . والقهر . . . وعضات الذباب . . .

وإذا قدر لك أن تغادر قاعة الدخول (الى القهر) حياً ، ولم تكن هنالك سيارة

خاصة تحتضنك ، أو (قبضاي) ينتظرك مشمولاً ببركة رشاشه ، فستجد نفسك سابحاً مثلي في بحر من عصابات الصغار الذين يتلقفون غربتك وحقيبتك ، وكلما اختطفها أحدهم دفعت له (خوة) كي يتركها ، وهكذا حتى تشهر أفلاسك ، فيقذفون بك في التاكسي بعد مشاجرة فيما بينهم : من يتولى تعذيبك بقية الطريق ، وتخويفك والحصول على ثيابك مقابل ايصالك الى بيتك الذي تكتشف غالباً أن قذيفة التهمت بعضه أثناء غيابك ؟ . .

للوهلة الأولى تكاد تكره أولئك (المحتالين الفقراء الصغار) الذين يفور بهم مطار بيروت ، بدلاً من كره (المحتالين الكبار) الذين يضطرونهم إلى ممارسة هذه البشاعات سعياً وراء لقمة العيش القاسية القلب .

في البداية تكاد تصب جام غضبك عليهم ، ثم تعي أن (محتال) المطار هو الضحية مثلك ، والظروف المعيشية هي التي تدفع به الى هذه الدرب البغيضة لاقتطاف خبزه المر . . . ان الافتقار الى نظام يمنحه لقمته بكرامة ، هو الذي يدفع به الى امتهان كرامتك . . وتقول لنفسك : حذار من كره النتيجة ، ونسيان السبب ! !

* * *

ذلك الموظف الذي قد يفتش حقيبتك المحشوة بالثياب العتيقة والأحزان والذكريات الرثة ليس مذنباً ، بالرغم من الحقائب العشر لأحد أصحاب النفوذ التي قد تمر أمام عينيك في تلك اللحظة مثل زانية تتخطر على رصيفها . . . فلو فتشها المسكين لفتشت عنه أسرته في اليوم التالي ، ولما وجدته أبداً . . . وبالرغم من ذلك ، كم من موظف جمارك نزيه وشجاع ، رفض رشق حقائب (النافذين) بالورد والياسمين ، وأصر على تطبيق القانون بحقها ، ودفع الثمن بشجاعة كما يحدث لأي خُلُقي، عادل في زمننا الرديء .

ترى هل يتفضل أحد أولئك الذين يمتصون دم البسطاء والثوار، ويعتاشون من موت الأبرياء ، هل يتفضل أحدهم بالسفر كمواطن عادي أعزل إلا من جواز سفره (المزور) أو غير المزور ؟!

ترى هل يتفضل أحد نوابنا الكرام مثلاً ويضحي مرة بالسفر كما يفعل بقية « الناس اللي تحت » ؟ .

هل يتفضل بالجلوس في قاعة المسافرين العادية ، حيث أغمي على جاري الطفل الرضيع من الحر ، بدلاً من الدخول الى (قاعة العزلة) عن واقع الشعب الموجع ؟

وهل يتنازل مسؤول ما بالعودة ولو لمرة الى أرض الوطن ، كما يفعل مئات الآلاف من المواطنين العاديين ، ويجرب الاذلال الذي نتعرض له من جانب بؤساء مثلنا هم رفاقنا في القهر ، لكن الجهل والفقر يدفعان بهم الى تعذيبنا بدلاً من الثورة ضد عدونا المشترك ؟ . . .

كان عمر بن الخطاب يتخفى ويخرج إلى شعبه ليرى كيف يعيش . . .

فهل من مسؤول لبناني يتذوق معنا حساء الحصى الذي نأكله في وضح الشمس ؟ . . وهل يخرج الى عذاباتنا الممددة عارية من المطار الى البحر ، ويتابع جولته ليرى كيف تمتهن انسانيتنا ونحن نمارس مرافق حياتنا كافة ؟ كأن يحاول الوقوف في صفوف عذابنا أمام محطات البانزين ، والشمس تجلدنا بدلاً من جلوسه في سيارته المكيفة الهواء الممتلئة الخزان بدمائنا ، والتصريح بأن لا أزمة ؟

نعم ، (لا أزمة) ، ولكن ، لديه هو . . . فهل يحترم وجودنا كبشر ، ويلحظ أزماتنا نحن ملح الأرض وذباب المدن الذي يفسد متع موائد (الكبار) ؟ . . .

***

هذا الجرح ليس لبنانياً فقط . . انه جرح عربي المنشأ ، وما زال المواطن في أقطار عربية كثيرة أخرى يعاني من عدم احترامه كإنسان ، ويعاني من التمييز بين (إنسانية) موظف البلدية مثلاً (وانسانية) ابن المتسلط . . اني أحدثكم عما أعرفه وأراه ، وأترك كلا منكم يحدث نفسه عما يعرفه هو أيضاً ويراه ! . . .

أتذكر حديقة عامة في بلدة « آنسي » الفرنسية . العشب فيها جميل وشاسع كالمخمل الأخضر (البروليتاري) ، وقد توجته البلدية بلافتة كتبت عليها هذه العبارة : احترم العشب !! نعم . . احترم العشب . . وتحسد العشب هناك . . . والانسان . . « احترم العشب ! » .

عبارة انطبعت في روحي بعمق . . فهي تقطر رقة انسانية ونباتية وكونية . . .

ترى هل يأتي يوم نجد فيه المواطن العربي في بعض الأقطار يمشي في الطريق وقد ألصق على جبينه عبارة : « احترم الانسان » أو « احترم العشب . . والانسان » ؟!! أو « ممنوع المشي على العشب . . . والانسان » !! . . .

جنيف ـ بيروت ٧/ ١٠/ ١٩٨١

الضباع تهاجم بيروت

ثمة اسطورة شعبية من حكايا الجدات ، تكاد تلخص حالنا ، نحن الذين ما نزال نقيم في بيروت مترددين امام الرحيل النهائي ، وننتمي الى فئة (المدنيين العزل) . الحكاية تدور حول (الضبع الأعظم) ، الذي كانوا يخوفوننا به ، لمنعنا من مغادرة البيت بعد مغيب الشمس . فالضبع يختار ضحيته ليلاً ، ويطاردها . تخاف الضحية ، وتهرب راكضة مذعورة . يطاردها . يحاصرها . يقتنصها بطريقة فريدة (امرأة كانت ام رجلاً ام طفلاً) . إنه يحدق في عينيها ، ونظراته البرق ، فتسترخي الضحية امامه ، وتصير مستلبة الارادة ، ممسوحة الذاكرة ، مستسلمة كالمنومة . . وهنا تلحق هي بالضبع الى وكره حيث يفترسها . ويقولون في وصف هذه الحالة : لقد (ضبعها) الوحش .

هذه الحكاية وحدها من دون الحكايا كلها عن الجان والوحوش والعفاريت ، تترك في النفس أثراً خاصاً لا ينسى : أي رعب ان يلحق المرء بجلاده مستلب الارادة ، ويلتصق به ، ويمضي خلفه نحو دماره المحتوم مستسلماً متبلداً ، وينسى تماماً امكانية الهرب ، أو النجاة ، او الصراع أو الصراخ خوفاً او احتجاجاً ؟

***

هذه الحكاية الشعبية تلخص حالنا في بيروت أيام (الهدنة) ، حين يتجلى الوجه الثاني للموت اليومي البارد ، فنموت عشرات الميتات قهراً وإذلالاً وغصة . . . لكننا لا نفعل حقاً غير الاستسلام ، ونردد لأنفسنا : ان الضباع كثيرة ، وبعضها يرتدي اقنعة لها وجوه احبائنا .

كيف يمكن ان نفسر سكوت الناس عن القاتل الذي يرتدي زي المقاتل والمناضل ، ويندس بين بقية الشرفاء والمناضلين ؟

وكيف لا نمزق الملصقات التي تكرسه (شهيداً) ونحن نعرف انه سقط صريعاً في غارة للسرقة ، او اثر شجار على اقتسام غنيمة ؟

كيف نفسر البؤس اليومي المعيشي للناس ، الذي يتجرعونه بصمت مستسلم دون ان تتفجر هذه النقمة في تيار ، او تجد لنفسها الاطار ؟ ماذا سوى ان نقول : بيروت (ضبعتنا) ؟ ان المرء يعاني في بيروت عذابات لا تحصى ، تواجهها (الأكثرية الصامتة) باستسلام متبلد . . بجمود لا تعرف ، أهو حيوية ام بقايا صبر ؟ أهو بعض خنوع ام طاقة على الاستمرارية ؟

***

مؤسسات الدولة تفككت واستنزفت ، وها هي تنهار فوق رؤوسنا في كل مجال . ومعظم (الزعماء) يتشاغلون عن بؤس الناس بالتنظير التاريخي و (أدلجة) الأحداث . وهم قلما يتطرقون الى همومنا المعيشية اليومية ما داموا لا يعانون منها وقد حلوا (مشاكلهم) الخاصة الفردية . فنوابنا مثلاً لا يعترفون بأزمة الهاتف بعد ان قرروا في الاسبوع الماضي تزويد سياراتهم بشبكة هاتفية كلفت الشعب الأخرس ملايين الليرات من قوت عياله . . . اما الذين حلمنا يوماً ان يكونوا زعماء (ثورة) وطليعة نظام اجتماعي لبناني عادل ، فقد التقط معظمهم عدوى الأمراض التاريخية للزعماء التقليديين ، فباتوا جزءاً من اللامبالاة أو النسيان او الفساد ، وان اختلف لديهم اللون والطلاء . . والشعارات .

من اين يبدأ المواطن المسكين بتعرية نماذج لبؤسه ؟ حسناً . لنبدأ منذ البداية بالمعنى الحرفي : اي منذ الصباح !

نستيقظ ، فنحمد الله لأننا استطعنا ان ننام ليلاً . فذلك معناه ان لا قصف ، وان الحالة الأمنية هادئة .

وحينما نصحو جيداً ، نذكر أية مأساة هي ان تهدأ الحالة الأمنية على صعيد القصف المدفعي . فذلك معناه تعرضنا لقصف التجاوزات والمذلات المدنية اللامتناهية .

فالذي يحدث ان مدافع اخرى كثيرة لا مرئية تنشط حين تتوقف مدافع المتقاتلين . وبمزيد من الصراحة : يعرف المواطن ان (المقاتل المرتزق) هو اليوم بلا عمل ، وانه سوف (يشتغل) بنا . . والمقاتل المرتزق فئة لا يستهان بها ، مندسة في صفوف المقاتلين الشرفاء وابناء الشعب المساكين .

***

يهدأ القصف ؟

تنشط الاغتيالات . الانفجارات . السرقات . اقتحام البيوت (وتنظيفها) بعد تقييد (الأرانب) في (الحمام) ، المكان الفولكلوري حالياً لسجن أهل البيت لا للاستحمام .

يهدأ الخطف ؟

يبدأ خطف السيارات . خطف حقائب السيدات في الشوارع . خطف (معتمد القبض) المسكين . خطف الصرافين . اقتحام الدكاكين . ويزدهر مسلسل العنف البارد اللامرئي ، الشديد الاذلال للمرء .

اذا لم تمطر السماء عندنا هددونا بقطع الكهرباء .

واذا امطرت . تنقطع الكهرباء من تلقاء نفسها بسبب عدم (لياقة) التجهيزات ، ودوماً يأتيك موظف تحصيل الكهرباء في يوم كهذا ، فيضرب على بابك بيده (الجرس ميت ، فكيف يقرعه؟)، ويطالبك في الظلام بدفع فاتورة الكهرباء المقطوعة . ودوماً ثمة زيادة ما في الأسعار ، فالذي يحدث هو ان المواطن (المسالم) يدفع ثمن الكهرباء عنه وعن (القبضايات) الذين يسرقونها علناً وبقوة السلاح دون ان تقوى الدولة المفككة على ردعهم ، ودون ان تقوى بعض (الميليشيات) على ردعهم بوصفهم عناصر (غير منضبطة) . فيدفع المواطن المسكين المنضبط ، ويلحظ ابنه الصغير المشهد فيمزق كتبه المدرسية ، ويسرق (سكين المطبخ) ، ويسبح بحمد (عدم الانضباط) ، ويصير مثله الأعلى : (جلاد) الحي !

الهاتف ميت ؟ استبدلْه بالتخاطر . تفكر باصلاحه ؟ وكيف تصلحه ؟ بالرشوة طبعاً . . اجل . . قل الكلمة بملء فمك . من زمان كنت تخجل اذا فعلتها ، ترتبك ، تخاف ان تجرح شعور (المرتشي) ، وتخاف من العقاب . اليوم تفعلها وتبدل التسمية . ولا تستطيع ان تلوم الموظف المسكين (المرتشي) فهو مثلك ، ضحية ، وهو ايضاً بحاجة الى دفع اقساط اولاده للمدارس الفاسقة الأسعار ، وشراء الخبز المر لهم ، والدواء المغشوش ، وعليه ايضاً دفع الخوات وفواتير الكهرباء وشراء سيارة بدلاً من سيارته المسروقة مثلك . . . وانت لن تكره ضحية اخرى مشابهة لك . المجرمون الكبار يسعدهم ان يبحث الشعب عن كبش فداء صغير يتلهى بالانتقام منه من آن الى آخر ، ونحن لم تعد تنطلي علينا هذه المسرحية الساذجة ، لكننا ايضاً لم نعد نفعل شيئاً لتحديد

الضباع الكبيرة ومقاومتها .

لقد (ضبعتنا) بيروت بالجملة .

* * *

الصيدليات تبيعنا ادوية فاسدة ، أو مزورة او انتهى وقت تداولها وصارت بلا جدوى . نعود للتداوي بالأعشاب ، ام نلجأ الى الحجابات والرقى والتعاويذ ؟ ربما . . وربما نستمر في شراء هذه الأدوية من الصيدليات التي تبيعنا المرض ولا نحتج .

احياناً يقدم عدد من الأطباء شكوى الى مصلحة الصحة ضد فساد الأدوية . ماذا يحدث ؟ لا شيء .

مريض بالسكري حقنوه بـ (انسولين) فاسد فمات . ماذا فعل اهله : لا شيء .

الكل يتابع المشي (مضبوعاً) في (همروجة) بيروت .

* * *

تصل الى المطار . سيارات التاكسي الخاصة به لونها اصفر ، وثمة رجل أمن يسجل اسمك ورقم السيارة التي اقلتك . هذا هو ديكور الدولة الخارجي لخلق (وهم) النظام . تركب التاكسي يمضي بك حوالي ٢٠٠ متر ثم يتوقف في زقاق جانبي معتم كان اصلاً موقفاً للسيارات الخاصة ويحاول التخلص منك بالعنف او باللطف . لماذا ؟ لان بيتك في (المنطقة الغربية) وقريب من المطار ، وهو يريد زبوناً بيته في (المنطقة الشرقية) البعيدة ، يستطيع ان يبتزه ويربح منه اضعاف ما يربحه منك يا صاحب (المشوار) القصير !

وفي هذا الممر المنعزل ، يرغمك على الهبوط من سيارته . واذا كان شهماً وتعاطف معك ـ كما حدث لي ـ فسيرغمك على الركوب في سيارة اخرى (خصوصيةٍ) مجهولة ، غامضة السائق والمصدر ، لتصل بها الى بيتك او الى المشرحة ، وفقاً لمهارتك في اثارة مخاوف السائق من بطش (جماعتك) .

سيحاول السائق طوال الطريق استدراجك لحوار يحدد مدى (نفوذك) في مجتمع (المسلحين) ، ليقرر حكمه عليك بالاعدام او السرقة مع العفو ! !

فإذا (ارتاب) بك ، اكتفى بسرقتك تحت شعار اجرة الطريق ، والا تخلص من جثتك بعد الحاجز الأمني الأخير . .

اما السائق الرسمي (الشهم) ، فسيعود الى موقعه من (الصف) حسب الاصول، لنقل راكب جديد يستحق عناء السرقة اكثر منك !

الكل هناك يعرف حقيقة ما يدور ، والكل يتستر . وانت تواجه ذلك وترتجف رعباً دون ان تقدم شكوى ضد هذا المجرم الصغير الذي قد يعاقب بصفته (كبش فداء) لكنه سيتكرر ، وستجده في الرحلة القادمة ينتظرك تحت اسم آخر ووجه آخر . .

ماذا تفعل ؟

تطلب من (مجرم كبير) استقبالك في المطار حرصاً على سلامتك من المجرمين الصغار . . .

***

كل ما في شوارعنا مكرس لننسى الفارق بين الحديقة و (المزبلة) .

وهم لا يسرقون السيارات فحسب ، بل ويسرقون الارصفة من تحت اقدام المارة . ولم يعد في بيروت (فتيات رصيف) لأنه لم يعد فيها ارصفة !! وان وجدت فالسيارات تحتلها ، او بسطات الباعة ، او ورشات البناء . . ولكن جابي البلدية يقرع بابك طالباً منك دفع ضريبة ارصفة (!) ، حتى إذا كنت تسكن شارعاً بلا ارصفة . . مثلي ! . . وقد تتذكر بحسرة زمناً كنت تؤمن فيه بحرارة ، ان النظافة في الأماكن العامة هي في جوهرها تعبير عن الحس بالانتهاء الى الوطن . . . ولكن معظم الذين يقيمون على ارض هذا الوطن ، يعاملونه كـ (سلة زبالة) كبيرة ، أو كـ (وعاء للقمامة) يمتد بين البحر والجبال . .

سيعبر هذا الخاطر رأسك ، وستنفيه عنك كما تنفي من بقايا ذاكرتك مفاهيمها عن الحق والظلم ، والصح والخطأ . . وستعود الى حالة الاستلاب المتبلدة ، وقد (ضبعتك) بيروت .

***

ترحل ، ثم تعود . دوماً تعود .

أحقاً انك باق هنا لأنك (صامد) ؟ لأنك تحب الوطن ؟

لكن الكفاح هو جوهر الصمود . رفض البشاعة هو جوهر الحب . ومعظمنا في بيروت يمشي (مضبوعاً) ، ويعيب على الذين هاجروا (تخليهم عن الوطن) وفي اعماقه غيرة سرية منهم . وهو يعرف انه تخلى عن ذاته والوطن معاً !

واذا استمرينا على هذا النسق من اللامبالاة المريضة ، سيأتي يوم نتقاعس فيه حتى

عن رفع جثث القتلى من الشوارع ، تماماً كما يتابع قطيع النمل مسيرته اذا داسه الوحش وقتل بعض افراده . .

وسننسى كيف نثور ، فإذا ثرنا جاءت ثورتنا كالنوبات العصبية ، اذ قد ننتحر دفاعاً عن حياتنا ! !

لم تخبرنا حكايا الجدات كيف نبطل سحر الضبع . . واذا لم نكتشف ذلك ، سيظل ينطبق علينا قول هيغل : « التاريخ يعلمنا ان الانسان لم يتعلم شيئاً من التاريخ» . .

ونحن لم نتعلم من حربنا المريرة كيف نحارب ، ومن نحارب . . ومع من نحارب . .

بيروت ـ جنيف ١٥/ ٢/ ٨٢

مطاردة نقطة ضوء

مثل نقطة ضوء راكضة وسط اليأس ، كان الشاب يركض فوق الجليد في كوبنهاجن . . قدرته على حفظ توازنه لا تصدق ، وانت تحار ، اهو يمشي ام يطير .

ووسط تصفيق الناس ، اعلن الحكام تكريس سكوت هاميلتون بطلاً للعالم في التزلج على الجليد .

حسناً . ما علاقتنا نحن بذلك ، نحن الذين نتزلج فوق النار والموت في حلبة الغام الاعداء ؟

العلاقة وثيقة ، اذا علمنا ان الشاب هاميلتون كان في طفولته مصاباً بشلل الاطفال ، واتجه نحو الضوء بدلاً من اليأس ، ونحو الطيران ، بدلاً من الاسترخاء في مقعد الاستسلام لمصيره الكئيب .

***

نحن الآن في قرية سويسرية تدعى (فيلار) . الشمس ساطعة البرد ، قارسة الاشعة ، والرياح المثلجة تخترق الروح المثقوبة بالاحزان مثل قيثارة بشرية .

وعلى السفوح البيض تتزلج مجموعة من الشابات والشبان ، في مباريات بطولة المعاقين للتزلج على الجليد . ها هم يأتون ، واحداً بعد الآخر ، يركضون نقاطاً من ضوء فوق ثلج العمر الاسود . .

هذا شاب مقطوع اليد ، يستعين بيده الأخرى . . وهذا آخر يتزلج بساقه الاصطناعية بأفضل مما نمشي به نحن بساقنا الصحيحة . هذه فتاة مشلولة القدم تصارع قدرها بالقليل مما تبقى من طاقتها الجسدية ، وبطاقتها الانسانية النفسية اللامتناهية ، والتي يستطيع كل انسان ان يغرف منها اذا اكتشف مناهلها . ان ما يقوم به اولئك المعاقون يعجز عنه معظمنا نحن (الاصحاء) . يشعر المرء فجأة بالحاجة الى اعادة النظر في مدلول عبارة (معاق) !

***

تعود من (فيلار) . يطالعك في التلفزيون الفرنسي برنامج اسبوعي خاص بالمعاقين . ترى عبره التسهيلات المتوافرة للمعاق الاوروبي في المجالات كلها ، ابتداء من المصعد الخاص به ، وغرفة الهاتف العامة المعدة خصيصاً لاستيعاب كرسيه ، وانتهاء بنظرة الناس اليه ، كقيمة انسانية تعادل قيمة اي مخلوق آخر قادر على الهرولة .

نتأمل ذلك .

لسنا حقاً بمنأى عما يدور . . فالمعاق يمكن ان يولد في اي مكان ، هذا بالإضافة الى معاقي الحرب العرب ، الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الوطن ، ومعاقي (الحرب اللبنانية) الذين سقط بعضهم ضحية في فخ الصدفة ، وقاتل بعضهم الآخر من أجل يقينه .

وباستثناء دول عربية قليلة ، تولي المعاق حقه من الرعاية ، وتهتم بمعالجته ، وبأطرافه الاصطناعية ومستقبله ، فالمعاق العربي ـ بوجه عام ـ محروم من الوعي الاجتماعي بقيمته الانسانية ، وذلك بالتالي يزيد مهمة السلطات صعوبة في مجال تحسين احواله الجسدية والنفسية . . ولكن ذلك كله خارج الموضوع !

***

لا اكتب هنا عن (المعاق العربي) النبيل الذي منحنا قطعة من جسده وروحه ليستمر الوطن . . لكنني أكتب عن (المعاق العربي) الذي لم يمنح وطنه شيئاً ! لا اكتب عن (الاقلية) من المعاقين جسدياً بالولادة او بالاحداث .

اكتب عن (الاكثرية) من المعاقين العرب نفسياً وروحياً . .

بعضهم يفترسه (شلل الشباب) بدلاً من (شلل الاطفال) . . فشبابه مسخر للغربة عن مجتمعه ، وشلل اللامبالاة قد سرى في نفسه ، فصارت خطواته دونما جدوى . . تمضي به نحو اللاهدف . . واللهو . .

وبعضهم يفترسه شلل الغرور . . فيتوهم انه فوق مستوى بني قومه . . يترفع عن همومهم ، ويغسل يديه من اوجاعهم ، ويغادر رقعة شطرنج احداثهم الى (يوتوبيا) عزلته المتعالية . .

وبعضهم يصاب (بالتخلف العقلي الارادي) ، حيث يتحاشى كل ما يمكن ان يثقفه ، ويغذيه عقلياً ، ويتجنب كل ما قد يودي به الى تفتح بصيرته . .

***

كما تتعدد العاهات الجسدية للمعاق (التقليدي) ، كذلك تتعدد العاهات

النفسانية للمعاق الفكري العربي . لكن اخطرها يظل الاصابة بـ (شلل اليأس) .

تلك العاهة النفسية التي تحول المرء الى معاق حقيقي ، غير قابل للأخذ والعطاء ، وكل ما يقدر على منحه للآخرين هو العدوى ، وكل ما يقدر على اخذه هو المزيد من اليأس .

ولا بد من الاعتراف بأن كل انسان يسقط من آن الى آخر في قاع بحار اليأس ، وتسود الدنيا في عينيه ، ويعتصر الأسى قلبه .

فنحن بشر ، لا ماكنات وكمبيوترات مبرمجة .

لكننا نعود ونطفو فوق موج الأسى ، وتطالعنا من جديد نقطة ضوء داخل القلب . . تخترقنا كما تخترق الشمس دمعة العين . .

وحينما اذكر عبارة « شلل اليأس » فإنني لا اتحدث عن الدورة النفسية الطبيعية مع الحزن والفرح ، ومع مد الأسى وجزره فوق شطآن الطبيعة البشرية لكنني اتحدث عن حالة مرضية من التمسك باليأس كموقف من الوطن العربي .

* * *

اتحدث عن المعاق العربي الحقيقي . . اليائس . الموقن بأننا كعرب نمضي الى الدمار بلا قيد ولا شرط . . وليس ثمة ما يمكن ان نفعله ، غير انتظار سقوطنا المحتوم في استسلام سلبي .

هذه الفئة ، نجد نسبة ضحاياها بين المثقفين اكثر عدداً منهم في اية فئة اخرى . ونجدها عندنا في لبنان اكثر مما نجدها في اي قطر عربي آخر . .

فالإنسان الذي قاسى ويلات القتل والذبح والخطف والتهجير والتفجير والقصف ، كاد يصير (معاقاً نفسياً) لديه حصانة ضد الفرح والامل . .

ونحن في لبنان نتزلج فوق النار وألسنة اللهيب منذ اعوام طويلة ، وقد شاهدنا احب الناس الى قلوبنا يموتون امام اعيننا ويتساقطون في مذابح موجعة لا تنسى . . وقد اتقنّا جيداً اكتشاف النار ، ولم يعد سهلاً علينا ان نخترع النور . .

فقد تعاملنا مع النار طويلاً ، ومع الكي والحرق والدمار حتى كدنا ننسى النور والضوء . .

ولدينا مؤسسات تبذل جهدها لاعادة تأهيل (المعاق) جسدياً ، ولا نجد الا فيما ندر من يفكر باعادة تأهيلنا نفسياً ، نحن فئة « المعاق الحقيقي السري » الذي طحنه

الاسى ، واكلت غربان المصائب قمح بيادر ايامه ، وبذور الأمل لديه ، وكسرت خابية البهجة . .

* * *

(مرشح المعـاق) الذي صـار بطلاً للعـالم ، ونصف المعاق الـذي يدخل مباراة للتزلج ، والمعاق جداً الذي يصر على الانزلاق وسط الثلوج فوق مقعد خاص به ليطارد كرة المباريات .

هذه المشاهد كلها تحمل دلالة خاصة لعيني انسان قادم من مركز اليأس مثلي . .

ولعـل اسوأ مـا يحدث لنـا في لبنان هـو الموت يـأساً ، والسقـوط في هوة عـاهـة الاستسلام للقنوط . .

واي مشهد لنضال معاق ضد عاهته ، يوقظ في نفوسنا حاجتنا للاعتراف بعاهتنا السرية ، كخطوة اولى في درب مواجهتها . .

اننا نكاد نكف عن الرغبة في الحركة . . صحيـح ان حلبة (تـزلجنا) عـلى النار مزروعة ايضاً بالألغام ، وان كل خطوة تكاد تقود الى انفجار ما ، ولكن . .

في القلب نقطة ضوء نكاد ننكرها . .

انها من بعض الطبيعة البشرية للناس جميعاً ، ونحن نكاد ننساها لكثرة ما اطفأتها رياح الأحداث ، وسئمنا اعادة إيقادها . .

* * *

يخيل الي ان مهمة ايقاد نار التفاؤ ل تقع على كاهل الفنان العربي اولاً .

وصحيح انني وقفت دائماً ضد التفاؤ ل المزيف السطحي ، غير النابـع من واقع حياتنا ،

لكنني ايضاً ارى (اليأس المطلق) موقفاً مزيفاً وسطحياً ، من الوجهة الانسانيـة والفنية والوطنيـة على السـواء . . فهو يـزيف الطبيعـة البشريـة ، وبالتـالي يزيف الفن ويفسده . ويقتل حب البقاء ، ويتهدد الوطن في هذه المرحلة التي تتكالب علينـا فيها مخالب الاعداء .

ثمة خيط رفيع يفصل بين اليأس المطلق الى حـد تحقير الـذات والوطن ، وبـين مواجهة الواقع المؤلم بلا اقنعة ، والنقد الذاتي البناء غير المبهج ولكن الضروري .

وهذا الخيط الرفيع مهم جداً (في نظري)، في هذه المرحلة بالذات وتجب المحافظة

عليه ، كي لا نسقط في هوة « اليأس لليأس » متسترين بتبريرات حياتية كثيرة (تجود) بها المرحلة علينا بكثرة . . بصورة خاصة في لبنان . .

***

ينشد الشاعر :

(قـال السـماء كئيبـة وتجهـما   قلت ابتسم ، يكفي التجهم في السما)

واقعنا العربي مظلم ؟ هذا يعني ببساطة ، ان من واجبنا التلفت حولنا ، ومطاردة نقاط الضوء الباقية في حياتنا ، وما اكثر نماذجها بين الطيبين والبسطاء والمناضلين والفنانين ، وندرة من القادة .

ثمة نقطة ضوء صغيرة في الاعماق . . انطفأت ؟ ذلك يعني ببساطة ان من واجبنا اعادة ايقادها . . فالتاريخ لم يترك لنا خياراً آخر !

احرقتنا النار ؟ اذن علينا اكتشاف النور !

جنيف ٢٠/ ٣/ ١٩٨٢

من حقنا أن نشهد دون ان نستشهد !

«دولة عربية ، تبلغ مساحتها مساحة أوروبا بأسرهـا . وأرضها التي من الممكن زراعتهـا بـاستـطاعتهـا أن تكفي ليس سكـانها فقط من القمـح ، وإنمـا تكفي العـالم بأجمعه » .

لن أقول لكم (احزروا) اسم البلد ، فهذه العبارة ليست « أحجية العدد » وإنما هي (مقتطعة) من مقالة للأديب يوسف ادريس ، وهو يشير فيـه إلى السودان كمثـال على دولنا العربية ، الثرية بالطاقات المهدورة .

فأمتنا العربية تملك « بلغة العصر إمكانيات مخيفة . . ولو أتيح لإنسانها ان يستقل ويتعلم ويمتلك أمـر نفسه وثـرواته لأصبـح العرب قـوة ثالثـة حقيقية ، تنـافس الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، وتأتي قبل آسيا وأوروبا » . . والكلام هنا أيضاً للدكتور ادريس . وهذا الواقع الأليم جعله يكتب إلينا في إحدى الصحف العربيـة ، قائـلاً : « أرسل النداء لكل المثقفين والمفكرين العرب ، لماذا أيها الأصدقاء لا نقـوم بشن حملة شعواء وعقد المؤتمرات وأخذ زمام الأمور في ايدينا ، إذ ربما استطاعت أيادينا الفكرية أن تحل ما استعصى على السياسيين حله » . .

***

حينما يطلق اديب كيـوسف ادريس ، نداءه ، لا يمكن للصمت أن يكـون رجع الصدى . . وحينما يكون النداء متأجج الوعي والرؤيا ، يمس قضايا مصيريـة ، يصير الصمت إزاءه ظاهرة تحتاج إلى تفسير . . بل ووثيقة إدانة مبدئية للمثقف العربي . وقد لاحظت بعض الفتور في ردة الفعل امام النداء . . ولعلي مخطئة ، (بل أرجو ذلك !) فأنا لا أستطيع طبعاً قراءة الصحف العربية كلها ، ولكنني ضمن حدود طاقتي المحدودة كبشرية لا ككومبيوترية خرجت بهذا الانطباع ، وأسفت لأن هـذا النداء المتـدفق وعياً شمولياً بالمأساة واجهناه بالصمت شبه المطبق .

الصمت الذاوي المتكاسل .
الصمت المتثائب في زواريب الشخير التاريخي .
الصمت الهلامي الرخو ، الذي ليس موقفاً .
صمت التفتت والتلاشي .
لماذا ؟

* * *

لماذا لم تعد الكلمة تحرك المثقف العربي ؟
لماذا صار ملقحاً ضدها ؟ هل صار حقاً مصفحاً ضدها ؟ لا مبالياً ؟ فاتر التجاوب وإياها ؟
لماذا الذين حِرفتهم الكلمة ، صاروا أقل الناس تفاعلاً معها ؟
الكلمة التي هي البداية ، والحلم ، والمعجزة ، ألم تعد تثير الحركة في غير حروف المطبعة وآلاتها ؟
وإلى أي مدى يلام الفنان العربي المعاصر ، إذا كفر بجدوى الندوات ، وأعلن اعتصامه بحبل الصمت ، بدلاً من الكلام غير المباح ، الذي لا يجلب لصاحبه غير المتاعب ؟
هل الاسترخاء الفكري العام الذي يرتدي عباءة الصمت أحياناً ، والعزوف عن اتخاذ موقف واضح هو غلطة الفنان وحده ، أم غلطة الذين عطلوا مهمة الفنان في أكثر من قطر عربي ، وبغير وسيلة ؟

* * *

يقول ادريس في ندائه : « ان وجودنا لم يعد يحتمل أبداً أن نؤجل إتفاقنا ، أو الحد الأدنى من إتفاقنا ، فهو وجود كما نرى جميعاً ينهار امام أعيننا كل يوم » . .
وأقول : لعل أبرز مظاهر هذا الانهيار هو الصمت إزاء كلام كهذا ، ونداء كهذا . . إنه صمت يذكر بقول الشاعر :

« لقد أسمعت لو ناديت حياً
ولكن لا حياة لمن تنادي » . .

أحقاً لا حياة لمن تنادي ؟ وهل انتحر الاديب العربي أم انهم اغتالوه ؟
هل اعتزل ام عزلوه ؟
أنا أتحدث عما أعرف . أتحدث عن الأديب العربي في بيروت . أقول لكم ببساطة

اننا نتمنى مناقشة أمور كثيرة ولا نجرؤ على ذلك .

صار معروفاً لدينا انك هنا تحاور رصاصة لا قلماً ، وتحاور مسدساً كاتماً للصوت لا صوتاً .

كاتب القصة الأول في بيروت هو السيارة الملغومة المتفجرة ، والرشاش أمير الشعراء .

* * *

ان مجرد إبداء وجهة نظر في بعض القضايا المصيرية يعني هنا حكماً بالاغتيال توقعه بنفسك على نفسك ، بصورة خاصة اذا كانت وجهة النظر تلك تمس مشاعر طائفية ، أتقن العدو توظيفها في مجال إدخال القتل كمحاور فكري رئيسي . .

لم يعد ثمة منطق . لقد حلت محله الولاءات المتوارثة عن العصور الوسطى والجاهلية ، وتم شنق الحوار على شجرة التعنت اليابسة . .

إن مجرد قول عبارة « الدين الاسلامي دين يسر لا عسر ، ودين محبة وتسامح وغفران ، لا دين تقتيل واعدام ودموية وغطرسة » هذه العبارة وحدها يمكن ان تعتبر في بيروت تعريضاً بفئة معينة . . وبدولة معينة . . فتأملوا في حالنا اين صرنا . . وكنت اتمنى ان احدثكم عن عناوين موضوعات فكرية عديدة طالما تمنيت مناقشتها في مناخ انساني ، لكنني للأسف لا اجرؤ حتى على تعدادها !. .

* * *

وفي سياق تدجين الأديب العربي في بيروت و (إعادة تأهيله) ، تم قتل بعض الذين (يتعاطون) الكلمة ، على سبيل ضرب المثال بمصيرهم لمن لا يرتدع . . . ويكذب كل من يدعي انه لم يشطب عبارة او مقالة كاملة ـ هذا اذا كان لا يزال مستمراً في الكتابة او لم يهاجر ـ ، ولم ترتعد فرائصه وهو يعيد قراءة مسودات بعض كتاباته (قبل تمزيقها) ويتذكر في الوقت نفسه مصرع عدد من رجال الصحافة والفكر في لبنان ومصيرهم في العامين الأخيرين . .

ان احداً لم يقدمهم الى المحاكمة ـ رغم ان بعضهم ربما كان يستحق ذلك ـ ، او يناقش سطورهم ويفند آراءهم . لقد تم اعدامهم وسط الشوارع والحقول ، وفي رابعة النهار ، ففهمنا برقية الانذار المكتوبة بالاجساد المقطعة لرفاق المهنة .

وما يحدث في بيروت هو تجربة نموذجية ستكرر في اماكن اخرى .

وما نمر به خطير المدلول عربياً ، لأنه ارتسام لواقع فكري على شاشتنا الملتهبة . .

وهو ارتسام اولي لحفلة العرض الأولى .

وفيلم « القمع الفكري » سيعرض على شاشات عربية اخرى دونما حذف لأي من مشاهده ،

وهو يعكس بوضوح ضيق صدر بعض الأنظمة والفئات والسلطات بالحوار الفكري ، وخوفها من المفكرين عامة اذا لم يتحولوا الى (براغي) في ماكنة الارهاب الكبيرة . . وللأسف تم اغراء بعض الفنانين للانضمام الى لعبة الارهاب ، فصاروا (يستعدون) السلطات على بعضهم بعضاً ، وهم لا يعون ان مجرد انتهاك المبدأ يعني ببساطة ان دورهم سيحين بعد قليل او كثير . . .

* * *

ان تعطيل الفكر العربي وارهابه وتشريده في بعض الأقطار جزء من المخطط الذي تحدث يوسف ادريس عنه في ندائه ، والذي يهدف الى تدمير الأمة العربية العظيمة الطاقات وشرذمتها . . .

وللأسف نجد ان معظم الفرقاء (المتناحرين) في بيروت وغيرها ، لم يتفقوا الا على شيء واحد : قمع الفنان الأصيل وتدجينه وارهابه ورش الملح في حنجرته وزرع الشوك في رئتيه .

يوسف ادريس يتحدث في ندائه عن « نقطة توقف الانهيار » ، ويخيل الي ان هذه النقطة السهلة الممتنعة هي الحاجة الى الحرية الفكرية المصادرة في بعض الأقطار العربية بنسب مختلفة ، وعدم تخويف الفنان في رزقه او حريته او حياته كي يتفرغ للتفكير بهمومه الابداعية والقومية ، بدلاً من همومه البوليسية الذاتية .

لقد بدأنا اليوم نحصد الثمرة المفرطة المرارة لشجرة القمع الفكري التي ترعرعت . . . وكل اولئك الذين يلومون الفنان الصامت او الضجر او المهاجر او غير الملتهب ، يستحسن ان (يجيروا) اللوم الى الذين بذلوا كل ما بوسعهم (لتقليم) الفنان ، وتدمير طاقته على التحليق خلف الحقيقة ، وابتداع مسحوق الحلم المضيء .

من أجل ان يقتل بعضنا بعضاً لأسباب غيبية مفعمة بالولاءات اللاعقلانية كالطائفية والعشائرية ، كان لا بد من قتل الشاهد الواعي ، وتحطيم البوصلة ، وتدمير المرآة قبل الدفع بالزورق العربي في نهر اللاعودة .

* * *

المهرجان الذي يدعو اليه يوسف ادريس يبدو لي مهرجاناً باهر الروعة ـ لو تم ـ ،

يعيد الى الفكر العربي المعزول (لا المنعزل) قيمته الأصلية ومكانته المفترضة . . . شرط ان نجرؤ على قول الحقيقة كاملة ، دون ان نجد في فراشنا حين نعود الى بيوتنا قنبلة بدل الوسادة . . . او لا نجد بيوتنا .

نعم . من الممكن ان نكتب كلاماً جميلاً كثيراً عن الفداء الفكري وفضائله ، وضرورة التضحية بحياتنا من اجل ما نؤمن به . . . وهذا كله صحيح .

ولكن هل من الضروري ان يسقط كل من يقول كلمة حق قتيلاً ؟

أليس بوسعنا ان نبدع ، وان نحيا ؟

أليس من حقنا ان نشهد احياناً دون ان نستشهد ؟

جنيف ٢٧/ ٣/ ١٩٨٢

دعوة لارتداء . . . جلدنا !

تبدأ الأشياء بومضة . تقودك الومضة الى بانوراما من المشاكل المعلقة على مشجب الاسترخاء .

نـظرة تلقيها مثـلاً عـلى (صفحـة المـرأة) في بعض الصحف العـربيـة ، تنتهي بمحاكمة ذاتية تنبش خلالها تناقضاتك الصميمية من الأعماق .

فما تعارفت الصحافة على تسميته بـ (صفحة المرأة) يبدو لي مقياساً دقيقاً عفوياً ، يعكس الحقيقة الاجتماعية بدقـة أكثر ممـا تفعل الصفحـات الأخرى السيـاسية المتقنـة الصياغة ، ذات (الدوزاج) المدروس ، والعبارات الموزونة (العيارات) .

صفحة المرأة تحظى بنظرة (دونية) غالباً لحسن الحظ ، وهي بالتالي تأتي عفوية ، تمثل دور المؤشر الحقيقي للنظرة العامة الى مفاهيم كثيرة .

لا اتحـدث هنا عن صحيفـة أو مجلة معينة . فليس المقصـود من هذه المصـارحة التشهير الرخيص . ولا أدعي ان ما سأقوله ينطبق على الصفحـات الخاصـة بالمـرأة في الصحف والمجلات العربية كلها ، لكنني اجـرؤ على القـول ان كلامي ينسحب عـلى معظمها .

* * *

لنتأمل مثلاً هذه الجريدة (التقدمية) المكرسـة لخدمة (البروليتاريا) . نجد فيها زاوية خاصة بالمرأة ، بصفتها (نصف) الكادحين . حتى هنا ، الأمر جميل ومنطقي . الطريف هو مضمون الصفحة الذي تحسه يخاطب سيدة . دخلها يوازي دخـل السيدة جاكلين كندي اوناسيس ، او كارولين دي موناكو أو مـدام خاشقجي ، لا (عـائشة) العربية الزوجة أو العاملة أو الكادحة .

لنبدأ بالصور ، فالصورة تعكس الأشياء بـطريقة بـرقية مختـزلة . لنتـأمل صـور الأزياء الـتي تقدمها معظم صحفنا العربية للمرأة .

ثـوب اوروبي التصميم والقمـاش و (المـوديـل) يصلح لـلارتـداء في سهـرات

الشانزليزيه ، أو (بيكـاديللي سيركس) او (المـاي فير) بلنـدن ، او (الفيفث آفينيو) ومانهاتن في نيويورك ، تعلوه قبعة شبيهـة بقبعات اللوردات في عـرس الليدي ديـانا . نتجاوز تكاليف هذا الزي التي تعادل دونما شك ميزانية الطعام لأسرة عـربية متـوسطة الحال ، ونتخيل امرأة عربية ترتديه حقاً في مناخها الاجتماعي الذي تحياه ونعرفه .

كم ستبدو مضحكة وغريبة عجيبـة ، كأنها سقـطت سهواً من فيلم غـربي وسط سوق عربية قديمة .

***

اخترت لكم مثال الأزياء بالذات ، لأن الذين لا يطالعون (صفحات المرأة) ، لا بد وان تلمح عيونهم الصور المرشوقة فيها . . صور الازياء التي اختارها لها المحرر او المحررة . اتساءل احياناً : هل الذي يختار هذه الأزياء للمرأة عربي ؟ هل يعرف الوضع الذي تعيشه الاكثرية الساحقة من النساء العربيات واسرهن ، والجو الاجتماعي والمادي المتشابه تقريباً بين قطر وآخر ، مع فروقات تـزيد أو تنقص ، لكنهـا فروقـات كمية لا نوعية ، فكلنا عرب ، والمناخ الاجتماعي والانساني يكاد يكون واحداً ؟

هل يتخيل محرر الصفحة اخته او زوجته تتنقل في زي كهذا في احد ازقة مدينته أو قريته ؟ ترتديه في شارع عربي ما ؟

لا اتحدث هنا عن الردهات السياحية في فنادق الهيلتون والشيراتون . اتحدث عن الامكنة الحقيقية : عن الأزقة الشعبية والاسـواق العتيقة والاحيـاء الساكنـة تحت كنف الجامع والمختار والجو المحافظ والمناخ المنغلق .

معظم الأزياء التي يختارونها للمرأة العربية ، تصلح لامرأة سويدية تقضي شهـر العسل في مونتي كارلو او نيس او واشنطن . هذا من ناحية ذوق العين العربية .

من الناحية المادية ، لا اعتقد ان نساء الشعب العربي بوجه عام قادرات على اقتناء رفاهية كهذه الا اذا دفعن بأزواجهن الى قبول الرشوة أو الجوع !

واذا فرضنا جدلا ان (السيدة) ثـرية ومتحـررة ، ولا تبالي بسخـرية اولاد الحي وهي تتحرك بينهم بزيهـا الكرنفـالي ، فان الـطقس العربي سيمنعهـا من ارتداء معـظم (الموديلات) المنشورة في الصفحات الخاصة بها .

ازياء الصيف التي ينصحوننا بارتدائها تصلح لصيف اوروبا شبه البـارد ، الذي يشبه طقس بلادنـا ولكن في الشتاء ! ان (زي الصيف) الاوروبي الـدافىء الملمس أو الثقيل القماش (التايوري) القصـات المثقل بـالابهة ، خلق من اجـل امرأتهم هنـاك

وطقسهم هناك ، وهو كفيل باجراء عملية (سونا) لكل عربية تسول لها نفسها (الدخول) اليه صيفاً !

درجة حرارة الصيف الأوروبي قلما تتجاوز الـ ٢٤ درجة مئوية ، لكنها في معظم اقطارنا تتجاوز الاربعين . هذا يعني ان استيراد الازياء الهندية القطنية مثلاً يلائم مناخنا اكثر من استيراد الازياء الاوروبية المثقلة بالساتان والاورغنزا والتافتاه والشانتونغ وغيرها (اذا كان لا بد من الاستيراد) . والمهزلة ان ازياء الصيف الاوروبية تصلح من حيث الراحة لتكون ازياء الشتاء لدينا . . لكن معظم هذه الصفحات يروج ببراءة للاسراف والحماقة النسوية . . فترتدي المرأة العربية القادرة مادياً ثياباً صممت من اجل نوع آخر من القامات والارداف ، وطقس آخر ، ومناخ نفسي مختلف . وصدق من قال : الموضة هي نوع من البشاعة المفرطة ، حتى اننا نضطر الى تبديلها كل عام !

***

نتجاوز الصور الى النص ، نقرأ اقتراحاتهم (الطبخية) ، فنشعر بأننا امام لائحة الطعام في مطعم (ماكسيم) بباريس ، حيث ثمن الرغيف يعادل ثمن الفرن ، أو راتب الفران طوال عام . ونادرات هن اللواتي يمكنهن اعداد معظم هذه الأطباق (الشهية) . جوهر المشكلة هو ذاته كما في موضوع الأزياء . العقبات هي باختصار : متوسط دخل الفرد العربي ، أي الحالة المادية أولاً . ثانياً هذه الوجبات لا تأخذ بعين الاعتبار الوضع (العائلي) للمرأة العربية التي ترعى غالباً قطيعاً كبيراً من الأطفال ، وقد تكون امرأة عاملة أيضاً ، ولن تجد الوقت لتحضير هذه الأطباق المرفهة .

ونأتي لزوايا (الديكور) الذي تقترحه معظم هذه الصفحات . فنجدها موجهة الى مدام (دي بومبادور) لا الى (مدام العربي الكادح) واثاثها يصلح لطقس بارد ، لا لطقس صحراوي كثير الغبار هو ببساطة طقس معظم اقطارنا العربية .

نترك الديكور الى التسريحات . نجدها مصممة للشعر الأوروبي الأشقر الأملس المحاط بمناخ بارد ، لا لشعر العربية الأسود الأجعد المحاط بالحر الرطب .

***

معظم صفحات المرأة لدينا تخاطب غالباً سيدة عاطلة عن العمل ، ثرية ، تعيش خارج مجتمعها الحقيقي ، وخارج هذه المرحلة التاريخية الصعبة التي تستوجب عدم هدر الطاقات في التفاهات . انها امرأة الـ (جيت سيت) التي لا تقطن وطنها غالباً ، لأسباب تتعلق (بالسنوبيزم) وليس لأسباب نضالية . لماذا ؟ هل ثمة سوء نية لدى

الذين يعدون هذه الصفحات ؟ طبعاً لا . جوهر الخطأ كامن في علة تشاركهم فيها قطاعات اخرى كثيرة من مجتمعنا هي : عشق الاستيراد والتوهم ان كل ما هو اوروبي هو بالضرورة متفوق ويستحق التقليد والسعي خلفه بطموح . وهذه السطور اخطها وكلي ثقة بحسن نوايا الذين يهدون تلك الصفحات للمرأة العربية .

انهم يريدونها كما يرى بعضهم الغربية ويتوهمها :انيقة . جميلة . جذابة . والمرأة العربية تستطيع ان تكون كذلك ، لكن الأمر لن يكون ابداً بتقليد الغربية واستيراد مظهرها . فلكل وطن مناخه الطبيعي والنفسي وطقسه الانساني ووضعه المادي وزمنه التاريخي . والثياب لا يمكن لها ان تنفصل عن هذه العوامل كلها ، بل انها في الحقيقة تنبثق عنها ومنها .

والمرأة العربية لن تكون انيقة وجذابة الا حين تكون (ذاتها) دونما استيراد .

ولكن ذلك كله خارج الموضوع تقريباً !

* * *

لقد اتخذت من بعض صفحات المرأة نموذجاً بسيطاً لمهزلة الاستيراد الآلي لـ (الحضارة) والأشياء والأفكار . . . والمظهر . تلك المأساة المركبة التي يمارسها البعض دونما سوء نية . . وينجم عنها سوء العاقبة .

الصدمة الأولى مع الحضارة الغربية نجم عنها لحظة انبهار ، ومرحلة نقل عمياء في معظم المجالات ، من علمية وصناعية وفكرية و (ازيائية) وديكورية و (مطبخية) . . فكادت حياة البعض تتحول الى كرنفال يومي من التناقضات مع اعماق الذات ، وروح المناخ الاجتماعي الذي يفترض ان نساهم في تطويره لا في تعهيره .

ويخيل الي ان استيراد القيم هو من أهم اسباب الازدواجية لدى الانسان العربي .

فهو يمارس احياناً بعض المفاهيم المستوردة ، كنوع من الديكور الخارجي للسلوك الاجتماعي ، وحينما يواجه لحظة اختيار حاسمة في حياته ، يصاب بردة فعل ، وينحاز للموروث والمكرس والعتيق بكل حرفيته .

من هنا اعتقد ان الاستيراد الأعمى للقيم والأشياء يكاد يتحول الى عائق رئيسي في وجه تطور الفرد العربي بصورة صحية وطبيعية . وما استيراد (الموضات) سوى ذلك المثال الصغير لبانوراما من المستوردات المعششة في زوايا حياتنا كافة .

استيراد (الموضات) مثلاً ساهم في انكفاء بعض نسائنا نحو الزي التقليدي

العتيق الذي قد لا يناسب حرية الحركة في العمل ، وروح العصر ، وجعل الأقلية الباقية ترتدي كل اوروبي مستورد (آخر صيحات الموضة) مع شعور مريض بالتفوق . .

وهكذا حرمنا من مولد مبدع عربي يصمم الأزياء ابتكاراً عربياً لا كتقليد للغرب ، ويمنح الأكثرية الساحقة من العربيات ثياباً تناسب قسوة الطقس والمجتمع ، ورقة الحال ، ودواعي العمل ، ولا تخلو من الجمال المميز . معظمنا يقلد الماضي أو الشعوب الأخرى . فمتى نكون (ذاتنا) المعاصرة ونتطور انطلاقاً من حقيقتنا ؟

* * *

من هنا تتضح أهمية العودة الواعية الى التراث في كل مجال . وأنا هنا اشدد على عبارة . . « الواعية » لان العودة الى التراث يجب ان تتضمن معنى التجاوز والتمثل لا التكرار السقيم لما كان . . والاستمرارية لا التحجر . . ثمة ذلك التفاعل الخلاق بين رياح الحاضر واصداء الماضي . ونحن محرومون منه ، ما دمنا نتكل في تعمير بنيتنا النفسية على الاستيراد وحده .

ان الغزال الصحراوي لا يسعى لارتداء فراء الفقمة أو الدب القطبي ، فلماذا نحاول نحن ذلك ؟

ولماذا لا نعود الى ارتداء جلدنا . . كخطوة اولى ؟

٨٢/٥/٩

لا : للألفة مع البشاعة

يشعر المرء أحياناً ان الصحف وجدت لتعذيبه شخصياً . . كل خبر فيها مكتوب لينكأ في اعماقه جرحاً ما . كل حكاية قادمة من اقاصي الأرض ، جاءت تمشي بساقيها الابجديتين كي تغمد في صدره سخريتها .

ذلك الخبر القادم من دولة كبرى ، عن اعدام وكيل وزارة سابق فيها بتهمة قبول رشوة . . الا ينكأ في قلب المواطن اللبناني جرحاً شبه منسي ؟

بلى ، عقوبة الاعدام لموظف ادين في فضيحة الرشوة ، اي خيانة ثقة الشعب به ، كأنها الخيانة العظمى .

قد يرتجف بعض الناس امام الخبر ، ويجدون الحكم قاسياً . لكن مواطناً عادياً عايش الحرب سبعة أعوام في لبنان ، وقاسى ويلاتها وذيولها ، وخاض في بحر الرشوة الناري اللامتناهي ، لن يجد هذا الحكم شديد « القسوة » ، لانه عانى قسوة الحياة حين تصير الرشوة هي الوسيلة الاساسية لحل كل صغيرة وكبيرة ، وتكاد تكرس كقاعدة للتعامل !

***

الرشوة !

من زمان كنا نخجل من لفظ الكلمة . كنا لا نجرؤ على محاولة رشوة احد ، كي لا نهينه لمجرد تصورنا انه قد يقبل ! اليوم ، صارت النزاهة هي الاستثناء لا القاعدة ، وتبدلت التسميات ، فصار من لا يرتشي ينعت بالغباوة وعدم (المعاصرة) ، والقصور في فهم الحياة (العملية) ، والعجز عن (التكيف) مع الزمن .

وصار نجوم قبض الرشاوى عندنا (يفعلونها) باسترخاء من يؤدي روتينه اليومي وهم احياناً يمنون عليك (بتضحيتهم) من اجل خدمتك ! وصرنا نرتبك امام انسان لا يعاقر الرشوة ، ويؤدي واجبه دون ان يمن عليك بذلك . اننا نحار أولاً كيف نلمسه

لنتأكد من انه بشري ، ثم نحار كيف نشكره قبل أن يغمى علينا من الدهشة . .

* * *

وهذا خبر آخر ، قادم من البعيد ليفتح في جرحك العتيق قطبة اخرى .

رجل بوليس مخمور . اصيب بنوبة جنون فتحول الى وحش كاسر . قتل وجرح العشرات قبل ان يتكرم بالانتحار . وزير الداخلية هناك تحمل مسؤوليته عن الحادث فاستقال من منصبه أو اقيل . المهم ان عبارات مثل « مسؤول » و « مسؤولية » قد تم استعمالها ، ولم يكتف الناس باتهام القضاء والقدر .

المجازر كلها في لبنان لا مسؤول عنها غير القضاء والقدر ، و « العناصر غير المسؤولة » أو « غير المنضبطة » ! جثث القتلى التي تغطي مصبات الانهار والجبال والارصفة ومنافض السجائر والسيارات والنفايات ، وآلاف الجثث لابرياء ماتوا مصادفة ، لم يحدث يوماً ان استقال « مسؤول » من اجلها ، أو أعلن بوضوح لماذا قتلها ، واذا تصادف ان عرفنا مرة « المسؤول » عن مصرعها ، تتم تسميته بعنصر « غير مسؤول » و « غير منضبط » ، وهو بالتالي فوق قوانين البشر الحمقى المنضبطين امثالنا .

* * *

وهذا خبر قادم من قطر عربي شقيق ، يتابع (فك) جرحك قطبة بعد أخرى .

يتحدث الخبر عن حادثة خطف من اجل طلب فدية . الطفل المخطوف استعيد خلال اقل من ٤٨ ساعة ، وصدر الحكم على (بطليها) بعد اقل من شهرين من يوم الحادثة .

تنهض مئات من جثث المخطوفين الأبرياء من مرقدها في لبنان ، وتركض في دروب الليل في مظاهرة احتجاج صامتة ، وتغبط الطفل الذي وجد مؤسسات تحميه . عشرات الأطفال الأبرياء اختطفوا في لبنان ، وقد تعددت الأسباب والاختطاف واحد ، والطفل طفل ، وقلما شاهدنا المجرم يمثل خلف القبضان ويلقى العقاب العادل بمثل هذه السرعة . فالمهم في جوهر العدالة ، لا الحكم فحسب ، بل سرعة التنفيذ ، ليكتمل القصاص ويكون درساً لمن تسول له نفسه الاعتداء على حياة الأبرياء دونما وجه حق .

لكن ما يدور عندنا يكاد يكون درساً للابرياء ضد ممارسة السلوك الحسن ، ولقاحاً ضد المسلك الخُلقي الايجابي . احياناً يعود مخطوفنا حياً ، فتقام ولائم التكريم للخاطف واسرته وعشيرته شكراً لهم على حسن إضافتهم للمخطوف ، واحياناً نجد الخاطف يطلق سراح الرهينة بنفسه ، شرط التقيد بخُلقية الخطف المستحدثة لدينا ،

وابرزها ان يذهب المخطوف شخصياً لجمع فديته ويعود بها الى خاطفه . . والا . .

***

وهذا تاجر لبناني شاء له حسن طالعه ان يقتل في قطر عربي شقيق ، لا في لبنان .

ففي ذلك القطر ما تزال العدالة تملك وتحكم . . . وهكذا تم القاء القبض على القاتل وشريكه ، وبعدها بأيام صدر الحكم باعدامهما وتم التنفيذ ولما يجف تراب قبر المغدور .

سعيد كل بريء يقتل خارج لبنان ، فقد يجد من يقتص له ويعاقب قاتله بالحق .

وأحمق كل من تسول له نفسه ان يصير قتيلاً في لبنان هذه الأيام . . فدمه مهدور . . . مهدور . . . متدفق في بالوعة النسيان .

وما أقل الذين يجدون دربهم الى الاستشهاد المضيء . . وما اكثر الذين يموتون مصادفة ، ودونما معنى !

للشهداء ننحني ، ولضحايا المصادفة أو الغدر نأسف .

***

تقرأ خبراً عن « موقوف رهن التحقيق » في قضية اغتيال فلان من الناس فتتألم مرتين .

فالموقوف بريء ، وبالتالي سيطلق سراحه فيما بعد . . . او انه مجرم ، وبالتالي لا مفر من اطلاق سراحه قبل مهاجمة مركز اعتقاله . . . أو بعدها .

لقد سقط آلاف الضحايا على الأرض اللبنانية في الأعوام الأخيرة ، ولم ترتفع مشنقة واحدة .

لقد ذهب آلاف القتلى ، ولم نعثر على مجرم واحد . . . كيف ؟

***

مشهد تظاهرة المقتولين الأبرياء ، الخارجين من قبورهم الى ارصفة الحزن وشوارع الليل في مظاهرة حاشدة تطالب بالاقتصاص لهم قد يبدو مرعباً .

لكن المرعب حقاً هو مشهد تظاهرة القتلى الأحياء ، الذي مات في نفوسهم الطموح الى العدالة المستحيلة ، والحلم بزمن تسوده القيم الانسانية ، وهم يهرولون في ازقة الحياة اليومية .

المرعب حقاً عندنا هو تلك العادة التي بدأت تتكون لدى بعضنا : الألفة مع البشاعة .

كأننا نكاد نألف الظلم .
نتعايش سلمياً مع الرشوة .
نتزوج من القتل .
نعاشر الوقاحة . نداري الخوة .
نهادن سماسرة الدواء والغذاء .
نسامر مصاصي دم الفقراء ونفخر بمعرفتهم وصحبتهم في الأماكن العامة .
نلاطف الخطف .
نغازل العجرفة .
نراقص السرقة . نساهر الاجرام . . . وننام .
كأن اوتار الغضب والرفض والاشمئزاز تقطعت في قيثارة نفوسنا ، لكثرة ما ضرب الخونة عليها بأصابعهم الملوثة . . . وهراواتهم .
كأننا نكاد نفقد القدرة على الحلم بالأنبل والأفضل . . . والشهية الى تحقيق ذلك .

كأن العدالة سمكة ملونة تنزلق من بين أصابع ذاكرتنا الطفولية . . الا اذا غادرنا أرض الأوحال هذه . . . فمتى تنفد خابية الصبر ؟

جنيف ـ بيروت ٢/ ٥/ ١٩٨٢

دليل المسافر الى الآخرة

حينما تحيط الكوارث والأحـزان بالمـرء من كل جـانـب ، تنتابـه رغبة مفـاجئة في الضحك ! كأن الابتسامة الدامسة البياض هي فعل مقاومة في وجه السواد الساطع . . كأن جنين الأمل يولد غالباً من رحم اليأس ، لأن التفاؤ ل يصير في هذه الحالة من بعض غريزة البقاء . . كالتمسك بحبل النجاة الوحيد المتبقي داخل بئر الظلام حيث نتدلى من زمان . . هذه حالنا في بيروت . . وهذه حالي في الشهر المـاضي ، حين اصبت بنـوبة تفاؤل جارفة ! وهي حالة غير مؤذية لو لم اكن على سفر ، ولو لم التق في اسفاري الكثيرة بعدد كبير من اصدقائي واحبائي ، فأقنعهم بضرورة العودة الى بيروت ، أو زيارتها على الأقل ، لأن ـ البعد جفاء ـ .

***

ولانني اعرف جيداً مطار بيروت ويعرفني ، فأنـا امر بـه مرة ـ عـلى الأقل ـ كـل شهر ، لذا اشعر بالذنب نحو احبائي الذين فرشت دربهم الينا بالورد لا بالديناميت كما هو واقع الحال ! وأشعر بانني مدينة لهم بايضاح ، أشرح فيه ما سيلقـونه في السـاعات الأولى لعودتهم الى بيروت في (مطار الآخرة) . .

واعترف لكم انني هنا أقول بعض حقيقة (دافعي) لفضح (مطار الآخرة) ، لا كلها .

فلو كان هدفي حقـاً تحذيـر الاصدقـاء فقط ، لفعلت ذلك في رسـائل شخصيـة واسترحت. لكن في اعماقي صرخات اخرى،تتخذ من تحـذير الاصـدقاء حجـة لرسم صورة عن واقع بيروت اليوم عبـر رسم نموذج مصغـر لها هـو المطار . كـأن لوم بعض العرب (المسؤول) مباشـرة عن مأسـاة لبنان هـو هدفي . . وتحـذيرهـم ايضـاً . . لان بيروت هي نموذج الخراب الذي تهدف (الخطة) الى تعميمه ، عندنا ، وعندهم ايضاً .

***

ستكون سعيد الحظ اذا هبطت بك الطائرة في (مطار الاخرة) دون ان يطلق عليها احد نار المضادات المدفعية خطأ ، وفي غمرة اطلاقها على طائرة اسرائيلية من تلك التي الفت التسكع في سماء بيروت منذ عام ١٩٧٤ ، مخترقة جدار الصوت لا الصمت العربي عنها . وستكون سعيد الحظ اذا لم يختطف طائرتك احد بعد هبوطها في (مطار الآخرة) . وهو امر حدث للطائرة التي حطت قبل طائرتي بدقائق وذلك في عودتي قبل الأخيرة الى بيروت .

واذا نجوت من الخطف بالطائرة ، فقد لا تنجو من الخطف بالتاكسي . . ولكن ما لنا وللتاكسي الأصفر الآن ، وبيننا وبينه أهوال . . .

***

المضايقات كلها التي يمكن ان تتعرض اليها في مطار بيروت يقوم بها اشخاص لا تعرف بالضبط من هم ، وماذا يفعلون هناك ، ولعلهم هم ايضاً لا يعرفون ماذا يفعلون هناك ، لكنهم يدلون بشباكهم في بحيرة المطار وينتظرون الضحية المجهولة ، كما يجهل الصياد ما قد تحمله اليه الشباك . .

الرسميون في المطار وحدهم لا يضايقونك . ولعلهم يشكون من ممارسات (القبضايات) بقدر ما تشكو منها . وانت ما تكاد تتجاوز موظف الأمن المهذب الذي يختم لك جواز سفرك بكل لطف وحفاوة ، حتى يهاجمك سرب من الوجوه الغامضة في حفلة عرض عدواني للخدمات . وبعد عبارة « الحمد لله على السلامة » التي تعني سلامتك من صياد غيره كي تقع بين يديه ، يأتيك الاستفسار الخالد : « منذ متى لم تزر بيروت » ؟

الاجابة على هذا السؤال تحدد تقريباً مصير حياتك ! فاذا قلت له مثلاً : « منذ عام » . فهذا معناه انك غير مطلع على ما (استجد) من احوال واهوال ، وانك فريسة مثالية مغمضة العينين ، وبراءة (العذارى) سياسياً تعميها عن انياب ذئاب الواقع .
الاجابة على هذا السؤال يجب ان تكون دائماً : « انا غائب منذ ٤٨ ساعة ، هل حدث شيء جديد خلال غيابي ؟ » .

بعد هذه الاجابة ، سينفض عنك الكثيرون ، لكنك ستواجه الامتحان التالي .
سؤال رقم ٢ : « هل تريد ان امرر لك حقائبك دون تفتيش ؟ هل معك شيء ممنوع ؟ » .

واذا كنت لا تعرف رجال الجمارك اللبنانية كما اعرفهم واعرف نزاهتهم وعفة

كفهم ، فانك قد تسقط في الفخ ، وتتوهم انه حقاً على اتفاق مع احدهم .

وقد لا يكون معك اي شيء ممنوع. قد تكون فقط ضيق الصدر وعلى عجل من أمرك ، او انك تخجل من فتح حقائبك المزدحمة بالفوضى امام الناس ، فتوافق .

النتيجة : ستدفع مبلغاً محترماً لـ « منقذ الحقائب » الـذي يدعي وصلاً برجال الجمارك وهو كاذب . وستعرض نفسك لخطر ما ، لان مجرد اعترافك بعدم الرغبة في (فتح) حقيبتك ، يعني ببساطة انك قابل للايذاء ، ولديك ما تخفيه . وسيتم استغلال ذلك في مطار الآخرة على مستويات عدة ، بدءاً باختطاف الحقيبة ، وانتهاء باختطافك معها لكشف سرك الخطير .

* * *

حذار من ان تكون امرأة . فالمرأة في مطار بيروت تثير الشهية الى الاضطهاد تحت ستار حمايتها . وان كانت هذه المرأة مثلي ترفض الوصاية ، وتصرُّ على التصرف كأي مواطن قادر على حمل حياته وحقيبته بين يديه ، فقد تكون النتيجة شجاراً بين موظف انساني منضبط ، وأحد اولئك السادة من الغامضين الذين يحتكرون جر عربات حمل الحقائب ، أو جرك .

ففي عودتي الأخيرة الى بيروت ، قررت ان اتصرف كمواطن سوي ، واتجهت نحو عربات حمل الحقائب لأحضر عربة احمل فيها حقيبتي . فوجئت بانها مسورة بجنزير حديدي ثخين ، له قفل كبير مغلق : تقدمت من أحد رجال الأمن ، وطلبت منه عربة من تلك التي كتب عليها « لاستعمال المسافرين » ، وكان يمسك بها رجل (غامض) . وكانت الحصيلة شجاراً بين رجل الأمن النزيه ، والمتسلط الأرعن ، كاد يتطور إلى إطلاق رصاص كالعادة المتبعة عندنا .

* * *

بعد مغادرة المطار ، والتخلص من عشرات (القبضايات) الصغار الذين يتقاذفونك ، ستواجه المشكلة الأعظم : التاكسي (الأصفر) الرسمي . بعضهم سيرفض نقلك إلى أي مكان إذا لم تسمح له بسرقتك ، وسوف يسلمك إلى سائق آخر غامض غير رسمي يسرقك عنوة . لا تتوهم ان الحل بسيط ، كأن تطلب من صديق أن ينتظرك في مطار الآخرة ليقلك إلى البيت أو الفندق أو المشرحة .

فالذي يحدث ان مطار بيروت مسور بحواجز حديدية على بعد ٥٠٠ متر من مدخله ، وهذه الحواجز ممنوع تجاوزها لغير (القبضايات والزعران) وصغار المحتالين

وخاطفي الطائرات والمتسولين . وعلى الأهل والأصحاب الانتظار خلف هذه القضبان الحديدية . وريثما تتجاوز هذه الـ ٥٠٠ متراً من الرعب ، تتعرض لأنواع الامتهانات والانتهاكات كافة ، (ألطفها) ان تتعاقب الايدي على حمل حقيبتك، وكل يد تفرض عليك خوة معينة حتى يأتيك الفرج بلقاء الصديق المرتقب وراء القضبان ، في رقعة شبه مظلمة تفور بالمخاطر صغيرها وكبيرها .

***

تستطيع ان تشكو امرك إلى بعض المجلات ، كما فعل قارىء كتب صفحة كاملة لخص فيها (الأهوال) التي يتعرض إليها كمسافر ونشرتها إحدى المجلات المختصة (مجلة المسافر) . لم يتم إصلاح المطار بعدها ، لكنها دونما شك ساهمت في إصلاح أعصاب مسافرنا ، وتوفيره لثمن زجاجة (فاليوم) مغشوشة إضافية .

لا تشك أمرك إلى (الدركي) الذي يسجل اسمك ورقم التاكسي الذي تستقله . إنه يعرف ما سيفعله السائق بك أو شريكه الواقف في الظلام ، لكنه لا يستطيع ان يفعل شيئاً ، لا هو ، ولا رئيسه المباشر ، ولا الرئيس (الأعظم) .

فما يدور في المطار هو صورة حية مصغرة لما يدور في لبنان . إنه نموذج حي لمأساة موت الأشياء ، التي تدور في كل رقعة وشارع ومقبرة . لا تشك أمرك إلى مسؤول لبناني ، بل ارفع شكواك إلى رئيس بلدك . . فمعظم البلاد العربية مسؤول مباشرة عما يدور في لبنان . . وبعضهم يتوهم ان ما يدور هنا هو كفارة ندفعها عن العرب ، ولا يدرك ان بيروت هي أرنب الاختبار الأول - وليس الأخير - وأن خراباً أكبر وأكثر شمولاً يرسم لمدن عربية اخرى ، ضمن إطار مخطط شامل لابتلاع الوطن العربي . أجل . لا تشك أمرك إلى مسؤول لبناني . كلهم يعرف جيداً ما يدور ، ولا يملك له (وحده) شيئاً . ووزير سياحتنا الديناميكي مروان حمادة يصارحنا ببساطة في حوار صحافي (باختصار وصراحة أقول لك ، المطار « مزبلة » كبرى ، والمطار « مزرعة » كبرى ، والمطار « فلتان ») . وقبل أن تسأله لماذا لا يفعل شيئاً يصارحك أيضاً (المشكلة تبدأ أولاً بالفلتان العام المتفشي في البلد والذي أصاب المطار . . فالقضية أمنية أولاً واخلاقية ثانياً و . .) . والوزير مثلنا جميعاً يطارد نقطة ضوء ، ويحاول اعتقال فرحة هاربة ، فيحلم معنا بالمطار الجديد الذي بدأ بناء أساساته .

***

ثمة وسيلة واحدة لمغادرة (مطار الآخرة) بأمان والوصول إلى بيروت بالسلامة .

اختطف طائرة العودة ، وسيأتيك وفد من الزعماء والوزراء ورجال الدين ، ويرجونك الافصاح عن مطالبك . تدلل قليلاً ، وسيناشدونك حقن الدماء ، وسيحيط بالطائرة مصورو التلفزيون ومندوبو الاذاعة والصحافة . وأخيراً قل لهم انك ستطلق سراح الركاب وتفرج عن الطائرة ، مقابل مطلب واحد : إيصالك إلى بيتك أو فندقك . . سالماً .

جنيف - بيروت ٢٦/ ٤/ ١٩٨٢

بطاقة دعوة للغزو الاسرائيلي

خطفاه ، وحين جاعا أكلاه .

لم يقل لهما شيئاً . وربما قال ولم يفهما لغته .

لم يحاوراه على الأرجح ، فقد كانت امكانية المناقشة صعبة . ثم انهما (فعلاها) بعدما جاعا وتعاطيا المخدرات ، وكان يبدو شهياً .

. . . وتعطلت لغة الكلام .

وبما ان ذلك لم يحدث في بيروت ، وانما في مدينة برن ـ سويسرا ، فقد قامت قيامة البوليس والصحافة و « مركز الشبان » ـ حيث يقيم الشابان ، وحيث تمت عملية الشواء ـ وثار الجميع بشدة بالرغم من ان (المرحوم) كان طائراً من طيور الكركي اختطفاه من حديقة الحيوانات في لحظة جوع وتخدير .

وأغلقوا « بيت الشبان » في برن انتقاماً للمخطوف (الفقيد) طائر الكركي ، واحتلت الحادثة عناوين الصحف عندهم طوال الشهر الماضي . . .

وإذا كنت قد عشت مثلي سنوات الحرب في بيروت ، وعايشت الخطف والقتل والارهاب ، فانك لن تتعاطف (حتى البكاء !) مع طائر الكركي ، بل انك قد تشعر ببعض الغيرة السرية منه . . . وقد تتفهم كيف تعطلت لغة الكلام بين الشاب والطائر ، أي الخاطف والمخطوف . . . فهما لا ينتميان الى فصيلة بيولوجية واحدة . . . ولكن ، ماذا عنا نحن ؟ وما الذي يعطل لغة الكلام عندنا ، كلام المرء مع الغريب والقريب ، وحتى كلام الانسان مع ذاته ؟ . . . كيف انطفأت اللغة بين شفاهنا ، وتحولت الى عواء ذئاب ؟

***

السيد واين وليامز قتل في (أتلانتا) دزينة من الصبيان والشبان ، وأدين بالجريمة بعد أن اطلعت المحكمة على (٧٢٨) دليلاً مادياً للجرائم ، واستمعت الى ١٩٧ شاهداً !

ساعات ، والمحكمة تنصت للشهود وللمحامي وللمتهم . . . ساعات من فحص الأدلة سعياً وراء الحقيقة والعدالة ، وكل ذلك من أجل إدانة إنسان واحد . . .

وهذا يدور في عصرنا ، بينما بدأنا نحن ننسى هنا مبادىء العدالة ، وحق الانسان في الدفاع عن نفسه ، وضرورة التأكد من الجرم قبل تقرير العقاب .

صار القصاص يسبق عندنا مجرد الاستفسار . . ولم يعد أحد يحلم بأن يجد من يستجوبه قبل مصرعه .

وتعطلت لغة الكلام . . . وحلت محلها أبجدية العنف ، حيث تتخاطب الرشاشات والمدافع والعبوات الناسفة ، والسيارات المتفجرة والألغام . . .

***

وإذا غضب طالب عندنا ، أطلق النار على الاستاذ ، أو على لوحة نتائج الامتحانات التي تعلن رسوبه . وسيصاب بالنار شخص لا علاقة له بالأمر كله طبعاً .

وإذا لاحقت سيارة سيارة أخرى ، لا بد من إطلاق النار ، ولن يصاب أحد من ركاب السيارتين ، وسيصاب طبعاً عدد من المارة كما حدث في طرابلس البارحة ـ قتل رجل ، وأصيب (١٣) بجراح ، وكلهم من عابري السبيل ـ .

وإذا ضاق صدر أحدهم بسواه (أو بالطقس) ، فهو ينفس عن ضجره بعبوة ناسفة يضعها أينما تيسر له الأمر . فقد صار الانفجار بديلاً عن الصرخة . واللغم بديلاً عن الحرف . .

والبارود بديلاً عن الحبر . واصبع الديناميت بديلاً عن (البيك) . والرصاص بديلاً عن قلم الرصاص .

. . . وتعطلت لغة الكلام . . وذلك امر لا يدعو الى البهجة كثيراً كما كان الشعراء يتوهمون .

***

تتذكر بغصة حكاية البريطانية الليدي ايزوبيل بارنيت . كانت ثرية ، ومريضة نفسياً (كليبتومانياك) . أقدمت ذات يوم على سرقة أشياء بخسة الثمن من أحد المخازن الكبيرة . . وأصر صاحب المخزن على تقديمها إلى المحاكمة . وحوكمت . وشعرت بالذل العلني والمهانة ، فأقدمت على الانتحار . ويوم انتحرت الليدي بارنيت تصادف ان كنت في لندن ، وتابعت إهتمام الصحف بتحديد المقصود من العدالة والقصاص و (روح العدل) بشكل خاص . والظاهرة التي لفتت الانتباه هي تعاطف معظم الناس

معها كمظلومة . كان قصاصها (الضمني) أكبر من جرمها ، وآذاها تطبيق العدالة (الميكانيكية الكومبيوترية) عليها . .

ودار يومئذ نقاش حول مدلول ما حدث ، واعتبر الرأي العام صاحب المخزن قاتلاً غير مباشر ، مستشهداً بمقولة شكسبير عن مخاطر « تضخيم كل غلطة صغيرة » ، وعن (أنسنة العقاب) . . ودافع الناس عنها بصفتها (كانت مسنة مسكينة تسرق الحب بطريقة خاطئة) .

بغصة أتذكر حكايتها ، والغصة ليست عليها ، وإنما على الآلاف الذين قتلوا في لبنان الحزين على طول السنين الماضية ، دون ان تتاح لأحدهم فرصة الدفاع عن نفسه ، أو شرح موقفه ، ناهيك عن تحليل وضعه النفسي (!) ، ودون أن يدري الناس عن ذلك شيئاً غير تلك الجثث المرمية على الشواطىء ، وفي الأزقة ، وتحت الجسور ، وداخل صناديق السيارات ، وفي رأسها ثقب وعلى جسدها آثار التعذيب الوحشي .

لم يعد أحد يعرف جثة البريء من المجرم . الشهيد من المدان الخائن . فقد تعطلت لغة الكلام ، وصارت أبجدية الجثث تتكوم أمام عيوننا دون ان نحسن قراءتها لنفهم لماذا ؟ . . لماذا ؟ . .

* * *

حكاية قاتل دزينة الصبيان مع المحكمة والشهود ، حكاية الليدي سارقة (المحبة) . حكاية الطائر المخطوف (المنتوف) . آلاف الحكايا المشابهة تهب علينا من العالم الخارجي مثل رياح غامضة ، تضم في طياتها روح العدالة وأشباحها .

كل تلك الأصوات المنسية عن جوهر التعامل بين أفراد الجنس البشري ، تتفجر في الروح المخدرة بالبشاعة اليومية المتكررة ، والخوف الذي صار إيقاع حياتنا .

نشعر بأننا فقدنا في الأعوام الأخيرة اثمن ما تملكه المجتمعات : روح العدالة . . وفقدنا أداتها الأولى : لغة الحوار ، أي لغة العقل . ولعل الكارثة بدأت يوم أضاعت اللغة لدى البعض توازنها ، وصارت التهم توزع جزافاً وكذلك الألقاب . هذا (خائن) و (عميل) وهذا (زعيم) . وفي ظل ضياع المعايير ، ورفض الحوار العلني حول الأمور كلها ، بدأت مرحلة إحراق الخيط الأبيض والأسود معاً . . والرمادي . .

كأن أحداً لم يعد يفتش عن الحقيقة ، وإنما عن (مصلحته الخاصة) التي يلقبها (بالحقيقة) . . ونسي معظم الناس هاجس (العدالة) . وحل محلها هاجس (السلامة) امام القمع .

ولم نعد ننتفض امام الظلم ، وإنما صرنا نتحاشاه هاربين من دربه ونحن ننتفض خوفاً .

والطائر في برن ، يلقى من يهتم بمصيره والانتقام له أكثر مما يلقاه معظم رجالنا .

والقاتل الجماعي في أتلانتا يحظى بمحاكمة علنية ، ولا يدان إلا بعد الانصات إلى ١٩٧ شاهداً . . ونحن قد نقتل إثر رسالة اتهامية مغرضة بلا توقيع !

والسارقة المنتحرة في انكلترا تجد في (الرأي العام) خير محكمة ، تعاقب جماعياً ذلك الذي أخل بـ (روح العدالة !) ودفع بها إلى الانتحار .

أما نحن ، فالبريء عندنا مذعور أكثر من المجرم ، لأنه لا حول ولا قوة للبريء المسالم في بحر العنف المتلاطم ، أما المجرم فله (مافيا) تنصره ظالماً أو مظلوماً .

* * *

وتعطلت لغة الكلام . .

وذبل الحس الجماهيري بالعدالة . . وكاد يتحول إلى ذكرى همس ، يضيع في زحمة الأصوات البهيمية اللاإنسانية ، المرتفعة الايقاع . تسكن آذاننا الأصوات الأخرى ،

وتتكاثر داخل قنوات السمع ، لتتسلل مستولية على الدماغ مثل نبات شرير متوحش النمو . .

ونسقط في (العجز الفكري) . . .

تريدون بعض الأمثلة عن تلك الأصوات ؟

* * *

صوت معركة كان يمكن تحاشيها ببعض التواضع المتبادل بين المسلحين ، يتبعها نواح سيارات الاسعاف التي نصحو عليها وننام .

صوت الطائرات الاسرائيلية وهي تخترق جدار الصوت ، كأنها تمد لسانها لأهل بيروت ساخرة مهددة ، أو صوتها وهي تحوم فوقنا وتقصف . .

صوت غنج مذيعة عربية ما تتأوه نشوة وتضم إليها الميكروفون ، يأتينا ونحن نختبىء في الملجأ ، والطفل الذي عضه الفأر يبكي ، ثم يسكت تماماً حين تنفجر القذيفة على باب الملجأ وتصيب منه مقتلاً .

صوت تنفسنا في الظلام ونحن نلهث رعباً ، بينما تدور تحت (الشرفة) معركة غامضة بالرشاشات .

صوتنا المخنوق ونحن نصلي كي يكون المسلحون إياهم قد نسوا مدافع الـ (ار . بي . جي) الليلة في البيت .

صوت البائع الجوال الذي يستعمل سيارة إحدى (الدكاكين السياسية) لبيع بضاعته من بيض ودجاج وجبن وزيتون وينادي عليها عبر الميكرفون الخاص باذاعة البيانات ، مع فواصل من الأغاني الحماسية القتالية ، وأحياناً موسيقى رقص (هز البطن) القاتلة ! . .

صوت الحفارة حينما يحلو لـ (القبضاي) البناء على أرضه أو أرض الآخرين ، فجراً ، أو غروباً . . أي خارج أوقات نوم الناس والدوام (القانوني) . . كم تبدو كلمة (القانون) مغطاة بالغبار ، كأنها خرجت لتوها من صندوق عتيق منسي .

صوت قذيفة الـ (آر . بي . جي) التي انفجرت منذ نصف ساعة عند منتصف الليل في مرآب المبنى لان احد (جيراننا) من (المسلحين) ثمل واستبد به السرور فاطلق قذيفة احتفالية بدلاً من رصاصة احرق بها سيارة مهجر آخر مثله كان يعتاش من بيع الكعك على سطحها !

***

لعل انكر هذه الأصوات ، ذلك الذي نسمعه في اعماقنا كل لحظة : صوت قومنا وكل يغني على ليلاه ، في ليل مصرع التضامن العربي .

وتأتي أصوات (زمامير) سيارات العرس ، الراكضة في الشوارع باستمرار ، لتتداخل والأصوات الأخرى كلها . . وكل ما يخطر بالبال وهو انه ربما بعد تسعة أشهر ، ستلد عروس ما ضحية جديدة مرشحة للقتل !! . . كيف لم تعلن نساء هذا الوطن الحزين الاضراب عن الانجاب ؟ . .

***

هذه السطور السابقة ترسم صورة لـ (واقعنا الوطني) الحالي دونما تزوير . أليس ذلك الواقع بطاقة دعوة للغزو الاسرائيلي ؟

أليس كل واقع عربي مشابه بمعنى ما ، وأينما وجد ، بطاقة دعوة اخرى لغزو محتمل . . بل وشبه مؤكد ؟

بيروت ١/ ٦/ ١٩٨٢

ونحن، متى نهاجر ولا نعود ؟

تطالعنا من وقت إلى آخر كتابات (شاعرية) ، يتغزل أصحابها بالوضع الحالي لمدينة بيروت ، ويجدون تفسيراً (جمالياً) للبشاعات التي نقاسي منها ، نحن الذين ما زلنا نقطنها .

كتاب هذا النمط من الملاحم هم طبعاً لا يقطنون بيروت ، ولا يشاركوننا همومنا اليومية ، وموتنا اليومي ، وقلقنا الليلي . . انهم من فئة (عابر السبيل) الذي يأتينا في زيارة خاطفة قد تكون الأولى والأخيرة ، ويهرول هارباً مع أول طائرة راحلة ، ويدبج ملحمته الغزلية ببيروت على سبيل الاعتذار أو التبجح (الايديولوجي) الموهوم ، أو المزايدة (الوطنية) ، وربما في لحظة ندم نبيلة من الحس بالذنب لهجر البلد ، يحولها إلى وقفة تغزل بوضع البلد كيفما كان ! . .

* * *

نحن الذين عايشنا الحرب قنبلة قنبلة ، ومذبحة مذبحة ، وعشنا سنوات بين الأمل والخيبة ، بين الولادة والاحتضار .

نحن الذين الموت خبزنا اليومي ،

ومصرع احبائنا في (روليت) القتل العشوائي يزلزلنا ، وقلقنا على أطفالنا كلما ذهبوا إلى المدرسة يلتهمنا . . نحن الذين ما زلنا نصمد في وجه الاذلال والقمع والسرقة والاعتداءات والانتهاكات والسمسرة ، نحن سكان (الأرض المحتلة) بالقهر والغموض واقتتال ابناء الصف الواحد ، وفي وجوهنا تتطاير الاسنان الاصطناعية لثعالب السياسة (العتاق) الذين ما زالوا يفتشون في فخذ الوطن المهترىء عن موضع لنهشة إضافية . . ونرقب بحزن بعض الساسة (الجدد) من الشباب وهم يرثون عن (الطقم العتيق) أساليبه القذرة في التعامل مع أرزاق الناس وأحلامهم . نحن الذين نعيش هذا الواقع المر جثة جثة وشهقة شهقة ، نشعر بغضب متقزز حين نطالع كتابات

أولئك الذين يزوِّرون واقعنا ، ويتغزلون به ، ويزيفون مشاعـر الأكثريـة الساحقـة من البسطاء والأبرياء والصامتين ، ويلصقون على حناجرهم (زغردة) ليست فيها . .

إنهم يلعبون كرة السلة برؤوس شهدائنا ، ويقذفون بها في سلال مصالحهم .

* * *

هذا أخ عربي قادم من عاصمة أوروبية ، وراجع إليها . يمر ببيروت ، يثمل مع بعض الأصدقاء ، يعربد مع بعض المسلحين على أشلاء امننا وسلامنـا ، يجد بيـروت مسلية مثل لوحة سوريالية للفوضـى ، وتلذ له رعشات الخطر العابرة وهـو في دربه إلى طائرة العودة .

ومن عاصمته الأوروبية ، يدبج لنا يراعه ملحمة اعجاب بحيـاتنا في بيـروت ، نطلع عليها بعد عودتنا من دفن قتيلنا الأخير . بل ان (الأخ) يكاد يحسدنا على ما نحن فيه ، فاذا كان صادقاً في كلماته ، لماذا لا يتفضل ويعود إلينـا ، ويشاركنـا في محاولتنـا المستميتة لتحويل ما يدور من مذبحة إلى ثورة ؟

أم أنه لم ينظر إلى بيروت نظرته إلى مدينة تضم أطفالاً ومخلوقات سوية ، لها حق الحياة والحرية ، وإنما نظر إليها نظرته إلى سيرك أو كرنفال نادر للرعب ؟

* * *

وهذا أخ آخر يزورنا عابراً ـ للمرة الأولى ـ لكنه يكتب مبـدياً اعجـابه بـالحريـة البيروتية التي تفوق الباريسية ، متمثلة في العربات المتجولة لباعـة الاشرطـة الموسيقيـة والأغاني المسجلة (كاسيت) . وهذه الظاهرة التي أدهشت سائحنا (الخواجا الفكري) هي من الظواهر التي تعاني بيروت منها حقاً ، وإن كان هو سعيداً بها حتى (النيرڤانا) ، ما دامت باريس نفسها لا تضم ظاهرة حرة كهذه ! !

بائع جوال يبيع الصراخ ، وقد ثبت إلى عـربته ميكـروفونـات ومكبرات صـوت وستيريوهات تعوي بكل ما في البطاريات من طاقة على الزعيق . اما نحن الذين نقطن بيروت باستمرار ، فنعرف معنى مأساة اسمها البائع الجوال للأشرطة المسجلة ، والوجوه العديدة لهذه المأساة .

* * *

نبدأ بالوجه (الجمالي الحر) الذي استحوذ على الأخ ، السائح فوق جرحنا .

تصور معي أي رعب أن تقضي يومك المتوتر ، وقد ألصق إلى أذنيك ميكروفون لا تستطيع انتزاعه ، يصرخ باغنيات ما انزل الله بها من سلطان ، مدهشة البشاعة وربما

البذاءة ، والانحطاط في الذوق الفني ، دون أن تقوى على فعل أي شيء غير التخلص من طبلة أذنك !

عن هذا الجانب ، كتب الموسيقار وليد غلمية مرة منتقداً ، ولافتاً إلى هذه الاساءة للذوق ، والاعتداء على الأذن ، وطبعاً ذهبت كلمته صرخة في واد ، ككلمات المبدعين جميعاً ، فوليد غلمية فنان لا يملك غير (السلم الموسيقي) وليست لديه ميليشيا مسلحة تقف على سلم دارته ، فتصير كلمته مسموعة مهما كانت وأياً كانت .

الجانب الآخر للمأساة ، هو الدور الفعال الذي تمارسه هذه العربات في عرقلة السير ، وفي (أحشر) الأوقات ! ولن أنسى ما حييت يوم كنت أشارك في نقل جريح الى المستشفى ، وكان ينزف بغزارة فوق كتفي ، ونحن نحاول عبثاً أن نتجاوز بسيارتنا عربة بائع الأغنيات الجوال الذي يسد الطريق ، ومكبرات الصوت لديه تعوي بأغنية تغطي وجه العالم ومطربها (يشدو) : (مذبوح يا حبيبي مذبوح) . . فهذا النمط من الباعة يبذل جهده لعرقلة السير ، كي يشنف أذنيك بالمزيد لعلك تشتري ! . . ويومها لم يبتعد عن دربنا إلا عندما رميت وجهه بمنديل يقطر بدم صاحبنا (المذبوح) حقاً . .

* * *

والوجه الأعمق لمأساة هذا النمط من الباعة هو الجانب الاجتماعي . إنه من الفقراء الذين أكلت الحرب مورد أرزاقهم ، وانت لا تستطيع أن تمنعه من السعي لإعالة اسرته قبل ان تجد له عملاً بديلاً . وأين تجد العمل البديل ، والوضع الاقتصادي يزداد تدهوراً ، والمصانع تغلق أبوابها ، والفقراء يضطرون لممارسة أي عمل شريف ، أو (التوظف) في أحد (الدكاكين المسلحة) . .

وهكذا فالأخ (الخواجا الفكري) مأخوذ بالظاهرة الجمالية الممتلئة حيوية وحرية المتمثلة في بؤس الباعة وبؤسنا ، لأنه ينظر إلينا نظرة سياحية عابرة ، فهو لا يعيش معنا إلا (نظرياً) ، وبالتالي لا يدقق في خلفيات ظواهر حياتنا ، ولا يلحظ أية مأساة إجتماعية تكمن خلف عربة البؤس والضوضاء المتنقلة تلك . .

* * *

هذا مثال بسيط على تغزل زوارنا بمآسينا ، وما أكثر الأمثلة . والذي فجر حنقي هذا الصباح ، معلقة جديدة للتغزل في أطلال حياتنا دبجها أحدهم مبدياً اعجابه (بنعمة الحرب) ! . . نعم . هكذا حرفياً (وأكثر) . السيد (نيرون) يحسدنا على حريق بيروت الذي يتأمله من البرازيل طبعاً دون أن يكتوي بناره . .

ان التغزل بالفوضى والدمار يكاد يصير مذهباً فنياً ، لكن معظم مريديه يزوروننا (كل سنة مرة) . . لا أكثر .

فالتغزل بمآسي الفوضى قد يكون بدعة فكرية ، لكن معايشتها حفلة تعذيب يومية . . بصورة خاصة اذا لم تكن ثملاً ولا صعلوكاً جوالاً ، وإنما رب أسرة مسؤول عن دزينة من الأطفال الذين تتعرض حياتهم للخطر في كل لحظة دونما مسوِّغ عادل بناء . . وانت ترضى بأن تقدم أولادك للوطن كشهداء ، لا كضحايا للحماقة ! . .

* * *

وهكذا انتقل البعض من مرحلة البكاء على الأطلال ، الى مرحلة التغزل بالاطلال ، وكلاهما اليوم بلا جدوى . . .

المطلوب دراسة الأسباب التي تحول البيوت الى قبور ، وأحلام الثورة إلى كوابيس ، للحيلولة دون التكرار ، والاستمرار في هدر الطاقات .

المطلوب المساهمة في الاصلاح ،لا التسويغ للخراب . فالنظرة السياحية الى عذاباتنا لم تعد تطاق ، كمن يتحسس محموما ثم يقول له متغزلاً : آه كم أنت دافىء ! .

ان التغزل بمآسينا يتضمن في جوهره الكثير من الرياء المكرس لتسويع اخطاء المسؤولين عن بشاعة ما يدور أكثر من سواهم . وحتى (نيرون) نفسه لا يستطيع إلقاء (نظرة جمالية) على السيارات (التفجيرية) . .

والمركيز دي ساد نفسه لن يرقص طرباً على أشلاء ضحايا المذابح الجماعية للانفجارات .

ولو عاش الكونت دراكولا في بيروت ، لعاف الدم ولصار نباتياً لكثرة ما يسيل على الأرصفة منه . .

ولو أقام بيننا فرانكشتاين لانضم الى روبنسن كروزو في جزيرته النائية .

وحده (الدكتور جيكل) و (المستر هايد) سعيد في مدينتنا . . فهو القاتل ليلاً ، وهو على رأس المشيعين صباحاً ! . .

* * *

ان التغزل ببشاعات بيروت لن يقودنا إلا إلى المزيد من هجرة الأدمغة . . والفعاليات . فالناس تعيش واقعها ، لا وصفاً مزيفاً له . والمعلقات السبع نفسها لا تستطيع الدفاع عن الخطايا السبع التي نعايشها هنا كل يوم وليلة . . وليس صحيحاً أن الفقراء يستمتعون بما يدور . إنهم أكثر الناس رفضاً للبشاعة ، والدليل نجده في

تـظاهراتهم اليـومية ضـد حرمـان منـاطقهم من المـاء والكهـربـاء وتحـويلهـا إلى مكب للنفـايات . . وصـرخاتهم الملتـاعة في كـل مناسبـة مطالبـة بالعيش الكـريم والعدالـة والانسانية وإيقاف المذابح . . الذين ثاروا كلهم ، ثاروا للحصول على حقهم في النظافة والجمال والسلامة ، لا من أجل تعميم الضوضاء والفوضى والقتل والسلب والنهب ، والدمار الشامل .

***

جميل هو حب الوطن . جميل هو الشوق إليه ، على ألا يصل ذلك بالمغترب إلى التغزل بالبشاعة عن حسن نية ، أو فلسفتها وإيجاد (ايديولوجية) خاصـة بها عن سـوء نية ، خدمة لأهل السوء ! . . .

واذا كان الأمر هنا يعجب الاخوان المتغزلين الى هذا المدى ، فليتفضلوا وليبقـوا معنا هنا ، كي نعمل جميعاً بشكل بناء لتكريس ما يدور باتجاه الولادة لا الاحتضـار . وذلك لا يكون بالتغاضي عن الاخـطاء ، وإنما بـالنقد الـذاتي الايجابي . . ولا يكـون باجراء عمليات جراحية سطحية للعيوب ، وإنما بفضحها حتى الجذور .

***

نحن الذين لا نزال نقيم هنا (ونفكر بالهجرة كـل ليلة ريثما نتعب ونـنام) ، لا نشعر بالمرارة نحو الذين هاجروا ، ولا بالحسد، ـ وقد ننضم اليهم في أية لحظة ، وقد لا نفعل أبداً ـ، لكننا نشعر بالغضب اذا شرفونا بزيارة عابرة ، ثم حسدونا على أبشع ما في حياتنا ، مكرسين عبقرياتهم الشاعرية لتسويغها لضمائرهم أو . . لأسيادهم ؟

بيروت ١/ ٢/ ١٩٨٢

الغـربـة الثانيـة

أهينوا لِئامكم تُكرَموا.

« محمد مهدي الجواهري »

الطاغية يطحن عبيده ، واولئك بدلاً من الثورة عليه يطحنون الذين تحتهم !

« اميلي برونتي »

المدينة مقبرة الثوار الفدائيين .

« فيدل كاسترو »

افادة شاهدة على المذبحة

حين اشتعلت البيوت بالقنابل كنت هناك .

حين بدأت معركة الابادة كنت هناك .

وها انا ادلي بافادتي امام محكمة التاريخ ، بالرغم من انني صرت واثقة ان القاضي انتحر ، او دخل في الهذيان والضجر ، وهيئة المحلفين تشنق الشهود ، وتطالب باعادة قتل الضحية مرات ، وتمنح الجوائز للقاتل .

اني أدلي بشهادتي امام محكمة الضمير الانساني . اسجلها لتكون بانتظاره ، يوم يولد ، ويكبر ، ويدخل في المدرسة الاعدادية ، ويتعلم مبادىء (فك الحرف) ويتلطف بقراءتها . . ويقرر معنا : هل تقمص هتلر جسد بيغن ؟

ولماذا يبيدون الأطفال الذين لا ذنب لهم غير انهم ولدوا هنا ، والناس الذين جريمتهم انهم وجدوا هنا،والبشر الذين سبق لهم ان طردوهم من (هناك) الى (هنا)؟

***

حين اشتعلت البيوت بالقنابل كنت هناك . بدأت المأساة بعد ظهر يوم الجمعة ٤ حزيران لحظة وصول طفلي من المدرسة . وحيدين كنا في البيت ووالده مسافر . في البداية سمعت صوت انقضاض الطائرات الحربية دونما سابق انذار . . ميزتها فوراً حتى قبل ان تبدأ القصف ، فصوتها يختلف عن اصوات طائرات الـ (ميدل ايست) اللطيفة ، التي آنس اليها كرموز دائمة لصحة لبنان . كأن المطار هو موضع جس النبض في جسد الوطن . . هذه المرة كان صوت الطائرات شبيها بأنفاس الشيطان وهو يسعل على طول الأفق . طفل الجارة أيضاً قد عاد للتو من المدرسة ، وهي تضمه اليها . اذن سيقتلان معاً ، ويا له من حظ عظيم قلما يتوافر للمرء في بيروت ! ان يموت مع من يحب !

اطفال (بقية الجيران) لما يعودوا بعد ، وهم الآن في الطريق . . ماذا تقول لأم

طفل ، لا تعرف بعد هل اشتعل طفلها أم لا ؟ اما زال قطعة واحدة ، ام تناثرت اعضاؤه ؟ . .

منذ اللحظة الأولى حدسنا زمجرة الشر فتجمعنا ، وهربنا اولا الى الممر الضيق الذي يتوسط البيت بالطابق الأول . . واشتعل العالم حولنا بالانفجارات والزلازل . . .

اجل . الزلزال (هي العبارة) . زلزال بركاني مروع من النار والرعب ، وضربات القلب التي تصير تنبض بجنون كطلقة رصاصة خارجة من الداخل . كم أشفقت على نفسي ، وعلى طفلي حين اختبأ داخل جسدي وانطويت عليه كالرحم وجاءني صوته المذعور وهو يطلب مني ببراءة ان أعيده الى بطني . . (انه بعبارة اخرى يتمنى لو لم يولد) . يكاد المرء يشعر بالذنب لأنه (ارتكب) طفلاً في مدينة كهذه ، منذورة كذبيحة وسط شبه اجماع عربي لعله الأول ! . . بعضهم ما زال يتوهم انه يستطيع تقديم نصف لبنان وكل الفلسطينيين كذبيحة لـ (اله الشر) ، ثم يغسل يديه من الأمر ، ويعيش بعدها في (ثبات ونبات) الى الأبد . ولو كان ذلك صحيحا من الوجهة التاريخية او ممكنا من الوجهة العملية ، لاستحق وقفة قصيرة ومعارضة طويلة ، لكن (الشر) لا يطمح في قضم نصف التفاحة اللبنانية والبرتقالة الفلسطينية فحسب ولن يشبع حتى يأكل التمر العربي بأكمله وعلى رأسه ارز لبنان (التوراتي) في شمالها . .

ولعل الفارق الوحيد بيننا وبين معظم بقية العرب من المتفرجين ، هو اننا نقصف الآن ، وسيقصفون فيما بعد .

وكل ما يحدث لنا الآن ، هو (بروفة) لما سيحدث لهم فيما بعد . . لقد صدر الحكم علينا جميعاً بالابادة في برتوكولات حكماء صهيون ، ونحن الآن داخل غرف الغاز ، وبعض المتفرجين من العرب لا يدرون انهم يحدقون فينا عبر نوافذ . . قاعة الانتظار ! ! وغرف الغاز لم تعمر لاجلنا وحدنا . . ولكل دوره !

عشر مرات اغارت الطائرات ذلك الـ (بعد الظهر) . . . ودكت المدينة بالزلزال المروع .

وكلما مضت نكاد نعود الى الحياة ، وكلما عادت نمضي من الضوء الى الذعر . . ومن البحر الى الكهف . .

هل يمكن لمنطق ان يسوِّغ هذه (الابادة الوقائية) ؟

***

٥ حزيران وليل آخر وسبت متوحش واسرائيل تغزو جنوب لبنان وتقصف بيروت . أمر غريب الأطوار : سألت عن صديقتي فوجدتها ذهبت الى البحر وزوجها كأن شيئاً لم يكن . وقررت ان احمل طفلي وألحق بزوجي المسافر ، فهذه المدينة لم تخلق لامرأة وحيدة مليئة بالشكوك في نوايا اسرائيل . عاد القصف .

في الملجأ قضينا ساعات (نداوم) يومياً . نرتجف قافلة من العزل ، ونحضر انفسنا للموت حرقاً وطمراً والبعض يؤكد ان الاسرائيليين يريدون رأس الفلسطينيين فقط ولن يقتربوا من بيروت والاجتياح مقرر حتى صيدا فقط !!

في الملجأ غطينا اطفالنا بالشعارات ، وحشونا آذانهم بالخطب الرنانة المكومة فوق معظم الأراضي العربية ، وحاولنا ان نتذكر الأقوال الحماسية والتهديدية لبعض حكامنا بينما (الترانزيستور) يحمل الينا لغة الواقع : انه الغزو . وسوف نقتل دونما ذنب ، ويجب ان يتم ذلك سريعاً جداً كي لا تسبب صرخاتنا احراجاً لاحد . يجب ان نموت دونما (مقاومة) كي نريح معظم العرب .

في الملجأ حاولنا الخروج من واقع ابادتنا الى الحلم القديم ، ومن الاحساس بمرارة الضحية ، الى الشعور الراضي بالاستشهاد ، لكن ذلك كان يتطلب طاقة هائلة على خداع الذات في ليل التخلي عنا شبه المطبق . . . نعم كنا نموت ذعراً وهلعاً وأسى ، لكن قلوبنا كانت تذوب أسى على الحلم العروبي . اجسادنا الهشة تواجه عناقيد النار المتفجرة ، والزجاج المتطاير ، والابنية المنهارة ، والأوصال المقطعة لاجساد تتناثر فوقنا ، وقد تكون اعضاؤ نا من بعضها ، ونحن نموت خيبة اذ نعي وسط هذه الفوضى النارية كلها اننا وحدنا . . لا مبالاة القريب اشد مضاضة على القلب من وحشية الغريب ، والاستنكار اللفظي لميتاتنا العديدة لا يحرك في نفوسنا غير استنكار الاستنكار ، والتطلع الى زمن (التقشف) في الوعود والكلام ، و (التبذير) في العمل والعطاء .

***

داخل الملجأ طفلي يرتجف كأرنب مذعور ويصر على رغبته بالعودة الى داخل بطني الآمن للاختباء هناك . وانا افكر بمغادرة هذا الجحيم الأرضي ، ولكن كيف ألحق بوالده ؟ وداخل أصوات الانفجارات تركض فوق عيوننا سلسلة الأحداث المحكمة المتلاحقة ، والمروعة . نرى وجوه الأطفال تتطاير . تتمزق . الصراخ . العذاب . الاذلال . القهر . انهم يغتالوننا وطنا بعد آخر .

سنوات ونحن نحذر من ذلك ، ونكتبه ، ونهذي به حتى لم يعد لدينا شيء آخر

نقوله كالمجانين . ويبدو ان البعض لن يصدقنا الا حينما يجلس في الملجأ جلستنا الذليلة هذه . هل ثمة حقاً من يصدق انه يستطيع تقديمنا قرباناً على مذبح اله (الشر) ، مقابل ان يستريح ويعيش بقية حياته في سلام ؟ هل بلغت السذاجة ببعض حكامنا (العذارى سياسياً) الى حد التوهم بان عملية الابادة هذه اطلالة على روزنامة السلام ؟ وان هيكل السلام يجب ان يبنى فوق جماجم اللبنانيين والفلسطينيين ؟ هل يمكن لنبتة تروى بدماء الأبرياء ان تخصب ثمرة السلام ؟

***

قلوبنا على العرب ، وقلوبنا على انفسنا . والقصف يشتد ، والملجأ يضيق بالزحام . تتذكر فجأة انهم يجربون (فيك) اسلحة اميركية حديثة متطورة ، سمعت بها وها انت (تسمعها) . بعض القنابل وزنه ٢٠٠٠ باوند (حوالي ٩٠٠ كيلو) من المتفجرات الحارقة التي تحول البناء كله الى انقاض ونيران . ينتابك فجأة هلع موجع : لا تريد ان تموت تحت البناء الشاهق الذي احتميت به . تقرر فجأة الهرب من الملجأ قبل ان تموت مطموراً بالمبنى كله . . يكفيك حجر واحد شاهدة لقبرك . الاختيار الوحيد المتروك لك الآن هو الموت خنقاً في الملجأ أو حرقاً على الشرفة .

اخترت الشرفة . وكانت الشمس ساطعة الشر ، ورائحة البارود والحرائق تلهب حنجرتي ، والمشاهد امامي طالعة من فيلم حربي شديد العنف والصخب .

لقد عايشت حربين ولم اقتل بعد : الحرب اللبنانية الأولى ، والحرب اللبنانية الثانية التي اطل الآن على بداياتها .

ويالهما من حربين مركبتين . شاهدت فيهما اللبناني يقاتل اللبناني ، وشاهدت لبنانياً يقاتل فلسطينياً ، ولبنانياً يقاتل سورياً ، ولبنانياً يقاتل اسرائيلياً . اسرائيل قادمة الآن في محاولة لابتلاع الجميع !

***

الأحد مساء . هدأ القصف قليلاً وللمرة الأولى منذ يوم الجمعة يرضى طفلي بتناول الطعام . أقرر : سنحاول الرحيل غداً . رغم تأكيد كل من حولي ان اسرائيل لن تقترب من بيروت ، قلبي يحدثني بهول عظيم آت . ذهبَ طفلي الى النوم . عاد القصف ! خرجت إلى الشرفة ! . . وبينما الاسلحة الاميركية الحديثة تصب بركانها على رؤوسنا ، تغادر الشرفة المروعة . في (غرفة الضيوف) تجلس ، فأنت هنا (ضيف)

على الحياة ، وفي زيارة قصيرة جداً ربما تكاد تنتهي . تقلب بعض المجلات العتيقة . . تقرأ ولا تقرأ . . كم يبدو العالم الخارجي نائياً عن احزانك ، لاهياً عن مـوتك . وكم يبدو معظم العالم العربي مشغولاً عن (همك) منذ بدايتـه ، دون ان يلحظ ان موتـك اليوم هو موته الآتي . . . وسقوطك الآن هو (بروفة) لسقوطه المؤجل . .

مـا زلت تقلب صفحات المجـلات العتيقـة هـاربـاً اليهـا من تقليب (دفـاتـرك العتيقة) . هذه مجلة تتحـدث عن (فائض الحنـان) لدى الشعب الاميـركي ، الذي يدفع ببعض افراده الى تبني الدمى من مستشفى (كليفلاند) عندهم . . وللدمى الحبيبة شهـادات ميلاد خـاصة بهـا . . ومستشفى . . واطباء . . وممـرضات . . وحـلاق . . ومرضعة . .

هل هذا معقول واطفال شعبك العربي يقتلون في حرب يدفع تكاليفها الشخص نفسه الذي يعاني من (فائض حنان) ؟ اي سوء تفاهم رهيب بين الشعـوب ، بحيث تجد (الدمى) مستشفى يستقبلها في مكان ما على وجه هذه الكرة الأرضية ، في حين لا يجـد الأطفال في مـوضع آخـر منها سريراً في مستشفى او ممر المستشفى ، بـل وتقصف مستشفياتهم ، فيركضـون على خـطوط العرض والـطول يجرون اعضـاءهم المقطعـة ، وينزفون دماً بريئاً فوق المدارات ،

ولعلهم يقرعون بأيديهم الـدقيقة نـوافذ مستشفيـات الدمى ، فهـل سمع أحـد صوت استغاثتهم هناك ؟؟

بيروت ٦/ ٦/ ١٩٨٢

أين قبطان طائرة الوطن ؟

اعذرونا لاننا نضايقكم بحكايانا غير العذبة، القادمة من أرض النار في لبنان . فأنتم لطفاء ، وعالمكم في معظم الأقطار العربية هادىء ومستقر (أو تتوهمونه كذلك) ، ولا تحبون العنف ، وبعضكم يهوى الأفلام العاطفية الهندية والميلودرامية العربية ، والمراسلة البريئة وجمع الطوابع ، وألبومات صور وحش الشاشة و (هلوبة) المسارح ، والعندليب الأسمر ، و (سندريللا) السينما . .

واعذرونا لاننا هذه المرة ايضاً نجونا من الموت في بيروت ، ولم نطمر احياء في الملجأ . ولم نقتل في القصف المسعور الذي تعرضنا له براً وبحراً وجواً ، ولا نحمل لكم في جعبتنا حكايا لطيفة .

نستطيع أن نحدثكم مثلاً عن امرأة عربية ـ هي جارتي ـ اصابتها الشظية لحظة الولادة في الملجأ ، وخرج طفلها الى الحياة جريحاً ، يصرخ منذ النفس الأول ، وماتت . . ونستطيع ان نحدثكم عن جارنا اللبناني الذي كان يحاول اخراج جريح من تحت ركام الصاروخ الأول حين انفجر الصاروخ الثاني ، وسقط قتيلاً فوق الجريح وقد حماه بجسده ، وظل يحدق فيه بعينين زجاجيتين، والجريح عاجز عن الحركة والهرب من نظرة الموت . . وحين اخرجوه من تحت الانقاض والجثة كان قد فقد عقله . .

ونستطيع ان نحدثكم عن الصبي الجريح وعمره (١١ سنة) الذي كان راكضاً في الشارع ينزف وبين ذراعيه طفل رضيع (ام طفلة ؟) . . وكنا نركض مذعورين مثله فلم يكلم احدنا الآخر . . وغيرها من مشاهداتنا . . ام ان ذلك يكفي ؟

* * *

للمرة الثانية اجدني وسط ساحة حرب حقيقية ، ومعي طفلي . للمرة الثانية اواجه ذلك العذاب الذي طالما عاناه غير كاتب اعزل مثلي : ماذا يفعل حين تقرر البندقية الموقف ويصير القلم عديم الجدوى ؟ـ او يبدو له لحظتها كذلك ـ ماذا يفعل اذا

كانت الكتابة هي الحرفة الوحيدة التي يتقنها ؟ طوفان النار يحيط به ، وهو يعرف كيف يستعمل المحبرة ، لا القنبلة اليدوية !

الحكاية العتيقة ذاتها . تختلط المشاعر . الذعر . الحس بالذنب . الغضب لان احداً لم ينصت الى صفارات انذاره . ظنوه نصب من نفسه عرافاً ، لكن اسوأ كوابيسه تحققت . انه مجروح شخصياً ومقهور وذليل وغاضب وخائف وحاقد !

الاسطوانة العتيقة ذاتها : احصاء (المؤونة) في البيت المعزول ، وكم يوماً تكفي قبل الموت جوعاً اذا لم نمت حرقاً او طمراً . . ثم محاولة التفتيش عن اكثر المخابىء أمناً في وهمنا . .

محاولة الاتصال بالاصدقاء والاحباء لاستحالة التجوال مشياً ، وموت (البانزين) وبالتالي السيارات . . . الهاتف يحتضر . (الترانزستور) اللعين نتنكبه كسلاح فاسد ، وحنجرته لا تحمل الينا غير المزيد من اخبار الرعب . محاولة الاتصال بالزوج لطمأنته الى ان طفله ما زال حياً .

***

كسكان بيروت جميعاً لم اكن واثقة هل نمت تلك الليلة ام لا . ليلة ٦ ـ ٧ حزيران ١٩٨٢ . القصف . القصف المضاد . الظلمة الثقيلة التي تتحول الى حضور مادي جاثم على صدرك حين تنقطع الكهرباء ، ويتدفق الدم من صنابير المياه . . .

تذكرت صديقاً قال لي مرة : سيقتلك حبك للرحيل .

والذي حدث هذه المرة ، هو ان حبي للرحيل انقذ حياة طفلي وحياتي . . فانا دوماً مستعدة للسفر . وسادتي جواز سفري . (تأشيراته) جديدة دوماً ، أحضرها كما يلمع الجندي سلاحه . بطاقة السفر خبزي اليومي ، وحقائبي الريح ، ولست بحاجة إلى أكثر من (بنطلون الجينز) لأطوف الدنيا . . وكنت قد اعددت جواز سفره ايضاً استعداداً للاجازة المدرسية !! ذلك الفجر الدامي فجر الاثنين ٨٢/٦/٧ استيقظت مرتاعة . القصف . نواح سيارات الاسعاف . رائحة البارود والركام والدخان . روتين الموت نفسه ينتظرني كما منذ أعوام . . امسكت بالقلم لأبدأ كتابة « كوابيس العرب » ، فقد سبق أن كتبت « كوابيس بيروت » في حرب سابقة ، وأيام دامية كهذه .

وتذكرت عبارة الصديق : «سيقتلك حبك للرحيل»، وقررت ان (يحييني) هذه المرة حبي للرحيل ، او يقتلني حقاً ، ومرة واحدة ، وبايجاز . .

وقررت الذهاب الى المطار ! رفض التاكسي ذاك مقابل اي ثمن ، وغامر الصديق

الوفي لزوجي بحياته وقاد السيارة بنفسه حين رفض سائقه ذلك مذعوراً .

***

احياناً يصير منتهى الجنون ومنتهى العقل مترادفين . هكذا كان الأمر ذلك اليوم المسعور القصف .

من لا يقتل ، يستطيع الذهاب إلى أي مكان ، فالكل مشغول عنه ، عن موته او حياته ، سقوطه قتيلاً أو نجاته . النادرون الذين استطاعوا ذلك اليوم الوصول إلى مطار بيروت ، بل اللحظات الأخيرة قبل اقفاله النهائي ، يعرفون جيداً ما اعنيه .

درب خاوية الا من المقاتلين أو السيارات المحروقة وسيارات الاسعاف المهرولة . . بطاريات القتال والمدافع منصوبة على طول الدرب الى (خلدة) حيث يقع المطار ، وعيون المقاتلين على الطيارات المغيرة ، او القطع البحرية المعادية . . ونمر نحن وسطها كالذباب الذي تصادف انه لم يقتل بعد . . . ودعت صديق زوجي ع. ن وهرولت راكضة . .

في المطار تتم اجراءات السفر بسرعة . . الكل يدفع بك دفعاً نحو الطائرة ، أو ينظر اليك شارداً دون ان يراك . . والانفجارات المدوية على التلال المحيطة بالمطار تؤكد انه اليوم الأخير للمطار . . وربما لك أيضاً . .

ومع ذلك تجد نفسك داخل الطائرة ، وانت تربط نفسك بـ (حزام الامان) قبل ان يطلب احد منك (ذلك) ، فتكاد تنفجر ضاحكاً من نفسك . . اي امان ؟ ثم تدرك انه الحس بالخطر . . ها هي الانفجارات تحيط بك ، ويطلبون اليك مغادرة الطائرة فوراً !

***

اعذرونا لاننا هذه المرة ايضاً نجونا من الموت رغم الأهوال كلها . . ولم نطمر احياء في الملجأ . . ولم نحترق في القصف على طريق خلدة . . ولم نقتل في المعركة الجوية بينما نحن ننتظر موعد الاقلاع . . ولم يُغمَ علينا حين طلبوا منا مغادرة الطائرة معلنين اغلاق مطار بيروت الدولي . . . ولم نمت دهشة حين طلبوا منا الصعود ثانية الى الطائرة بعد انتهاء الغارة الأولى . . ركاب اليوم الأخير في مطار بيروت لن ينسوا طيلة حياتهم تلك اللحظات الشبيهة بفيلم سينمائي من موجة افلام الكوارث والتشويق . .

للمرة الثانية تحركت الطائرة بنا على مدرج الاقلاع . . وركضت . . وقبل لحظة الاقلاع بثانية واحدة ، عادت تهدىء من سرعتها وتتوقف من جديد . . والمضيفة تطلب

من الجميع مغادرة الطائرة فوراً . غارة جوية جديدة . قصف . ركض مجنون الى السيارات او الى صالة الترانزيت مباشرة . لقد اغلق المطار ثانية !!

لم يختبىء الركاب في الملجأ ، وإنما وقفوا خلف الزجاج الخطر في قاعة الانتظار . وكنا نرقب الانفجارات الرهيبة على طول الأفق امامنا وحولنا وعلى مرمى شهقة منا . .

ولم تدسنا اقدام الهلع حين تزاحمنا حول بائع (السندويش) في صالة الترانزيت خوفاً من الموت جوعاً في حال حصارنا في المطار المهدد بالدمار والشلل النهائي . . ولم نمت فرحاً حين اعلنوا للمرة الثالثة ـ بعد ساعة انتظار ثالثة ـ عن اقلاع الطائرة ! ولم نكن ندري انها كانت الطائرة الاخيرة التي تغادر بيروت بعد الاجتياح الاسرائيلي . ولن أنسى ما حييت صمت طفلي الهادىء المذهول وهو يساعدني في حمل حقيبة أوراقي ويتأمل الموت بعينين طفلتين مذعورتين .

***

اعذرونا لاننا نضايقكم بحكايانا غير (الناعمة) ، خصوصاً واننا لم نبدأ الكتابة عنها بعد . .

لكن ركاب اليوم الاخير لمطار بيروت ـ الذين طاروا والذين اقفل المطار قبل اقلاع طائراتهم ـ لن ينسوا ما عاشوا تلك اللحظات المتوترة رعباً واسى وغضباً وحقداً . . ولن ينسوا ركام الحكايا الانسانية التي كانت تتدفق من كل حنجرة إذا وجد صاحبها صوتاً . . لن انسى ما حييت تلك الشابة الحامل التي تجر طفليها ، وقد جاءت من صيدا في رحلة رعب وعذاب وسط الجبال استغرقت الليل بطوله . . كانت تنتظر (طائرة الكويت) المسائية ، لتعود الى بيتها هناك ، بعد زيارة الى اهلها لم تكن تدري مخاطرها . . ترى ماذا فعلت ، والمطار قد اغلق قبل اقلاع طائرتها ؟ وأين هي الآن ؟ والطفلان ؟

ولن انسى تلك السيدة التي جلست الى جانبي في صالة الترانزيت ترتجف كأنها طالعة من (كانتربري تيلز) وتروي لي ما حدث لها منذ دقائق ، قالت : كنت اجلس بعيداً هناك ، والى جانبي شابة وطفلتها . رجتني الشابة الانتباه الى حقائبها لانها ذاهبة الى الحمام ووافقت طبعاً . ولم تكد تختفي وطفلتها عن انظاري حتى انفجر في داخلي ذلك الهلع المشتعل شكاً ، الذي صار يميز سكان البركان بيروت . ماذا لو كانت حقائبها تحتوي على متفجرة ؟ ماذا لو انفجرت بي الآن ؟ حسناً . كانت تبدو شابة طيبة ، لكن المظاهر خداعة هذه الأيام . ثم ، ماذا لو لم تكن تعلم ان القنبلة مدسوسة في حقيبتها ؟

ليغفر لي الرب ، فقد اوكلت امر حقائبها الى جارتي في الصالة وكانت تبدو مذعورة حتى السهو عن الحذر ، وهـربت الى الجانب الاقصى من المـطار . . دعينا نبتعـد اكثر عن مرمى . . الحقائب . .

ظللت صامتة ولم اجد ما اقوله . حين التفـتُّ اليها كانت قد اختفت ! كالاشباح روت حكايتها واختفت . . ام ان الصوت كان قادماً من داخلي ؟ لم يعد المرء ليميز يومها بين صوته وصوت الآخر . .

* * *

آه كيف لم أمت خجلاً حين ضمتني اخيراً غرفة الفندق وطفلي ، وانهرت منهكة ، وفاجأني بحنانـه وهو يحمل اليَّ كوباً من الماء ويضيفني اياه بكل صمت ويدللني بدلاً من ان ادلله ؟

آه كيف لم نمت هلعاً على احبائنا حين استمعنا الى التلفزيون واكتشفنا ان الطائرة التي اقلعت بنا من بيروت ذلك الـ (بعد الظهر) الجهنمي ، كانت الطائرة الاخيرة التي غادرت مطارها الدولي . . قبل اغلاقه نهائياً ؟

وكيف لم نمت ندماً لاننا لم نفتش عن ذلك المـلاَّح اللبناني الشجاع ، الذي خرج بالطائرة وسط حقل الالغام الجوي ، وقادها بيدين ثابتتين لنشكره ؟

لكننا تمنينا بصمت ، والطائرة تغادر الانفجارات والاجواء اللبنانية ، لو يجد هذا الوطن المذبوح يدين تقودانه الى بر الامان والـوعي ، كاليـدين الحازمتين لـ (كابتن) تلك الطائرة الاخيرة .

جنيف ليل ٧/ ٦/ ١٩٨٢

اللبناني الجميل القتيل !

يقرعون باب غربتك في ٤ شارع تالبرغ بجنيف . تدهش . فأنت هنا غريب الوجه واللسان . . صوت الريح ؟ الغراب ؟ من القادم ؟

تفتح الباب . إنها سيدة بهية المحيا ، تناولك رسالة ، وتختفي بسرعة أكثر من المألوف . حين تقرأ الرسالة يخيل إليك ان زائرتك كان اسمها « القدر » ، وقد جاءت تنبش جرح غربتك باتقان كعادتها .

تقول الرسالة المطبوعة على ورقة خضراء وباللغة الفرنسية : « تخيل لثانية واحدة انك اضطررت الى مغادرة وطنك . من الصعب جداً أن تضع نفسك في مكان (لاجىء) ، وان تتحسس حقاً ما يعنيه أن تكون بلا وطن ولا دار . اللاجئون لا يغادرون أوطانهم راضين ، ولكنهم يفعلون ذلك مرغمين هرباً من الحرب والرعب والمجاعة أو لأنهم حرموا حق إبداء الرأي السياسي أو الديني . . إنهم يغادرون أوطانهم لأن الخوف صار لا يطاق . ساعدونا كي نساعدهم . تبرعوا لأجلهم . واكتبوا عنوانكم بخط واضح . شكراً » !

تقرأ السطور السابقة ، فتتحول حنجرتك - أنت اللاجىء - إلى مغارة مالحة مزروعة بالشوك ، وتغص ، وفي عينيك ما يشبه المطر . وتكاد تركض خلف تلك السيدة الغامضة وتسألها : متى استجوبتك ؟ وكيف سرقت السر من صمتك وكوابيسك ؟ وأين استنطقت أسماك الحنين الخرس التي تسبح داخل شرايينك كنقاط مضيئة ؟

* * *

تعرف انهم لم يطبعوا من تلك الرسالة نسخة واحدة خصيصاً لتعذيبك ! لكنك تكاد تسقط في فخ ذلك الاحساس غير اللطيف الملقب بالألم . شعور متوجع يكاد يستولي عليك ، أنت الذي طالما اتقنت ترويضه تارة وتخديره أخرى .

تعـود بك الـذاكرة الى تلك الشـوارع والشواطىء والـوجوه والأيـام التي خلفت هناك .

تكاد تحن إلى بيتك الأول الذي احترق في الحرب اللبنانية الأولى ، وبيتك الثاني الذي يتابع احتراقه في الحرب الثانية الحالية ، وزمنك الذي ما زال يكمل التهابه مثل نار تركض في غابة .

تكاد تشهق وتصارح ذاتك بأن المرء لا يستطيع ان يخلع عنه وطنه ببساطة كما يخلع ثوباً قديماً لم يعد مريحاً . . . تكاد تستعيد قلبك المقتول اكثر من مرة ، وذاكرتك المسروقة المعبأة في أشرطة مسجلة محفوظة داخل دهاليز بعض (الاجهزة) .

ثم تتذكر اولئك الأحباء الذين دفعوا ثمناً باهظاً لا يقارن به ما دفعت .

تزدحم غرفة الغربة بعشرات الناس الذين قتلوا ـ قبلك ـ من شهداء وضحايا . بعضهم تعرفه ، وبعضهم لم تره من قبل لكنك تعرفه أيضاً . يركضون فوق اصابعـك وعينيك وأوراقك وطاولتك .

عشرات الآلاف الذين التهمتهم نيـران بيروت يـطلعون اليـك من المسافـة بين العـزلة والانتـماء . . بعضهم مات وكـان يعرف لمـاذا . بعضهم الآخر كـان لا يـدري بالضبط كيف تحول إلى ضحية .

تشعر بأنك تريد الهرب من ذلك كله وتنسى ، لكن أشجار النسيان لم تعد تثمر ، والخيار الوحيد الممكن هو الهرب من (سلبية) الحزن إلى (إيجابية) العمل .

اولئك الذين سقطوا جميعاً من الأحباء الذين عرفت ، والذين كنت ستحبهم لو عرفتهم ، يستحقون منك ألا تتركهم يذهبون هدراً ، كأعقـاب سجائـر في (منفضة) الحرب .

***

تستعيد تلك المشاعر كلها في ومضة عين ، وفي ومضة قلب ، حين يناولك صديق كراساً باللغة الفرنسية يحمل عنوان (هولوكوست) . تقلب الصفحات لتـرى عن أي مجزرة يتحدثون .

ترى فيها الموت الذي غادرت . ترى القنبلة التي سقطت في شارع كنت تعبره ولم تقتلك ، وإنما قتلت عشرات من المدنيين سواك .

ترى للمرة الثانية صور الأجساد المقطعة في بيروت ، التي طالما تناثرت أشلاؤ ها فوق وجهك ، وتمنيت لحظتها لو تلطخ بها وجه العالم .

ترى صرختك المخنوقة في الملجأ وقد وجدت حنجرة وصوتاً تخاطب بهما الدنيا بلغة مفهومة .

صور كثيرة تغني عن الكلام . . وكلام من نمط ما قل ودل . . وتواريخ تعرفها وكنت تتمنى لو يعرف العالم شيئاً عنها . . ضحايا عايشتها وخلفتها تنزف تحت تراب الصمت ، وها قد جاء من ينبش النسيان ويستخرج الضحايا من فلسطينيين ولبنانيين ليدور بهم العالم . أطفال احترقوا وجرحوا وعذبوا في ظلمة حرب بيروت ، فجاء من يسلط الضوء على الجرح المختوم بالشمع الأحمر ، ويعريه للعالم أجمع ، وللناس في بلد اسمه سويسرا يخشى أهله على شعور أطفالهم حتى من . . السينما !!

* * *

كراس (هولوكوست) الذي واكب الأحداث ، وصدر بسرعة نادرة ، وقبل أن تجف دماء الضحايا التي ضم صورها هو خطوة إيجابية وضرورية قام بها مكتب الجامعة العربية في جنيف قلب العدالة النابض . وهذه الخطوة تدخل ضمن إطار تحويل الضحية الصامتة الى شاهد له صوت ومنبر عالمي . « يجب إبقاء الضغط مستمراً ، وجعل أجراس الجريمة لا تكف عن الرنين في أسماع العالم . . نحن نتحدث عن حقيقة ، ويجب ان نكررها ونصورها ونطرحها في كل محفل ، ونلصقها على كل جدار بعدد من مات بهذه القنابل » . هذه الصرخة التي أطلقها الاستاذ أحمد بهاء الدين تجسد ضرورة وطنية ، وأمنية شخصية : رغبة الشهيد في أن يكون شاهداً أيضاً ، لأن الشهيد هو الشاهد الأول في محكمة الزمن الرديء ، حيث يصر القاتل على الجلوس في مقاعد القضاة !

* * *

تلحظ أن تبدلاً ولو طفيفاً بدأ يأخذ دربه إلى الرأي العام العالمي . تشعر بأن الأيدي المقطعة لعشرات آلاف الضحايا في لبنان استطاعت أن تثقب جدار اللامبالاة أو الجهل لدى الآخرين . وان درجة الوعي بما يدور تبدلت بالمعنى الكمي والكيفي .

بدأ يصير واضحاً أن الاسرائيلي لم يحتل حقاً صحراء كان أهلها يعيشون خارج الحضارة والصحو وداخل خيام اللاوعي .

وان العرب ليسوا حقاً فصيلة إبادتها (واجب إنساني) . الأكاذيب كلها التي ضللت بها الدعاوة الصهيونية الغرب طويلاً بدأت تنقشع عن عيون الناس ، والدم

الفلسطيني واللبناني الغزير الذي تدفق هناك ، بدأ يبلل الضمائر والمعاطف الواقية من المطر هنا .

كأن الحقيقة رسالة تسطرها الضحية الصامتة ، وينقلها الاعلام الواعي .

ويشعر المرء أنه ما زال قادراً على أن يفعل شيئاً بمعنى ما حتى في منفاه . . كأن لا يموت قبل أن يدلي بشهادته كاملة على المجازر كلها التي يتعرض لها شعبه العربي في أكثر من مكان . . وعلى القنابل العنقودية التي يمطرون بها عمره وذاكرته وأوراقه وجدرانه واحباءه . .

* * *

وحينما يدلي الضمير بشهادته ، فانه لا يملك إلا أن يسجل للشعب اللبناني مشاركته الكبيرة في كسر طوق الصمت عن حقيقة مأساة الشعب الفلسطيني . فاسرائيل حينما قتلت المدنيين اللبنانيين العزل ، قامت باعادة تمثيل الجريمة الأولى التي سبقت ومارستها منذ حوالي أربعين سنة ضد الفلسطينيين . . وقامت بتكرار عمليات القتل والتهجير وقد شهرت سكين القوة الغاصبة نفسها ، والمنطق الدموي ذاته . ذلك الشعب اللبناني النبيل دفع (ضريبة العروبة) من حياته ورزقه وأمنه ووطنه الذي كان يحسد على مرقد عنزة فيه ، وبقي ان يدفعها بعض العرب الذين سبق لهم ان سنوا بأنفسهم قانون (ضريبة العروبة) ولم يفوها حقها بعد في بعض الأقطار .

* * *

صبر المدنيين العزل من اللبنانيين وتضحياتهم ، كانت بالتحالف مع الدم الفلسطيني رأس الحربة التي ثقبت جدار اللامبالاة العالمي أو جدار الصمت والعزلة والنسيان لدى الشعوب الأخرى . . تضحيات الشعب اللبناني يجب ألا تنسى ، وألا يبخسها الفن حقها ولا الشعر ولا الرواية العربية . . اللبناني الجميل القتيل ، من يخلده أيضاً ؟

جنيف ٢٦/٧/١٩٨٢

لماذا ما كل ما يعلم لا يقال ؟

ما أتعس المواطن العربي الذي أسعده الحظ بالنجاة من جحيم القصف البيروتي ، وتيسرت له سبل الهرب في غفلة من الدهر ، او بمعونة منه ! سيفرح في اليوم الأول فقط . سيتذكر القنابل التي اشتعلت بالدنيا حوله ولم تقتله ، والطائرات الاسرائيلية التي حامت فوقه ورمت عناقيد الغضب المتفجرة ولم تبده . سيتذكر الابنية التي كانت تنهار على جانبي درب السلامة دون ان تطمره . سيتحسس يديه وقدميه ، ويحصي اصابعه مدهوشاً فرحاً : كيف استطاع ان ينجو بها من ذلك الهول كله ؟

في اليوم التالي ستذبل فرحة النجاة ، وسيتلفت المرء حوله ليتساءل : أين أنا ؟ وماذا افعل هنا ؟

في اليوم الثالث سيجد الجواب : أيها الأحمق ، انت في الغربة . ولن يعرف السلام دربه الى قلبك بعد الآن . ولن تحلق عصافير البهجة فوق رأسك . ولن يرتسم قوس قزح في عينيك . كأن المرء لا يصلح للحياة والموت الا بين افراد قومه وعلى أرضه .

***

تغادر الخطر ، فتدخل في الخواء والانتظار . آه ماذا تفعل بذلك الوقت الطويل كله الذي يتدفق من الزمن الضيق ؟ انك ببساطة لا تملك لأمرك شيئاً حقاً ، وها انت مقيد الى مواعيد نشرات الأخبار في التلفاز والمذياع وتقضي ما تبقى من الوقت في قراءة الصحف بحثاً عن خبر هارب . تلك المدينة التي غادرتها لم تغادرك . وبيروت التي لم تعد تسكنها ما تزال تسكنك .

فبيروت ليست فقط مخاوفك على الأهل والاصحاب الذين خلفت هناك ، لكنها ايضاً رمز لصراع عمرك ، وشاشة ترتسم عليها بوضوح مواقف العرب من عروبتهم .

بيروت ليست فقط بيتك ومكتبك واوراقك وجنى عمرك ، وألفتك ومناخ حريتك

وشطآن فكرك . . . لكنها ايضاً مرآة تعكس صورة غير مبهجة في هذا الزمن الرديء . ففي اتونها انصهرت الأقنعة الشمعية لبعض الوجوه ، وتبدت بوضوح معالم الاسترخاء او اللامبالاة او الخيانة والتخلي . . كما تجلت خطوط النبل العربي والحس بالمسؤولية العروبية امام كارثة مصيرية في وجوه نادرة .

في جحيم بيروت ، ذاب متحف الشمع العربي الرسمي . وصار بوسع كل مواطن ان يحدق قليلاً ويفهم كثيراً ، وهو امر غير مبهج بوجه عام ، لكن الساحة لا تخلو من العرب الصادقين الابرار النادرين ، وهم نقطة ضوء كالمنارة في ليلنا الخطر . . آه صارت احزاننا بحراً ، فأين وزير البحر ؟

* * *

انه شهرك الأول في الغربة الثانية ، وها أنت تحفظ مواعيد نشرات الأخبار ، وتلاحقها مهرولاً بين التلفاز والمذياع .

تغضب مثلاً لأن الـ (بي . بي . سي) تبدأ نشرتها العالمية للـ (وورلد سرفيس) في السابعة مساء بتوقيت المكان الذي تصادف انك فيه ، وبعدها بدقائق عشر يبدأ التلفزيون الفرنسي على القناة الثالثة (فرانس تروا) اذاعة نشرته . واذا تأخر المذيع الأول قليلاً في نقل اخبار لبنان ، فإنك ستجد نفسك بعد دقائق ، وعينك على التلفاز ، واذنك على المذياع وقلبك في بيروت لا يزال يتجول بين الخرائب ، ويرفع ركام البيوت عن الأجساد ، ويمسح التراب عن الوجوه ليميز فيها بعض ملامح الأهل والاحباب .

في البداية ستنصت للأخبار باللغات الاجنبية التي تتقنها (الفرنسية والانكليزية كما هي حالي) ، وبعدها ستنصت لها باللغات الباقية التي تفهمها قليلاً كالألمانية والايطالية مستعيناً بالصور التلفزيونية وربما التخاطر ، وسيدهشك انك ستفهم كل ما يقال حين يتحدثون عن وطنك .

وهكذا ستجد نفسك اسير تلك العلبة المضيئة الملونة ، تتابع اخبار القناة التلفزيونية السويسرية الفرنسية (السويس روماند) بالاضافة الى السويسرية الايطالية والألمانية ، الى جانب القنوات الفرنسية الثلاث (تي اف ١ ـ انتين ٢ ـ فرانس ٣) ، الى جانب المذياع والـ (بي . بي . سي) البريطانية ، وكل محطة اخرى تطالها يدك او (ابرتك) !

واي عذاب ستعانيه مع ذلك كله .

امام التلفاز ستحدق في صور الشوارع المحترقة ، وتحاول ان تميز المكان وسكانه من صحبك،وقبل ان تتعرف الى البيوت والابنية ستتبدل الصورة. ستلحق بها الى قناة اخرى وحسرة خائبة تستولي على قلبك . ستنكب على الصور التلفزيونية البخيلة السريعة الاختفاء ، مثل مفتش بوليس في سكوتلنديارد يحاول اكتشاف ساحة الجريمة وتحديدها ، عبر صورة زئبقية اثيرية مراوغة .

تحدق الى صورة جريح ، وحين تكاد تتأكد من هويته واسمه وتناديه ، تتبدل الصورة وتخلفك على تخوم الحيرة واليقين .

الأوروبيون يولون القضية اللبنانية حقها نسبياً في وسائل اعلامهم . وهم ـ غالباً ـ يفتتحون بها نشرات اخبارهم . لكن صاحب الحاجة لجوج . واذا تصادف مرة ان تحدثوا عن همومهم المحلية او افراحهم فإنك تثور وتغضب وتتعذب .

انك تفهم جيداً ان هذا وطنهم وتلفزيونهم وعالمهم ، وحياتهم المستقلة عن حياتك ، ولكن ما اشد عذابات المتفرج العربي مع مشاغلهم البعيدة عن نبع احزانه .

وكم تتألم حينما تجلس امام التلفزيون متلهفاً ، ويتدفقون هم بأخبار العطلة الصيفية ، ويستفيضون في شرح محاسن النظارات الشمسية وضرورتها للاجازة وانواعها وكيف تختارها . . وانت قد اخترت لبنان وتنتظر اخباره !

وتتميز غيظاً حين يبشرونك بأن الحيتان لن تتعرض للصيد بعد الآن ثم يقدمون فيلماً وثائقياً عنها بمناسبة (تحريرها) ، او يحدثونك عن افعى استوائية ولدت للمرة الأولى وخلفت (فرخاً) وهي في اسرها بحديقة الحيوانات ، او يروون لك حكاية سرقة الماسة ذات الـ ٤٥ قيراطاً ، وملايين الدولارات ثمناً ، وحكاية (ضيف الفجر) في القصر الملكي ، ثم يستفيضون في الحديث عن معرض للفراشات المحنطة ، ومعرض للدمى ، او دودة التفاح التي تحبه اسوة بآدم ، ووسائل مكافحتها ، او حفل انتخابات اجمل وردة ، او عرض ازياء الخريف القادم (ترى الثياب كلها ملطخة بالدم) ، او يقدمون لك تحقيقاً مطولاً عن السابحين العراة ـ كما ولدتهم امهاتهم ـ في مدينة ميونيخ ، ورأي الطبيب النفساني ورئيس البلدية (المنفتح) والجيران والسياح . أو يعرضون عليك لعبة الكلمات المتقاطعة الشهرية ، وطولها عدة امتار (دون مبالغة) .

وانت تنصت الى ذلك كله ، متلهفاً على اخبار العرب في جبهات قتالهم . . . وعلى اخبار بلدك . .

وآه من يوم الأحد، يوم عطلتهم الاسبوعية، حين يرتـاحون من نشـرات الاخبار ظهراً ، ولا يذكرون بلدك احياناً ولو بكلمة مسائية واحدة ! انهم يتحدثون عن اعيـاد الزهور ، ومدنهم ، ومبارياتهم الرياضية ، وابطالهم المحليين ، ويريحون عيونهم وعيون مشاهديهم من مناظر جثثك ، واهوالك ، ومستشفياتك المقصوفة ، ودموع اطفالك ، ووجوه بني قومك المقددة تحت شمس الاحزان عاماً بعد عام .

آه من يوم الأحد مع التلفزيـون الفرنسي والسـويسري اذا كنت غـريباً . . ومـا اسعدك بهما لو كنت مواطناً فرنسياً او سويسرياً !

* * *

ويمكن القول ان اعلامهم التلفزيوني ـ بوجه عام ـ محايـد ، او منحاز الى عـدالة مأساتنا ، متعاطف مع مذبحة المدنيين في لبنان ، مستنكـر لحصار بيـروت على طـريقة العصور الوسطى .

وبعض مذيعيهم لا يبدو سعيداً حين يحاور سفير اسرائيل ، وترتسم على وجهـه امارات عدم الاقتناع بتبريرات السفير للمذبحة ، وحججه الهشة ، او حين يحاور الياهو بـن أليسار . وهم يفسحون المجال لضيوف لبنانيين من الفئات كافة للادلاء بشهاداتهم حول مـأساة وطنهم ، كما شاهدنـا أيـضاً غـير مـرة ممثلين فـلسطينيين مستضـافين فـي النشرات الاخبارية لابداء وجهة نظر شعبهم فيما يدور .

وهم يعرضون الاشرطة الوثائقية ايضاً ، التي تسجل التظاهرات اليهودية المعادية لممارسات النظام الاسرائيلي اسوة بالمؤيدة له ، وقد نقلوا للمتفرج مقاطـع عديـدة من شهادة فيليب بوتر حول الحرب النفسية الرهيبة التي تشنهـا اسرائيـل على اهـل بيروت لتدفع بهم الى الجنون (كالغارات الوهمية والمناشير) ، واخرى لضابط فرنسي متقـاعد سبق له ان رفض حرب الجزائر كما رفض الضابط الاسرائيلي ايلي جيفا مذبحة بيروت ، وسواها من الشهادات المشابهـة المضادة . . . وغيـرها من التحقيقـات التلفزيـونية التي تهدف الى الكشف عن الحقيقة دونما مسايرة لأحد او خوف . . وهذا كل ما يطمح اليه عذابنا .

* * *

بالرغم من ذلك كله ، ثمة لحظات تمتلىء فيهـا حنقاً عـلى الاعلام الغـربي حين ينساك ويتذكر نفسه . انه غضب طفولي عابر . . . لكنك تمتلىء غضباً جاداً حين تجد ان اهتمام بعض وسائل الاعلام العربية بما يدور هو دون اهتمام الغرب .

والتقصير ليس في (حرارة اللهجة) فحسب ، بل في (محدودية) التغطية الاعلامية الفاترة او اللامبالية ، التي تستقي مصادرها من مراسلين اجانب يغامرون بحياتهم في بيروت من أجل نقل الحقيقة ، ويقتلون احياناً (كما قتل المصور الفرنسي لقناة تي . اف ۱) ، في حين يندر ذهاب محرر عربي الى بيروت خصيصاً للتغطية الاعلامية . . لماذا ؟ هل هو اليأس ؟ ام الضجر ؟ اللامبالاة ؟ الشماتة ؟ الخوف من مصير مشابه ؟ ام ان السبب الاساسي الذي نتكتم عليه جميعاً هو الافتقار الى حرية الفكر في بعض اقطارنا ، بحيث يعرف الصحافي انه سيغامر بحياته لمعرفة حقيقة لن يجرؤ على كتابتها كاملة والا غامر بحياته مرة ثانية !

هل السبب (قمعي) ، ومن باب « ما كل ما يعلم يقال » ولماذا ما كل ما يعلم لا يقال ؟ لا اقصد الدفاع عن الصحافي العربي ، ولكن الصحافي الغربي لن يجد من يقتله اذا اعلن الحقيقة كما شاهدها ، عكس ما قد يحدث لمعظم الصحافيين العرب . . . ترى هل الافتقار الى حرية القول في بعض الاقطار يجعل الكاتب العربي يحجم عن التورط متلبساً بقول الحق ، اذ ما جدوى الرحيل الى الحقيقة ما دمنا نعرف سلفاً ما هو مطلوب منا قوله ؟؟ وما جدوى المغامرة من اجل كلمات لن يجرؤ احد على نشرها بعد قتلنا كي لا (يلحقوه) بنا ؟ . . هل هذا هو السبب الاساسي لذبولنا الاعلامي ؟ آه صارت تساؤلاتنا جبلاً من شارات الاستفهام واحزاننا تملأ بحراً . . فأين وزير البحر ؟

جنيف ٢/ ٨ / ١٩٨٢

مرشحي الأوحد : الحرية

في الغربة ، تصير العين انتقائية ، وتتأجج مشاعر الحسد الوطني والغيرة القومية ، وتلتهب غريزة المقارنة .

وكل حاضر يذكرك بغائب . وكل رفاهية هنا تذكرك بفقر هناك . كل استرخاء هنا يذكرك بتوتر هناك . كل حركة تصير ذات مدلول بعيد حاد الايقاع .

تجلس أمامك في القطار سيدة ليس فيها ما يلفت النظر غير الكتاب الذي تطالعه . تكف عن التحديق المسترخي إلى الأشجار والبحيرات ، وتحدق إلى غلاف كتابها متوتراً . إنه يتحدث عن أصول تربية القطط . تفكر بألم : كم يجب ان تكون حياة هذه السيدة مستقرة ومسترخية لتقرأ كتاباً كهذا وتحسن تربية قطتها ! حسناً . وماذا في ذلك ؟ ليست جريمة ان تحب القطط . بلى ، انها لجريمة أن نهتم بحياة القط ولا نبالي بموت الانسان . بعد ان تحاكمها ، تحاكم نفسك : إنك تغار منها . هذا كل شيء . تغار من كل انسان بسيط يعيش حياة هادئة بعيدة عن العنف والتعقيد ، وتريد أن تزج به في عالمك المتأجج بالعذاب والدراما . تؤكد لنفسك : ليس من حق انسان ان ينعم بالخدر ، ويحيا انسان آخر في الخطر والحذر على الكوكب نفسه . ليس من حق أحد أن يزرع الزنبق بدلاً من القمح ما دام ثمة مخلوقات جائعة على وجه هذا الكوكب . ها أنت تتذرع بالانسانية لتغطي غيرتك من إمرأة تقرأ بشهية كتاباً عن القطط ، لا عن الحرب العالمية الثالثة او الحرب في الشرق الأوسط .

آه لقد اختلطت المشاعر . . وهنا أنت تغادر القطار بعد أن تعطيها كتابك ، وهو كراس عن المذبحة اللبنانية الأخيرة ، ويضم صور أبناء قومك الذين أحرقتهم القنابل الاميركية والاسرائيلية (هولوكوست) ، وشوهتهم كوجه قطة دهستها سيارة عرس مسرعة على ضفاف بحيرة ليمان . تناولها الكراس ، وتهبط من القطار ، ولا تعرف اسم المحطة ! تفعل ذلك ، ولا تشعر بالذنب . . ولا بالرضى !

***

تغار من القطط والازهار والكلاب والشوارع النظيفة والواجهات المترفة والاطفال السعداء .

وتغار من الروح الديمقراطية ومناخ الحرية الذي يحيط بك من كل جانب . . تغار من (النزعة الانتخابية) المتجلية في كل ما حولك ، حتى في اختيار برامج التلفزيون ! . . وأنت اللبناني الشريد المحروم من حق الانتخابات الديمقراطية منذ عشرة أعوام ، ولا تدري حتام تدوم بك الحال هكذا .

ريغان سقط في الانتخابات السويسرية ، وربح جان ماريه أصوات المتفرجين . فقد رشح تلفزيونهم ثلاثة أفلام للمعركة ، أحدها من بطولة ريغان ، والتصويت يتم عبر الهاتف ، وكل صوت اضافي يضيء مصباحاً على الشاشة الصغيرة . وظل مصباح ريغان خافتاً ، بينما اتقدت في صدرك مصابيح الشوق إلى الديمقراطية وزمان الانتخابات ، وحاجتك إلى ان تدلي بصوتك في قضايا مصيرية تعنيك أكثر بكثير من مجرد اختيار فيلم السهرة . لكن لبنانك يمضي الى حيث لا تدري ، فهل يأتي يوم تمارس فيه غريزتك الانتخابية ، وتتجه الى أحد صناديق الاقتراع في بيروت ؟ اذا حدث ذلك ، سأكتب على ورقتي البيضاء اسم مرشحي الأوحد : الحرية .

***

تقرأ رواية ايليا قازان الأخيرة (ذي أناتوليان ـ منشورات كنوبف) عن الغربة ، ومشاعر الغرباء الذين يظلون كذلك مهما طال أمد (استيطانهم) لبلدان بعيدة عن مسقط رأسهم وقلبهم . . تحسه يتحدث عنك . يعذبك ، ويضطهدك شخصياً !

***

تغيظك الحرب العالمية الرياضية ! إنها تلهي الناس عن أعماقهم ، وعن حربك ! إنها تعزلهم عن همهم . . وهمك !

في البداية كنت معجباً بالاهتمام الجميل للغرب بالرياضة ، كفعالية صحية إيجابية مدهشة . ثم بدأت تلحظ المبالغة في الظاهرة . مبالغة الحاكم في تشجيعها ، ووسائل الاعلام في تحويلها إلى وباء سار كالرشح كاد يستولي عليك وتصيبك عدواه . . وكدت تتشاجر ورفيق المقهى وانتما ترقبان مباراة في التلفزيون ، وقد انحزت للفريق الايطالي ، وانحاز هو للألماني .

بعد فترة من معايشة حروبهم الرياضية المتواصلة ، تشعر انها بمثابة (نشافة) هائلة تغطي القارة ، وتمتص فعاليات الشباب وعدوانيتهم وغريزتهم القتالية واهتماماتهم

وتوجهها نحو سيقان اللاعبين ، حيث تنومهم الكرة مغناطيسياً .

وتنتهي الحرب العالمية الكروية من أجل كأس العالم ، ولا تكف النشافة عن الامتصاص . القيمون على الرياضة يخترعون حرباً جديدة كل يوم ، وتعود العيون لترقب السيقان بدلاً من المذابح . هذه كأس أوروبا لسباق الدراجات ، وتلك لقفز المسافات ، وهذه حرب الاساطيل المائية في سباق القوارب ، وتلك حرب الجو في سباق الطائرات الشراعية . حروب العصور الوسطى رائجة أيضاً ، حيث يخرج اللاعبون حاملين سيوفهم وهم يلهثون خلف كأس (السلاح الأبيض) ، وغيرها من كؤوس التنس والسباحة ، ويثملون بالكأس تلو الأخرى ، وينسون كل شيء عن همومهم . . وهمومنا .

* * *

كأن (الحرب العالمية الرياضية) صمام أمان ضد الحرب العالمية الوحشية ، لكنها في الوقت ذاته أداة امتصاص لإمكانية اهتمام الشبان بشجون اخرى .

يعلو من أعماقك صوت : إنك تشعر بالغيرة لأنك لا تعيش في وطن آمن معافى ، يتاح لأبنائه حمل مضارب التنس بدلاً من الكلاشنكوف ! . .

إنك تريد أن تزج بالدنيا كلها في بيروت ، تسقط عتبك على بعض العرب فوق رأس ملاعب الغرب . تريد أن تنقل الفريق الايطالي من برشلونة إلى المدينة الرياضية في بيروت ليقاتل معك . تريد ان يمترس (بورغ) و (ماكنرو) على خطوط التماس عندك ، وتجعل من (روسي) و (زيكو) و (سوقراط) فريقاً حربياً يقاتل في شاتيلا أو رأس بيروت ! لقد جعلتك الغربة تفقد (روحك الرياضية) ، بعد ان كدت تفقد (روحك) هناك ! . . تكاد الابتسامة تصير ذكرى ، وتنهيدة الراحة تصير طموحاً ! . .

* * *

تلحظ أنك تمعن في قياس عمق جرحك حتى لتنكأه . تحاول التحديق بأشياء مشرقة حولك . تقر بأن بعض الغربيين يبدي اهتماماً بقضيتك أكثر مما يفعل عدد كبير من العرب اللاهين عن الخطر .

السيدة آنيت ليمان تكاد تكون النموذج المشرف لهذا النمط من الغربيين الكثر المنحازين للعدالة (فهل يدوم انحيازهم ، ام تراه غمامة صيف ؟) .

العرب المقيمون في سويسرا يتحدثون عنها باعجاب ، فهي تجسد ظاهرة تتكامل وتتكاثر مؤخراً .

سياسي عربي كبير التقيت به هنا ، قال لي انه كاد يكتب إليها رسالة شكر لـولا ضيق الوقت ومواعيد الطائرات . من هي آنيت ليمان ، وماذا فعلت ؟

انها واحـدة من أفضل مـذيعي نشرة الأخبـار في سـويسـرا (تلفـزيـون سـويس رومان) . استضافت وزير خارجية إسرائيل اسحق شامير ليلة مروره بجنيف وهـو في طريقه إلى نيويورك ، وظهر معها على الشاشة في إحدى نشرات الاخبار التي تعدها .

ليلتها قالت له ما يجب ان يقال ، وطرحت عليه أسئلة بدهية أحرجتـه ، (يكاد المريب يقول خذوني) ، وأصرت على السؤال بصوت هادىء يقطر ثقة بالنفس وبعدالة الحجة . تهرب منها ، وأحرجته فأخرجته ، وكان رفضها لمذبحة المدنيين في بيروت يجسد رفض الرأي العام لممارسات إسرائيل .

فبيروت الغربية هي مقبرة التعاطف مع إسرائيل (قارىء في مجلة « التايم » عدد ٣٢) ، و « الولايات المتحدة تذرف دموع التماسيح على بيروت » كما كتب جان كلود بوفل مراسل (تريبيون دي جنيف ـ عدد ١٨٠) في نيويورك .

آنيت ليمان ، الانسانة ذات الحس العميق بالعدالة ليست وحيدة في مجال إنصاف العرب بعد طول تضليل .

فالمذيع الفرنسي (في فرانس ٣) ذكر ان بيغن احتفل بعيد ميلاده وكانت حلوى الميلاد على هيئة (دبابة) ! وقالها باستنكار مشمئز كزميله المذيع السويسري ، وكانا قد فرغا للتو من عرض صور الأطفال الذين احرقتهم قذائف دبابات بيغن .

وصرنا نسمع تعابير مثل (هولوكوست : الدمار الكلي) و (اكسودس : الخروج تهجيراً) وغيرها في معرض وصف ما يفعله الاسرائيليون بالعرب ، بعدما كانت هـذه التعابير مكرسة للشفقة على بني إسرائيل ومحتكرة من قبل كتابهم لوصف مـا فعله هتلر وفرعون بهم ، وهو ما (يطبقونه) اليوم على البشر في لبنان .

ثمة لحظات تشعر فيها ان بعض الغربيين المحايدين يفهمون مأسـاتك أكـثر من بعض محترفي التنظير من العرب .

فالغرباء يكتفون ـ على الأقل ـ باطلاق أحكام عامة صائبـة تنم عن حس انساني متطور . وبعض محترفي التنظير العرب يتحدثون (في العمق) عن بيروت التي لا يعرفون غير (سطح) بعض الشعارات فيها ، ويحاولون بالتالي (تفصيل) الجماهير على قياس النظريات الجاهزة .

لكن مرحلة التنظير من بعيد سقطت مع بيروت التي لا يعي تناقضاتهـا الحقيقية

الجدلية إلا من عايشها باهتمام راصد للحقيقة ، لا عبر قنوات شعارات كشفت الممارسة (أو عدمها !) خواءها . كتابات كهذه تبدو ممجوجة لقلب التصق بجرح بيروت المتعدد الايقاعات منذ الرصاصة الأولى . ويبدو ان المرحلة صارت تتطلب كتابات اكثر تطوراً وصدقاً مع الذات والآخرين . . فهل يتسع قلب بعض الزعماء والحكام للغة جديدة ؟ وهل نجرؤ ؟

جنيف ٨/ ٨/ ١٩٨٢

هل من حرية خارج وعاء الوطن ؟

في الغربة ، تتحول كل حرية الى غصة . . كأنـه لا مذاق للحـرية خـارج وعاء الوطن .

وهذا الصيف البائس ، التقيت عدداً كبيراً من احبائي العرب المشردين في مختلف انحاء العالم .

معظمهم هاجر من بعض الاقطار العربية من اجل الحرية .

معظمهم استيقظ ذات صباح ، ليكتشف ان عليه ان يختار بين الحرية والوطن . اي بين الغربة والقمع . ويا له من خيار (أحلاهما مر) !

وذات يوم بائس ، ذات اضطهاد شرس يتخذ قرار الخيار : الحرية .

ولكن ، يـا لغصات الغـربة التي يتجـرعها المـرء وهو يلتهم الحـرية عـلى موائـد الآخرين .

كأنه لا طعم للحرية خارج مائدة الوطن .

***

ها أنت غريب في بلد متحضر ، تقطن بيتاً ، ثم تكتشف بعدها بأسابيع ان جارك هو (مركز البوليس) الذي قد يكون احد اسباب هجرتك عن الوطن ذات يوم .

تدهش . كيف لم تلحظ ذلك من قبل ؟ انت والبوليس (جيران) ؟ يا للهول ! ولكن ، لا هول هنا . لا اصوات نواح اشخاص يضربون او يعذبـون . لا اعتقالات فجرية ولا مداهمات ظهرية ولا غزوات ليلية . لا نساء يبكين امام المدخـل ، ويسألن بحـرقة عن الـزوج المختفي والاولاد . كل شيء نـاصـع وهـادىء ، وابـواب المكـان مشرعة ، والجدران من زجاج شبه شفاف ، ويبدو من الخارج كالمرايا . وهذا (الجار) الذي كنت تظنه (فندقاً) هو أحد مراكز البوليس . الذين يدخلون اليه يغادرونه غالباً ، وليسوا بحالة هستيرية ولا قمعية ولا تعذيبية .

تغص امام هذا المظهر الجميل للحرية ، اذ تتذكر ما تعنيه مراكز البوليس المعروفة

و (المستورة) في بعض الاقطار العربية .

تقاوم رغبة حادة في الدخول الى (جيرانك) ، ومصافحتهم فرداً فرداً وشكرهم لأنهم يقومون بواجبهم الانساني المعلن فقط ، دون التورط في ممارسات سرية (كهفية) وحشية المناخات والأقبية . . وأمام الباب تقرأ ملصقهم : انهم يطلبون من الشعب التصويت مع (مشروع البوليس) لا ضده . نعم . التصويت لمنحه المزيد من حرية الحركة اذا سمحت . . واذا كانت النتيجة « لا » ، فلن ينال البوليس حق ذلك .

انت لن تكتب ورقة اقتراع رغم شوقك الى ذلك ، لأنك غريب على مائدة الحرية . . . تتأمل ، وتتعذب !

* * *

تفكر في الحصول على هاتف ، تأنس عبره بأصوات احبائك البعيدين ، ثم (تستبعد) امكانية ذلك ، فأنت هنا بلا سند ولا (وساطة) تعينك وتزكيك امام اصحاب النفوذ المحليين .

تتذكر كم قاسيت من اهوال يوم حاولت الحصول على هاتف في الوطن . في البداية ، تصرفت كمواطن (سوي) ذهبت الى (الدائرة) اياها ، وعبأت (القسيمة) طالباً هاتفاً ، متعهداً بدفع النفقات التي ينص عليها القانون . ونام (الطلب) في سلة مهملات الموظف اكثر من عام ، وكلما مررت به وسألته عنه بذل ، تثاءب في وجهك ونام ، حتى تبدل الموظف بعد احالته على التقاعد ومرور عامين على (الاستمارة) التاريخية .

الموظف الجديد طلب منك تعبئة (قسيمة) جديدة ، وفعلت . وصرت كلما (راجعته) بعدها يتثاءب في وجهك دون ان يغفو . بل انه كان يمنحك بعض الوعود من وقت الى آخر . . ومر عام آخر ، ولاحظت ان جارك (القبضاي) حصل على ثلاثة خطوط هاتفية دفعة واحدة .

كيف ؟ والموظف يقسم لك سنوياً ان (الكابل) مكتمل ، ولا توجد خطوط هاتفية جديدة ؟ وتسأل بحرقة وتحتج ، فيطردك الموظف بعد ان يتثاءب .

وأخيراً يأتي من يهمس في اذنك انك احمق ، فتتأكد مخاوفك ، ويدلك على الطريق الوعرة غير الحلال ، فتركض فيها .

الرشاوى . الاحتيال على القانون . كذبة هنا . لعبة هناك . (توقيع) من هنا . (تغاضٍ) من هناك . ويدخل الهاتف الى البيت خلال اسبوع ، وقد كلفك مهر

عروس . و (يقبضون) ، و (تكرم يا استاذ) .

تتذكر ان بعض الدول العربية فرضت عقوبة الاعدام على الـراشي والمرتشي ، فتجد انهم لم يبالغوا ضد الذين ينحرون العدالة الاجتماعية ، ويغتالون حقوق الآخرين عن سابق تصور وتصميم .

وتتذكر أيضاً انك في بلد غريب لا تعرف (مفاتيحه) ، ولا تملك الثمن الباهظ للعبة اياها .

وفي المقهى ، تشكو لرفيق غربة معتق همك ، فيضحك منك طويلاً . .

ما تشكو منه في بعض اقطارنا لا يعرفونه هنا . يرافقك الى مركز البريد . تكتب (الاستمارة) ، ودون ان تذهب الى الموظف المختص او تقبل يده ، تودعها البريـد . فالمفترض ان الانسان هنا مواطن يعمل ، ولا يجوز ان يضيع وقته هدراً في ملاحقة ابسط حقوقه . ها انت تبعث بطلبك بوساطة البريد ، وبدون طابع . . يصلك الرد بعدهـا بأيام ، مرفقاً بكراس يوضح حقوقك وواجباتك . ترسل للدائرة المختصة الرسم المادي المتواضع الذي يحدده القانون للجميع ، وصباح اليوم التالي يوقظك رنين الهاتف داخل بيتك . . . هكذا ، دونمـا اذلال ، ودون ان تركـع امام مـوظف او تصفعه او يغـريك برشوته ، او تفعلها وتندم !

وبدلاً من ان تفرح امام هذه المعاملة الانسانيـة في الغربـة . . تحزن ، لأنـك لم تتجرعها من كأس الوطن .

***

وتفكر في لقاء صحبك الغرباء في بلد آخر . كـأن تقرر مثـلاً مغادرة جنيف الى باريس لتفقد أحباب الهجرة من الاصحاب القدامى .

تدهشك التسهيلات التي ينعم بها الناس هنا . وصحيح انه لا يدور اي حديث عن (الوحدة) بين سويسرا وفرنسا ، ولا عن تصور امكانية وحدة في المستقبل البعيد ، ولا عن انتمائهما الى امة واحدة ، ولكن رعاياهما يسعدون بتسهيلات كبيرة في السفر ، اين منهما تنقل الرعايا العرب بـين بعض اقطارهم (الشقيقـة) ، وعذابهم عـلى ابواب السفارات وابواب المطارات ، وأسوار الحدود الحديدية في أقطار تدعي انه لا حدود بين قطر عربي وآخر .

واذا كنت مثـلي قد ادمنت القهـر ، وصرت متـأكداً من انـك مذنب منـذ لحظة ولادتك ، وعليك ان تقضي بقية حياتك في اثبات براءتك من ذنـوب سريـة تجهلها ،

فسيكون سلوكك مضحكاً مثلي في المحطة الخاصة بالسفر بين البلدين . ستقرأ مثلاً على باب غرفة مغلقة عبارة : « جمارك للتصريح عما معك » . وبالرغم من انك لا تحمل معك شيئاً غير غربتك ، لكنك تدخل الى الغرفة وانت ترتجف ، وتطاردك ذكرياتك مع بعض سلطات الحدود العربية هنا وهناك .

تفاجأ بأن الغرفة خالية تماماً الا من جهاز تلفزيوني وكاميرا . تقف امام الكاميرا . تضغط الزر كما تقول لك التعليمات الخطية . تضيء الشاشة فجأة ، ويطل عبرها موظف يسألك : بماذا تريد أن تصرح ؟ تقول له العبارة التقليدية : أقسم لك أنني لا أحمل شيئاً .

يجيبك الموظف بدهشة : ولماذا استدعيتني اذن ؟ هيا تابع طريقك .

وتمضي في طريقك دون ان تمتد يد لتقليب جيوبك وجفنيك ، وتفتيش ثيابك وجسدك ودماغك ، ونبش امتعة ذاكرتك ، وارشيف صحبك في غرفة الاستجواب .

اذن هكذا يعيش الناس هنا ؟

وتحزن لأنك لا تريد ان تعيش هنا ، ولكنك تريد ان تعيش مثلهم هناك في وطنك .

***

وحين ترتدي المدينة ظلامها ، تهيم على وجهك في الشوارع بعدما كدت تنسى المشي في الليل . لقد مرت بك عدة أعوام وأنت لا تجرؤ على مغادرة (كهفك) بعد الغروب في غابة الوطن ، خوفاً من ذئب خرج ليصطاد انساناً مثلك قلع انيابه ، وقص مخالبه ، واحترف الكتابة !

انه ليل الناس السعداء هنا في جنيف .

ليل الحرية المسؤولة والطمأنينة . ليل الذين لا يداهم نومهم ظالم . ليل الذين لا تحار امام شهقات ضحكهم الجذل : اهذه قهقهة ام بكاء ؟

تسير غريباً بينهم ، بينما تكون روحك ما تزال تتابع سيرها في دروب مدينتك العتيقة ، تقرع أبواب الاصحاب ، وتطل على وجوههم اللامنسية عبر النوافذ . . ولا تدري لماذا تجد نفسك تتذكر أصدقاء الطفولة . شيء ما في ذاكرتك يزيح تابوت النسيان ، وتطلع اليك تلك الاسماء غضة وطفلة الوجوه كما عرفتها يوم فارقتها . . . ثم تضيء الدنيا فجأة ، فتلحظ ان القمر الأوروبي اطل بفجور صيفي فاحش البهاء . . لكنه طلع على قرميد بناء غريب عنك ، هندسته لم تألفها عيناك على طول عهدهما

بالأزقة الغريبة في مدن نائية . . هذه الهندسة (القوطية) لم تتفتح ذاكرتـك عليها منـذ صغرك كالقباب مثلاً ، والقمر فوق قرميد غريب يبدو كوكباً آخر غير القمر ، كوكباً تراه للمرة الأولى فتزداد وحشة .

كأنه لا مذاق للقمر ايضاً خارج مدار الوطن .

وتعزي نفسك : ها انا حر هنا .

ولكنك تعي انها حرية عابرة هلامية هشة موقتة سطحية . حرية ان تتعذب على هواك ، وتشتاق ، وتغار ، وتحسد ، وتحلم مكسوراً ، وتنفجر كتابة ملتاعة .

وتكرر لنفسك : لكنني حر هنا .

ومن اعماقك يأتيك صوتك القـديم : نعم انت حر هنـا . . حر حتى العبـودية للغربة . . .

آه ، ألا يمكن ان نمتلك الحرية والوطن معاً ؟

جنيف ٤/ ١٠/ ١٩٨٢

عند العرب : السكوت سكين من ذهب

ثمة مواضع يكون الصمت فيها مرادفاً للقتل . فالصمت عن الحق قتل .
الصمت عن اعلان الحقيقة او التقصير في ابلاغها للناس قتل .
السكوت من ذهب ؟
السكوت سكين من ذهب أحياناً !
مدهش ما يمكن للصمت أن يفعله على صعيد دفن الحقيقة ، وختم الذاكرة الجماعية بالشمع الأحمر .
يقتل أحدهم صديقك أمام عينيك .
اذا لم تقل شيئاً عن حقيقة ما حدث ، لن يعرف أحد قاتله . كأن الصمت هو القتل الثاني للقتيل .

***

أحدثكم اليوم عن الأديبة العربية الكبيرة سميرة عزام التي ماتت مرتين .
قتلها (تخاذل العرب) في المرة الأولى ، وذبحها (العرب) في المرة الثانية بسكين الصمت الذهبية .

لماذا الآن ؟ لا أدري بالضبط . ربما لأن خمسة عشر عاماً قد انقضت منذ موتها الأول ، أي بلغة (الأصول) ، بمناسبة مرور خمسة عشر عاماً على وفاتها ، وهي التي سقطت في أوائل شهر آب ١٩٦٧ .

وربما لأن زمننا هو زمن القتل بالصمت والاهمال ، والضحية سميرة عزام نموذج لمهارة بعض العرب في ممارسة هذا النوع من القتل . فقد ذبحت إسرائيل نصف لبنان ، وأعاد تكرار عملية الذبح بعض العرب بسكين اللامبالاة ، والاحتجاج الفاتر ، والتستر الضجر المكلل بالشعارات .

وخرجت المظاهرات ضد المذبحة الاسرائيلية في شوارع لندن وباريس وجنيف

ونيويورك وحتى في تل ابيب ، ولم تخرج الجماهير العربية في معظم عواصمها لتصرخ في وجه بعض الانظمة : لا . .

ثمة فصاحة زئبقية على صعيد تصريحات بعض المسؤولين ، يقابلها ما يشبه الصمت على صعيد معظم الجماهير العربية (خارج الأرض المحتلة !) . .

لماذا ؟

هل نجحت بعض الأنظمة في تدجين الشعب العربي ، وتخويفه ،

أو في الدفع به إلى اليأس الصامت في كل مجال ، من السياسة الى الأدب ؟

هذا السكوت اللعين حين تكون الشهادة ضرورة ، والثرثرة اللعينة حين يكون الصمت حاجة ملحة . . هذا الخلط الفاسق في الأدوار يجعل المرء شديد الحساسية إزاء كل قتل بسكين الصمت . .

وسميرة عزام الفلسطينية العربية تمثل نموذج الموت المعاصر للحقائق ، داخل تابوت السكوت الفاتر .

***

يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ . . كان ما كان .

ويوم ٨ آب ٦٧ ، انفجر قلب الاديبة الفلسطينية الشابة سميرة عزام ، وكانت في الطريق من بيروت الى عمان ، ودفنت في بيروت يوم ١٠ آب . لم يتمكن قلبها من التعايش مع الهزيمة أكثر من شهرين ، انفجر بعدهما في لحظة رؤيا مروعة ، كأنها أبصرت ما ستكون عليه الحال بعد ١٥ سنة ، في حزيران ١٩٨٢ ، فقررت الاكتفاء بما شهدته حتى ذلك الحين من تعذيب شعبها وتشريده ، وحقيقة تخلي معظم الانظمة عنه ، وعن العروبة والنضال والكفاح وبقية ألفاظ « معجم الكليشيهات » السياسية .

١٥ سنة انقضت منذ الموت الأول لسميرة عزام ، تكرس خلالها موتها الثاني إهمالاً ونسياناً ولا مبالاة .

وحين أحدثكم عنها الآن ، أشعر ان كلماتي موقف من الصمت عن الحقيقة ، ومن بعض صرخة « لا » في وجه السكوت المسدل على الوقائع في كل مجال .

***

اتساءل أحياناً : لماذا انزلقت الاديبة سميرة عزام إلى النسيان ؟

ترى هل تكمن مشكلتها في إجماع الكل على جودتها ؟ لقد كانت سميرة عزام الأديبة الأولى بلا منازع . النقاد كلهم يحترمونها . الأصحاب كلهم يحبونها . القراء

يقبلون على كتبها . ناشروها يجلونها .

ترى هل كان هذا الاجماع الخطوة الأولى نحو النسيان ؟ إذ لم يحدث يوماً ان هاجمها ناقد ليدافع عنها (آخر) ، أو رفضها قارىء ليتحمس لها زميله ويحدث جدل . ومع موتها تحول (الاجماع) الى بحيرة هادئة ولكن راكدة . ومع الأيام بدأ الاصدقاء يموتون واحداً بعد الآخر (كمال ناصر - غسان كنفاني - د . خليل حاوي مثلاً) ، وزملاء العمل القدامى يغرقون في أعمالهم وهمومهم العامة (د . احسان عباس - د . محمد يوسف نجم - مروان الجابري مثلاً) ، والأصدقاء يواجهون المزيد من المشاغل (شفيق الحوت - بيان نويهض - ناهدة فضلي الدجاني - ديزي الأمير - صبيحة فارس - الياس سحاب - وأنا - وسوانا لا يحصى) . . وكتب سميرة عزام كادت تتلاشى من المكتبات . . والصحافيون الذين (حاصروا) زوجها في السنوات الأولى لمصرعها ، وحصلوا على أعمالها غير المنشورة فنشروا بعضها وأضاعوا البعض الآخر ، نسوها في غمرة الأحداث المتلاحقة أو اللامبالاة المبطنة بالجهل . . وأسرتها تتأمل ذلك كله بحزن لا يخلو من الدهشة : أليس هنالك من يجمع أعمالها الأدبية ؟ من يخلد ذكراها أسوة بغيرها من المبدعين الفلسطينيين والعرب ؟ وهل صار الخلود الفني عندنا قضية عائلية ؟

***

لقد كانت سميرة عزام واحدة من اساتذة كتاب القصة العرب ، وعلى يديها تتلمذ غسان كنفاني وأنا وسوانا . . والنقاد العرب يجمعون على تفردها وعظمتها الادبية . ورأي الناقد اللبناني عفيف فراج الذي ثبته في كتابه « الحرية في أدب المرأة » يكاد يمثل نظرة النقد الادبي العربي إليها ، حيث يقول : « تشق الكاتبة الفلسطينية سميرة عزام بمجموعاتها القصصية الأربع (الساعة والانسان - العيد من النافذة الغربية - أشياء صغيرة - وقصص اخرى) ، تشق مجرى واقعياً واسعاً ، عميقاً وصافياً . . إن سميرة عزام تطل بقامة الانسان العملاق الذي ينغرس في الأرض ويمتص شجونها وعذاباتها ، ليطرحها فناً فيه رائحة الأيام المبللة بعرق الكدح ، ووساوس الليالي القلقة على الغد . . إنها الانسان وليست الانثى ، هي الشمول الانساني وليست الضمور الأنثوي . . قصة « خبز الفداء » من مجموعة وقصص اخرى تجسد النموذج النسائي النضالي . . وهي من أروع القصص التي يرتقي فيها المناضل الفلسطيني درب الجلجلة » .

***

عظمة تلك الاديبة لم تكن تقتصر على أعمالها ، وإنما كانت تتجلى في حياتها ، وسلوكها الشخصي النادر في مناخنا الادبي . ممتلئة بالحب والود والدفء كانت ، وأذكر انني مرة أبديت أمامها اعجابي بالشاعرة فدوى طوقان وكنت قد قرأت ديوانها « وحدي مع الأيام » فذكرتها سميرة بأعذب الكلام ، ونذرت ان تعرفني إليها حين أرافقها لزيارة . . فلسطين ! . .

لم تذكر مخلوقاً أو صديقة إلا بالخير ، وكانت تمد يدها إلى المواهب الناشئة ، ولا أنسى كم شجعتني مقالة نقدية تحدثت فيها باقتضاب عن كتابي الأول ، ـ قبل ان أعرفها ـ وكم افرحتني وملأتني اعتزازاً . لقد كانت كلمة منها تعني الشيء الكثير للناس . . ولي .

***

طالما راودتني فكرة الكتابة عنها قبل الآن ولم أفعل . طالما قررت الاتصال بزوجها الاستاذ أديب الحسن وشقيقيها سهام وسهيل عزام لاعادة طباعة كتبها وجمع أعمالها ، ولم افعل .

تمنيت ان يأتي تكريم سميرة عزام كمبادرة رسمية عربية على الصعيد العام . تمنيت ان يتم ذلك مع تكريم الشاعر الحبيب أبو سلمى مثلاً وسواه من الادباء والمفكرين الذين اغنوا الحياة الفكرية والثقافية والكفاحية أمثال محمد عزة دروزة ومصطفى مراد الدباغ واسحاق موسى الحسيني وغيرهم . .

ولم أكتب خوفاً من ان اتهم بـ (الشوفينية) والتحيزلسميرة عزام إنطلاقاً من مصادفة بيولوجية نجم عنها وجود تاء تأنيث مشتركة في اسمينا ! . .

لكن الايام تمر . . وسميرة تكاد تنزلق الى هوة النسيان ، وسطورها تكاد تروح في الضياع .

فهل في الذاكرة العربية موضع لمبدعة عربية منسية ؟؟

جنيف ١٢/ ٧/ ١٩٨٢

أبجدية الصمود العربي

الشاعر يستطيع ان يكون مزوراً كبيراً من نمط لا يطاله القانون . فهو لا يزور مثلاً نقود المدينة ، لكنه قد يزور المدينة بأكملها .

وهذا ما حدث لمدينة بيروت مع الشعر العربي .

فقد قام عدد كبير من الشعراء بعملية تزوير كبيرة لمدينة بيروت ، ذهب ضحيتها بعض الرأي العام العربي .

وإذا راجعنا دفاتر الشعر في السنوات العشر الأخيرة ، نجد معظم الشعراء يتحدثون عن بيروت الغانية الأنثى المشتهاة ، وبيروت الوجودية اللامبالية الطالعة من كهوف الغنج والاستهتار ، وبيروت العاهرة المرفوضة ، او السبية الضحية ، وغير ذلك .

بعضهم يكيل المديح لـ (جمالها) وسحرها الخاص الانثوي المذاق ، والبعض الآخر يكيل الشتائم لرخصها في التعامل مع الغريب كالمستهترات القذرات .

النظرتان تجمعان على امر واحد : بيروت (مدللة) مسلوبة الارادة ، يغلب على طبعها الضعف والاستسلام ، هشة ، وغير جادة ، وتحت مستوى المسؤولية .

* * *

ها هو وجه بيروت يطلع الينا عبر عواصف الأحداث ، نقياً مجرحاً . . وجه مقاتلة أو مقاتل صمد امام الحصار والنار وعشرة آلاف قذيفة ليلية ، ولم يركع تحت اسلاك الكهرباء المقطوعة ، ولم يصرخ هلعاً امام صنابير المياه الجافة لتعطيشه .

لقد احتضنت بيروت الفلسطيني المشرد ، ومنحته قلب الأب وذراع الأخ . . . وكانت العاصمة العربية - ربما الأولى - التي كسرت اسطورة اسرائيل العسكرية مواجهة ، ومع بيروت اضطر العدو الى دخول اطول حرب له مع العرب وهو امر لا يحبه لأن (طول النفس) الحربي يكشف نقاط ضعف دولته الصهيونية .

لقد دفعت بيروت ضريبة العروبة عملياً لا لفظياً ، بيتاً بيتاً (من البيوت غير الشعرية) ، ونافذة نافذة ، وطفلاً طفلاً . . كانت بيروت النعجة السوداء في القطيع ، فأثبتت انها من اكثر حماة القطيع شراسة وصموداً . .

***

لماذا اساء معظم الشعراء العرب فهم بيروت ؟

ربما لأنهم لم يدخلوا يوماً الى قاع المدينة . كانوا يتحركون في الجزء (السياحي) منها ، وهو جانب حلو الصورة ، بهي المعشر ، براق الطلعة ناعم الملمس . لكن بيروت ليست كلها (شارع الحمراء) و (ملاهي الزيتونة) . . شارع الديكورات والغرباء وملاهي الاقلية المعربدة .

بعيداً عن ذلك كله ، ثمة بيروت البسطاء واهل النخوة والشهامة من الطيبين الذين يدينون بالولاء لقناعاتهم . . ولم يترددوا لحظة طلب اليهم بذل المال والأرواح .

بيروت ، لم يعد من الممكن نسيانها كمدينة مقاتلة ، عكس ما كان شائعاً عنها . .

فقد كان بعض العرب ينظر اليها بازدراء من يحدق الى انثى رخيصة .

واثبتت بيروت ان لا علاقة بين طول الشاربين ، والقتال .

***

. . . وكانت بيروت مدينة تقبل بشهية على الحياة والحب والضحك . . فخدعوا بمظهرها ، ونسوا ان من لا يعرف كيف يحيا ، لا يعرف كيف يموت او يحارب .

. . . وكانت بيروت مدينة الحرية .

ولأن معظم العرب غريب عن (الحرية) ، ظنوا حريتها انفلاتاً وتهتكاً وبعداً عن المسؤولية . .

ولولا حب بيروت للحياة ، لما كانت لها هذه الطاقة على مواجهة الموت ، والتجدد باستمرار ، والخروج من تحت الانقاض لمتابعة الحياة . . والحرب !

بيروت التي طالما سمعت بعض العرب يتحدثون عنها بسخرية ، استطاعت ان تكسر للمرة الأولى اسطورة اسرائيل ، (التي لا تقهر) ، وعرتها امام بقية العرب كدولة هشة من الداخل وعرتها امام الرأي العام العالمي كقوة عدوانية يقوم وجودها على الاغتصاب دونما وجه حق ، وعلى تغطية اعلامية ماهرة مخادعة اسقطها صمود بيروت

في وجـه الحصار والقصف والتخـويف ، والحرب النفسيـة بالتجـويـع و (التعـطيش) والمناشير .

***

بعيداً عن بعض الشعراء الذين فاتهم فهم النبض الحقيقي لبيروت ، وبعيداً عن جمهورهم المضلل ، وبعيداً عن السياح الذين عاملوا بيروت كغـانية ، وتـوهموا رحـابة صـدرها ضعفـاً ، وقدرتهـا المدهشـة عـلى احتـواء البشـر رخصـاً ، وتسـامحهـا اقـراراً بالسقوط . . بعيداً عن تلك الرؤ يا الخاطئة لمدينة بطلة ، تتجلى القدرة المدهشة للشعب اللبناني على الاستمرارية .

من يصدق ان العمل لم يكن يتوقف في بيروت الا خلال ساعات القصف ، وجمع الجرحى ودفن الموتى ، ليستمر بعد ذلك ؟ من يصدق ان البنوك لم تتوقف عن العمل إلا في مواعيد الغارات ، والمطابع ظلت تكدح ، والصحف ظلت تصدر ، والحوانيت ظلت تستقبل ، والاشجار ظلت تثمر ، والنساء تابعن الانجاب حتى خلال احتضارهن بعد الاصابة بشظية ؟

***

. . . . ومن يصدق ان بيروت شربت ماء البحر في الحصار ؟ سأروي لكم كيف كنا نتدبر امرنا ، وقد عشت تجربة الحصار في بيروت ذات يوم . . كنا نلجأ الى ماء البحر الذي يتسرب الى آبار قريبة من الشاطىء ، بعضها اكثر حلاوة من الآخر .

اصحاب الآبار يحولونها الى وقف مشاع . نحمل الآنية ونقف في صف طويل ، نتقاسم الماء ، ولا نسرف ولا نتشاجر كثيراً .

في البيت نقسم الماء حسب مصادره .

ماء الآبار الأكثر حلاوة يكرس للشرب . ماء الآبار نصف المالحة يكرس للأعمال المنزلية والاستحمام .

تـريدون معـرفة كيف كنـا نسخن المياه (في ظـل) قطع مصـادر الطاقـة عنـا ، كالكهرباء والمازوت والغاز ؟

كنا نسخن المياه لاستحمام الاطفال والشيوخ بطريقة بدائية اخترعناها بأنفسنا . . والحاجة ام الاختراع ووالده الشرعي ايضاً .

كنا نعبىء الماء في الزجاجات البلاستيكية الفارغة للمياه المعدنية المحلية ، امثال (صحة) و (نعص) ، المتبقية لدينا من ايـام (العز) ، ثم نضعهـا تحت شمس تموز

اللهاب ظهراً ، ونرفعها وقت الغروب ، واذا بها حارة بفضل الطاقة الشمسية المتوافرة اكثر من اللازم .

وكنا نختار زجاجات (نعص) للحصول على ماء اكثر سخونة ، لأن البلاستيك الذي صنعت منه اغمق لوناً بقليل من زجاجات (صحة) ، وهو بالتالي يمتص المزيد من حرارة الشمس .

* * *

لن اروي لكم أبجدية الحصار والصمود كلها . . وكيف كنا مثلاً نتحايل للحصول على تيار كهربائي يضيء مصباحاً ، باستعمال محرك دراجة نارية قديمة نضعه على الشرفة . . وكيف كنا نواجه حرب التجويع باكتشاف اعشاب شهية مغمورة نلتهمها كما شربت هولندا حساء ازهار التوليب يوم جاعت في الحرب . .

لن اروي المزيد ، فكل مدينة عربية تواجه الحصار ، لا بد وان يكتشف اهلها ابجدية الصمود العربية ، وهي لغة طالما اتقنها اجدادنا .

كل ما سأقوله هو ان الشعراء الذين طالما فاتهم فهم مدلول حرية بيروت واحتضانها للجميع ، مدعوون اليوم الى التحديق الى بيروت المقاتلة الشرسة المحاصرة . . التي قامت بدور لن ينساه التاريخ في قضايا العرب والانسانية ، اسوة بأخواتها من بعض عواصم العرب الأخرى التي لا تزال تمارس عملياً ابجدية الصمود .

جنيف ١٥/ ٧/ ١٩٨٢

ومن النسيان ما قتل

من يخاف من ويليام شكسبير ؟

كثيرون فيما يبدو يخافون شاعرهم العظيم ، فالزمان يمر ، واللغة الانكليزية تتطور ، وشكسبير قابع فوق جبل مجده ، والأيام تندف ثلجها الصقيعي حاجزاً من العزلة بينه وبين الجيل الجديد . .

ماذا فعل كهنة محراب شكسبير ؟

انهم لم يطردوا الجيل الجديد من ملكوت التراث .

ولم يعلنوا حرمانهم من جنة الماضي العظيم ، لمجرد انهم يعزفون عن زيارة شكسبير بسبب وعورة الدرب اللغوية اليه . لقد قرروا ببساطة : إذا كان (الشبيبة) يرفضون الذهاب الى التراث ، فليذهب التراث اليهم . وإذا كانوا لا يحبون الأوراق الصفر الجافة انسجاماً منهم مع روح العصر ذات الأوراق الملونة ، فانهم سيخرجون شكسبير من أوراقه المقددة ليدخل بنفسه الى مجلاتهم الملونة .

إذا كانوا يرفضون زيارة شكسبير العظيم في قلعته النائية الوعرة ، فان شكسبير سيزورهم في (عقر دارهم) . . في حانة الديسكو والقطار والطائرة والسيارة (المكشوفة) . . . وسيجدونه في انتظارهم داخل مناخاتهم العصرية ، التي يحاول البعض تجاهلها ، مصرين بعناد على ادخال أولادهم في القوالب التي سبق وقطنوها ، وأساليب الحياة التي كانوا قد عاشوها . .

***

لكن منطق الواقع يرفض التكرار ، ويقبل باستمرارية التجربة شرط تناميها من جيل الى آخر .

الجيل الجديد يحب قراءة القصص المصورة ؟ حسناً . شكسبير لن يلعنهم لأنهم يفضلون (تفاهات) القصص المصورة (فوتورومان) ورغوتها ، على أعماله التي تقطر شعراً وحكمة وسبراً لغور النفس البشرية .

كـل ما سيفعله هـو أنه سيـدخـل شخصياً الى عـالم الـ (فـوتـورومـان) ودنيـا الـ (كوميكس) ، ليكون بانتظارهم هناك .

وهذا ما حدث مؤخراً .

فقد صدرت مسرحية شكسبير الشهيرة « ماكبث » على هيئة (مجلة مصورة) من تلك التي يهواها أبناء هذا الجيل . . .

البريطانية « آن تووت » رهنت بيت أسرتها لتنفيذ فكرتها الجريئة بعد أن رفضت (الخطة) احدى دور النشر الأميركية . رسام الكاريكاتور البريطاني (فون) ، البرازيلي الأصل شاركها في خلق الفكرة ، وتنفيذها ، وساهم في اخراج شكسبير من ثياب القرن السادس عشر ، والزي (الاليزابيثي) ، وفصل له ثياباً جديدة عـلى (الموضـة) . . .

والمعروف أن مسرحية « ماكبث » تزخر بالجثث والعنف والقتل (الشهي) ، مما يتلاءم ومزاج الجيل الجديد . . وفيها من الهول ما ينافس معظم الأفلام العصرية والمسلسلات التلفزيونية ذات العنف المجاني و« العنف للعنف » ، لا العنف الشكسبيري الحكيم ، البعيد الأغوار ، العظيم الدلالة .

وفي استطلاع لصحيفة الـ (هيرالد تريبيون) ، ابدى غيرُ فتى سـروره لهـذه (النقلة العصرية) ، لأنها ستقرب منهم شكسبير وتجعل فهمه ممكناً .

ولكن ماذا حدث على صعيد كهنة محراب التراث البريطاني ؟

لقد كان موقفهم يقطر حكمة ، وفهماً لطبيعة الجيل الجديد خاصة ، وسنة الحياة وتطور المناخات عامة ، اذ رحبوا بالفكرة على لسان السيد بيتر هارلوك ، الناطق باسم فرقة شكسبير الملكية ، حـين اعلن : « ذلك سيسـاعد الشبـان على الـدخول الى عـالم شكسبير ، ونحن نرحب بذلك » .

* * *

حافظت « آن تووت » على النص الأصلي لشكسبير (الفـوليو الأولى) كـما صدر منذ قرون عام ١٦٢٣ ، ولم تقدم أي تنازل على صعيد اللغة (كالاختصار والتبسيط) ، مقـابـل تقـديم (رشـوة) كبيـرة للشبيبـة العصـريـة هي صيغـة القصص المصـورة والـ (كوميكس) المحببة ، ورسوم (فون) المخضبة بالدماء ، المزدحمة بأكوام الجثث ، المطرزة بالغابات المحترقة الراكضة في ليل الحصار الغـامض ، والعيون المسكـونة رعبـاً وحيرة انسانية . . والكوابيس تتدفق منها بدل الدمع . . والأيدي الملطخة بالدم الذي لا تكفي بحـار العالم لغسـل آثاره . . والعنف الـوحشي الصـارخ . . تلك (لـلأسف)

مداخل الى نفس معظم فتيان العصرالذين تربوا على التلفزيون الفاسد في أكثر البلاد ، وسواء قبلناها أو رفضناها فهي الأمر الواقع .

وهكذا ، وبدلاً من ادانة الجيل الجديد في « محكمة التراث » فاننا نحاول ادخال حب التراث الى قلبه ، فنحوله من (مراهق متهم) الى (شاهد) ، و (قاض) . . فالانسان عدو ما يجهل ، وذلك ينسحب على التراث بوجه خاص ، لأنه يدخل الى المجالس في حلة غير عصرية ، ويتحدث بلغة نصف مألوفة ، فيبدو للوهلة الأولى غريباً عن الحضور ، ويميلون الى بغضه لأنه مدعوم غالباً بارهاب بعض السلطات الاجتماعية القمعية التي تؤيد (كبت) صدق الفتيان في ابداء ردود الفعل دونما زيف . . وتزداد غربتهم عن (التراث) كلما رفضوا الانصات اليه . . وتتعمق الهوة .

« آن تووت » قررت أن يخلع التراث ثوبه التقليدي العتيق ودخوله المحنط الى المجالس ، ليرتدي (الجينز) ويمشي راقصاً ملوناً ، مقابل أن ينصت (الشبيبة) الى صوته ، لأنهم اذا انصتوا اليه مرة حقاً ، فلن يطيقوا عنه بعداً .

***

ما أحوجنا في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا الى (استيحاء) هذا الأسلوب المرن في (فتح شهية) الجيل الجديد على التراث .

انني لا أقصد ضرورة تقليد (الأسلوب الانكليزي) في هذا المجال تقليداً حرفياً ببغائياً ، لكنني ألح على ضرورة التعامل وتراثنا بمنظار عصري ، وعلى أهمية تقريبه من جيلنا الجديد دونما أساليب (ارهابية) ، والا فقدناه ، وفقدناهم .

لا أتحدث هنا عن الجيل الناشىء من الأدباء ، فمن البديهي أن الاطلاع على تراث الأجداد هو من مبادىء حرفة الكتابة ، والخطوة الأولى الصحية التي يجب أن تسبق كل تجاوز بناء . وقد سبق وتحدثنا طويلاً عن غربلة التراث وانتقاء ما يصلح منه للبقاء والحياة والاستمرارية ، وإهمال ما تبقى دون شفاعة سحر الماضي . . .

أتحدث الآن عن شيء آخر هو ضرورة « عصرنة التراث » ليكون في متناول الانسان العربي بوجه عام . فنحن نمر بزلزال تاريخي مروع ، والقوى المعادية كلها تبذل جهودها لتفكيك الشخصية العربية من الداخل ، وخلخلة جذورها تمهيداً لسحب الأرض الصلبة من تحت أقدامها . .

ومن هذا المنطلق تبدو العودة الى التراث موقفاً ضد التهجين والتزوير وغسيل الدماغ والتهجير القومي . . لكن معظم كهنة التراث العربي يصرون على احاطته

بالغموض والسرية والتقعر ، والتقديس الأعمى (بالرغم من أن بعض نصوصه لا تخلو من هذر اباحي بغيض) ، ويتفننون في اختيار النماذج غير العصرية ، أو الحكايا التي تعافها الأذن الواعية والمرهفة ، والأدمغة الرافضة لفكرة القبول المسبق أو الاعجاب الموروث . لماذا ؟ لماذا يفعل بعض (كهنة) تراثنا ذلك ؟ ربما ليستمروا في استثمار (وقف التراث) ، وليتابعوا الاعتياش من مقبرته الرخامية ، بدلاً من تحويلها الى حديقة عامة عصرية بعد تنظيفها من المحنطات وتنشيط جذور ثمرها النافع . . المرعب أن بعض كهنة التراث من القيمين عليه يحاولون حرماننا من التعامل بحرية وصدق مع الأجداد . فهم يقمعوننا أحياناً باسم التراث فيما نحن نسعى اليه لنستمد منه قوة ووضوحاً وحرية ، ونسمة حرية (واوكسجين) اضافية في زمن الاختناق الوعر . وذلك لن يكون الا بادخال التراث الى زمننا (بدلاً من اخراجنا منه !) ، والسماح لنا بالاقتراب منه بعين نقادة وغير هيابة ، فعين العاشق المعاصر ليست عن كل عيب . . . كليلة .

***

لا أنكر أن قراءة الكتب الصفر الشكسبيرية بنصها العتيق أفضل من مطالعتها بصورة مجلة مصورة ، قد تكسر جناح الخيال بالـ (كارتون) ، وتفسد ايقاع تحليقه .

ولكن اطلاع الشبيبة عليها بأية صورة خير من لا شيء ، وبعدها قد ينتقل الشاب من الـ (فوتورومان) الى الأصل .

ولا أنكر أن مشاهدة مسرحية (عطيل) لشكسبير في مسقط رأسه (ستراتفورد أبون آفون) واحتفالاتها المسرحية المدهشة ، خير من مشاهدتها بواسطة الفيديو الذي يسرق مناخ المسرح الأصلي ، ويفسده أحياناً بالـ (كلوز أب) وغيرها من الألاعيب التلفزيونية التي لم تكن في ذهن شكسبير يوم كتبها للمسرح . . . ولكن مشاهدتها ولو عبر (الفيديو) خير من لا شيء . . . وهي قد تكون مدخلاً لزيارة المسرح أو شراء الكتاب . . . انني مع تقديم تنازلات للجيل الجديد ، مقابل جره الى قارة التراث العربي ، وبالتالي الى أعماقه هو شخصياً ، والى وعي لاوعيه ، والى استمداده القوة من ينابيعه الأصلية التي قامت بدور في تكوين (كروموزوناته) شاء أم أبى ، وسوف تسهم في تقرير مصيره أسوة بروح العصر السائدة (وموضاتها) التي لا مفر من التأثر بها .

الأطفال العرب يحبون (غولدوراك) و (سوبرمان) و (سبايدرمان) و (غراندايزر) ، ولكن ذلك لا يمنعهم أيضاً من حب أولئك الذين يقطنون

أعمـاقهم . . ففي داخل كـل فتى منهم شيء من عنتـرة وديـك الجن وقيس بن الملوح وسعد بن أبي وقاص والسندباد وخالد بن الوليد وزياد بن أبيه وابطال حكايا الف ليلة وليلة . . . . ومن الضروري أن يلتقوا بهم كي يلتقوا بأعماقهم كيفما وأينما تم ذلك . . في قاعة الصف أو في قاعة (الفـليبرز) . . في ظل الطقوس ، أو في ظل الواقع المعاصر الذي يفرض نفسه . . .

المهم أن يتم اللقاء بينهما مرة ، وقد لا يفارق أحدهما الآخر بعدها قط .

* * *

إننا بحاجة الى عقد صلح بـين الشبيبة والتـراث ، وعلينا أن نـرضى بشروطهم ونفهم واقعهم ، والا خسرناهم وخسرنا بهم تاريخنا وتراثنا ومستقبلنا .

وهذا الصلح لا بد وأن يتم بعيداً عن مناخات الزيف المحنك ، وقريباً من ايقاع الحياة المعاصرة الواقعية . . . وإلا عاقبونا بالرفض وعاقبوا أنفسهم بالنسيان . . . ومن النسيان ما قتل ، ونسيان التراث قاتل . . . فلماذا ندفع بأولادنا الى الانتحار ؟

جنيف ١٠/ ١٠/ ١٩٨٢

أعطنا . . حرية !

ثمـة ظاهـرة تستحق التوقف عنـدها ، وهي أن العـرب يمـرحـون ويصـرخـون و (يهيصون) في أعياد الشعوب الأخرى ، أكثر مما يفعل أصحاب العيد أنفسهم .

وجميل أن يشارك الانسان الآخرين أفراحهم ، ويلبس لكل حلة لبوسها ، فـاذا وجد نفسه في مدينة ترقص وتغني احتفالاً بعيـدها الـوطني مثلاً ، شـارك الناس بعض لهوهم ، محترماً بذلك مشاعرهم ، بدلاً من الانزواء في عزلة مكهربة .

لكنني أتحدث عن شيء آخر . عن (مشاركة) تكـاد تتحول الى ظـاهرة هـزلية تستحق تفسيراً . تريدون أمثلة ؟ حسناً .

***

انـه العيـد الـوطني لبلدة جنيف ، وأهلهـا يحتفلون بـذلـك عـادة ثـلاثــة أيـام (بلياليها) .

يزينون الشوارع والساحات . ينصبون الاعلام ومنصات الألعاب للأطفال . تأتي الفـرق الفولكلوريـة الملابس لتمشي في استعـراض جميل ، تتـزوج فيـه المـوسيقى من الوردة ، وتراقص الابتسامة البراءة ، وتسري عدوى الفرح في مناخ المدينة .

ولم لا يحتفل أهل جنيف بمدينتهم ؟ لا حرب لديهم . لا شعب شقيقاً يذبح . لا مأساة عامة تظلل الجو بحزنها الصامت الثقيل كالغاز الخانق .

وسط هذا العيد ، أبلى الزوار العرب بلاء حسنا ، وبزوا الجميع في كل شيء . بزوهم اسرافاً وثراء ، حيث كان العربي يشتـري لأصدقـائه وأولاده عـدة صناديق من الأوراق الملونة بدلاً من كيس صغير متواضع كالذي يحمله أولاد جنيف . ويبتاع دزينة من أنابيب الـ (سبـراي) الملون ، الذي ما تكاد تقذف محتوياتـه في الجو حتى يتحـول الرذاذ الى ما يشبه (السباجيتي) الأحمر أو الأصفر أو الأخضر، ترشق به الناس بدلاً من الخيطان الورقية الملونة التي (بطلت موضتها) هذا العام . وكان الكبار والأطفال العرب

يحملون العشرات من هذه (الرشاشات) اللطيفة ، في حين كان صاحب العيد يحمل أنبوبة واحدة ، ويلعب بها مقتصداً . لكنه كان يبدو سعيداً حقاً ، لأن العيد هو عيده ، وله جذوره في حياته وطفولته وأسرته وتربته .

ابن البلد كان يبدو (سعيداً) في فرحه المتقشف الصافي الشفاف ، أما معظم العرب الذين احتفلوا بالعيد أضعاف ما احتفل هو ، فقد كانوا بحالة (هستيرية) لا بحالة (سعادة) ، أو مشاركة لبقة لمدينة مضيفة تحتفل .

لقد انقض العرب على « السيد ـ العيد » ، وأشبعوه ضماً وعضاً وتقبيلاً ، وشدوا شعره وقرصوه كأنهم لا يصدقون أنه موجود حقاً على هذا الكوكب . كان فرحهم هستيرياً طاغياً يعبر عن جوع داخلي فج الى الانطلاق والصراخ والعبث . . والانفجار .

***

أجل . « الانفجار » هي الكلمة .

اذ كان الشبان العرب يشترون (أدوات العيد) لأطفالهم ، ثم يبزونهم في استعمالها .

لم يتركوا عجوزاً تمر الا وغسلوها بالورق الملون والصراخ . لم يتركوا قطاً الا وربطوا الشرائط الملونة على ذيله . لم يتركوا فتاة حلوة أو بشعة تمر الا وتوجوها بأكوام (السباجيتي) الملون، والبهجة السمراء في حضرة الشقرة . وفي الليل تعب أصحاب العيد وناموا ، ولم يتعب الضيوف ، وإنما ثابروا على احياء العيد بدلاً عن (أهل البيت) . .

وفي الصباح ، طلعت الصحف المحلية وفيها صور العيد ، وقد أفردت صفحات خاصة لـ (النشاط العربي) في هذا المجال ، وفيها صور العربيات اللواتي غطت شعورهن السود الطويلة قبعات العيد الملونة وزيناته وزادت ثيابهن المحلية بهاء . . والرجال العرب في الثوب التقليدي المغطى بالأوراق الملونة والشرائط الاحتفالية المذهبة . وقد سر أهل المدينة حقاً بالنشاط الكبير لضيوفهم العرب في هذا المجال . .

وكانت بيروت يومئذ تذبح . . .

***

ولكن الفرح ليس تهمة . ثم ان السؤال الأساسي هو : هل كان ذلك فرحاً حقاً ، أم حاجة ماسة الى الانفجار الداخلي ، يرتدي قناعاً شرعياً هو المشاركة في الاحتفال بعيد مدينة غريبة ؟

ذات عيد في باريس ، تعب الناس ـ ونام العيد ، وانطفأت الألعاب النارية ، والأضواء في عيون النساء الجميلات ، ورحل الجميع الى جزيرة الكرى .

ولكن شاباً غريباً ، ظل مصراً على الاحتفال بالعيد الوطني الفرنسي ، وتصادف ذلك تحت نافذتي . كان يطلق ألعاباً نارية بسيطة من آن الى آخر ، أو متفجرات و (فراقيع) من تلك الخاصة بالأعياد والأولاد ، ويغني كالنواح أغنية بدت مألوفة وعربية الألفاظ .

وعند الفجر غلبني فضولي القصصي فنزلت اليه استجوبه ، وكان ما يزال يغني « أحب عيشة الحرية » كالبكاء . وحين سألته ماذا يفعل هنا ، قال : أنا لاجيء سياسي !! . .

* * *

في الطائرة بين البحرين وبانكوك كان أحد رفاق الرحلة شاباً عربياً يعمل في الشرق الأقصى .

انه متوازن . هادىء لا يتحدث الا همساً . جم التهذيب ، ويكاد يغطي نصف وجهه بغطاء رأسه التقليدي استحياء وخجلاً . بانكوك استقبلت الطائرة بعيد وثني من أعيادها : عيد النهر . احتفلوا به بهدوء ، وأشعلوا الشموع ووضعوها فوق أوراق الموز على صفحة النهر ، فركضت في الظلمة فوق التيار مثل قبيلة من الأرواح المرتجفة التائهة ، الراجعة الى مصبها مع الأزهار البيض والأغاني . . ووسط تلك الطقوس العتيقة ، كان صوت غريب هستيري يصر على المشاركة في الاحتفال بطريقة طفولية عابثة .

وفي الفندق ، ظل الصوت نفسه متابعاً احتفاله وهو يزداد ارتفاعاً وهذياناً نابي الألفاظ ، وعند الفجر تحول الضحك المهذار الى انتحاب باك ، وعرفت في (المحتفل) رفيق الطائرة العربي (الخجول) . معقول ؟ ولماذا يغادر العربي ذاته أحياناً حين يغادر وطنه ؟

* * *

أعياد الشعوب كلها التي أتاحت لي الظروف فرصة مشاهدتها كانت تتصف بهذه الظاهرة الواحدة : المشاركة العربية حتى الاغماء .

في البداية ، اعتبرت الظاهرة مصادفة ، أو من بعض اللطف العربي البشوش ، والأنس المحبب ، والروح الاجتماعية الفياضة .

والحق يقال ، أن الدول المضيفة تسعد بتلك المشاركة . والصحف السويسرية التي نشرت صور حماس العرب الجنوني للعيد ، كانت مسرورة بذلك .

ولكننا كعرب نعرف أننا لا نتصرف هكذا في بلادنا ، وفي أعيادنا .

في كرنفال (ريودي جانيرو) مثلاً التقيت شاباً عربياً كانت حكايته مع العيد شبيهة بحكاية (عربي بانكوك) . وحين انتهى من مرحلة (الهستيريا) ، ودخل في البكاء ، سألته : لماذا ذلك كله ؟

قال : أنا يتيم منذ الخامسة من عمري ، ومن يومها وأمي الأرملة تحملني معها فجر كل عيد الى المقبرة . . . أريد أن أجرب عيداً بلا مقبرة !

***

هل يحتج هذا الشاب حقاً على (المقبرة) ، أم أن الاتهام موجه الى نمط من الحياة له مذاق (القبر) ؟

فأعياد الشعوب كلها مزيج من الرموز التي تربط بين الموت والقيامة ، ولا يوجد عيد خارج الحقيقة الانسانية ، ولا سور حقيقياً يفصل بين المقبرة وساحة الاحتفال .

فالحياة وحدة . والعيد وجه من وجوهها . ويخيل الي أن الخيط الذي يربط بين تلك الأمثلة (الاحتفالية العربية) كلها ، هو الحاجة الى الانطلاق . الحاجة الى الصدق مع الذات والآخرين .

الجوع الى الفرح .

الشهية الى تمزيق بعض التقاليد الرثة . .

القبر هو القمع .

وانفجار العرب في أعياد الغرب هو احتجاج على القمع بوجوهه كلها ، في مختلف مجالات حياتنا .

يأتي القمع العائلي أولاً .

تلك قضية لا تستطيع الأنظمة حلها ، وإن كانت تستطيع التعجيل في تطويرها نحو الأفضل . القمع العائلي حقيقة في حياة الأسرة العربية ، ولا يمارسه الأب المسكين وحده ، بل يمارسه الجميع ضد بعضهم بعضاً بكل براءة ، لمجرد أن الوضوح مفقود في العلاقات الأسروية المعقدة الواجبات والحقوق . وهذا الكلام ينسحب على الجميع بوجه عام : الأسرة (الرجعية) أو الأسرة (المجددة) .

الأسرة الرجعية يمارس القمع فيها دونما أقنعة (وهـذا أفضل في نـظري) ، أما العائلات (العصرية) ، فثمة تحررية زائفة تغطي العلاقات مثل قشرة هشة ، تنكسر أمام أية مواجهة لمشكلة حقيقية ، كأن ترغب الفتاة في الزواج من كادح بدلاً من مليونير ، أو كأن يفضل الشاب مهنة تصليح السيارات على الطب ، ويرفض تحقيق حلم كل أم وخطيبة بأن يكون رجلها (طبيباً) !

الأمثلة لا تحصى اذا (تجرأنا) على النظر داخل حياة أسرتنا أو فضلنا التأمل في أحوال الجيران .

فهذا أديب ينادي بتحرير المرأة ، ثم يعادي ابنته لأنها اختارت رجلاً (عادياً) للزواج ، بدلاً من ابن صديقه الثري .

وهذه (ثورية) تنادي بتحطيم القيود ، ثم تحطم رقبة ابنتها المهندسة لأنها لم تعد تدخن سراً .

* * *

ثمة قمع اجتماعي عام يحاول تكريس الرياء والخبث والزيف ، ولا يشجع التعبير الحقيقي عن الذات في مناخ حر يسهم في تقويم الخاطىء ، وازدهار الانساني والحي والمتجدد والمبدع . .

القمع الأسروي يواكبه ويعززه قمع في الحقول كلها : المدرسة . العمل . المجتمع . ويتم تتويج ذلك البؤس كله بالقمع السياسي في معظم الأقطار العربية . . وهذا ما لن أحدثكم عنه لأنكم لا تجهلونه (أو لكثرة ما فعلت من قبل !) . .

ان شهية الفرد العربي لملامسة صناديق الاقتراع ، وحمل اعلام الحرية ، تتفجر في الغربة بشكل مرضي ، بحيث يحتفل الشريد بأعياد سواه وكأنه يبكي ذاته . .

كأن حياة الفرد العربي رحلة ترويض تبدأ في البيت وتنتهي في السجن في بعض الأقطار . . وفي قاع الروح ، ثمة جوع الى الحرية . . الى نسمة حرية لا يمكن للابداع أن يولد بدونها ، ولا العدل ، ولا الفرح ، ولا العيد . . . . كأننا نشم في أعياد الآخرين نسمة حرية . . . فيغمى علينا من (قلة العادة) !

جنيف ٢٢/ ٩/ ٨٢

كيف نغري اسرائيل بالإقامة عندنا ؟

للموت جاذبية خاصة . لا أحد يستطيع أن يمر به ، وأن يشيح بعينيه عنه . عملية القتل تخطف الأبصار ، يتأملها المؤيد والرافض والمحايد . والمذبحة التي ترتكبها اسرائيل في لبنان استقطبت اهتمام العالم على اختلاف ميول أبنائه . العيون تتأمل طوفان الدم وبركان النار ، وصور بيروت المحترقة تتصدر أغلفة المجلات والصحف ، وحكايا نصف لبنان المحتل تحتل العناوين الكبيرة للصفحات الأولى .

الذين عايشوا حكاية المذبحة منذ بدايتها ، تروعهم أيضاً تلك الأخبار الصغيرة ، المكتوبة بعناوين شبه (ميكروسكوبية) والمطبوعة في أركان مهملة من الصحف . . . فهي تعني الشيء الكثير لمن عرف مأساة بيروت عن قرب .

تتحدث هذه الأنباء عن عدد محدود (نسبياً) من القتلى والجرحى ، الذين يحصدهم (العنف الصغير) المستمر في لبنان منذ أعوام وحتى الآن ، بالرغم من (العدوان) الاسرائيلي و (العنف الكبير) .

ولأنني عشت موتي بمثابرة واتقان في بيروت سنوات ثمانياً منذ افتتاحية الحرب اللبنانية الأولى ، فإن هذا النمط من الأخبار عن (العنف الصغير) يقلقني ، ربما أكثر مما تفعله بي أنباء المذبحة الاسرائيلية الرهيبة .

فليس غريباً أن تهاجم اسرائيل لبنان.

الغريب هو أن يمارس لبنان المهدد بالقتل ، الهاراكيري !

ليس عجيباً أن تحاول اسرائيل قتل لبنان ، لكن العجيب هو أن يثابر لبنان على محاولة الانتحار بدلاً من الدفاع عن نفسه .

* * *

وسط تلك الأخبار المروعة كلها عن القنابل الفوسفورية والعنقودية والفراغية التي تجربها اسرائيل في المدنيين اللبنانيين دونما رحمة ، تأتينا أخبار السيارات المتفجرة التي ما

زالت تثابر على ممارسة (نشاطاتها) في بيروت ـ وغيرها ـ ، قبل القصف وبعده ، بل وخلاله . ونعي بذهول أن حكايا الخطف العتيقة والخطف المضاد ما تزال مستمرة .

هل هذا معقول ؟

العدوان يقصف اللبناني من الخارج ، وهو يثابر على تفجير نفسه من الداخل ؟

يقذفونه بقنبلة يدوية ، وهو يتابع ابتلاع أصبع ديناميت ، والنار قد شبت في أطفاله وبيته ودياره ؟

القذيفة الاسرائيلية تحطم مبنى بأكمله ، وتحصد مئات الضحايا والسيارة المتفجرة تحطم المبنى المجاور ، وتقتل العشرات ؟ الخبر (الأكبر) ـ من حيث كمية الدمار ـ مكرس لاسرائيل طبعاً ، لكن النبأ الأكثر خطراً في دلالته هو عن تلك السيارة التي تتابع انفجارها منذ أعوام في لبنان ، متنقلة من مكان الى آخر ، وهي تظهر بألوان مختلفة و (ماركات) مختلفة ، لكنها تحوي قنبلة واحدة تتقمص كل مرة سيارة أخرى ، وهي قنبلة أخطر من (القنبلة الفراغية) لأنها فرغت الوطن من معناه وكانت أكثر أذى من القنابل الفراغية الأميركية .

إنها قنبلة العنف بين أبناء الوطن الواحد ، ولا أسميها (قنبلة الطائفية) ، لأن الطائفية ليست سوى أحد أوصافها الخارجية . لكن جوهر آلية تفجيرها يعود للافتقار الى احترام الحرية ،

حرية الآخر في المعتقد الفكري ، وامكانية تفاعل الحريات في مناخ ديمقراطي إنساني ، بعيد عن (التخوين) المسبق ، الذي حملته إلينا رياح شعارات أثبتت الأيام زيف بعض مطلقيها .

***

من زمان ، والموت لم يعد يأتي على رؤوس أصابعه في لبنان ، كالحب .

صار الموت يأتينا عنيفاً بشعاً كالاغتصاب . لقد عشنا موتنا اليومي سنوات ، ونحن نعاني من طوفان العنف غير العادل لدى بعض الفئات التي كانت تتكاثر هاربة من درب الباب الضيق الى الاختيار السهل .

لقد احتضر الحوار أمام عيوننا ،

وذبل المنطق مثل شتلة الياسمين في الحريق ،

وتقلص طموحنا ، وصرنا نردد كل صباح : (رُبَّ يوم بكيت منه ، بكيت في يوم عليه) !

باختصار : كانت الممارسات غير الديمقراطية التي سبقت الغزو الاسرائيلي

بسنوات هي بمثابة بطاقة دعوة للغزو .

لقد كنا نتضور شوقاً الى العدالة الاجتماعية والنظام والحرية الانسانية .

وكانت (البشاعات) تحصدنا خطفاً وسرقات وانتهاكاً للحرمات وامتهاناً لكل قانون غير قانون (الكلاشنكوف) وشريعة المتخلفين عقلياً المتفوقين عضلياً . . . لقد امتهنت انسانيتنا من قبل الاعداء والاحباء ، ونمت أمام عيوننا (دكاكين) الارهاب كالفطر على أصابع المفكرين والأدباء والثوار الشرفاء ، واختلطت المقاييس ، واندس القتلة وسط الشهداء . . وورث بعض (الساسة الجدد) أمراض الساسة العتق التقليديين وبزوهم في مجالها وكانت أصوات السيارات المتفجرة وفحيح المسدسات المزودة بكواتم الصوت تكتم حتى أصوات استغاثة الشعب أو الأصوات التي تدعو الى الاحتكام للعقل والضمير والخير والى سيادة الحرية في ظل الديمقراطية . . ذلك درس لن ينساه كل من عاشه واستطاع أن ينجو من القتل . لقد احتل الارهاب لبنان أولاً ، فكان بمثابة اغراء للاحتلال الاسرائيلي الذي ابتلع الجنوب اللبناني المفكك المتناقض في غمضة عين . . . وعينه على بيروت وجونيه وجبيل وطرابلس .

* * *

بعد الاعتداء الاسرائيلي قلنا : سيصحو الجميع . ولن نرى بعد اليوم قتالاً محلياً أو سيارة مفخخة أو حاجزاً اعتباطياً . سنرى الجميع يقاتلون الغازي الاسرائيلي .

ووسط الأخبار القادمة عن هذا القتال ، ما تزال المذابح الآنفة الذكر مصرة على الاستمرار جنباً الى جنب مع القتال ضد المهاجم . هل يمكن لوضع كهذا أن يصدق ؟ . . .

وأي منطق يمكن أن يبرر استمرار السيارات المفخخة اللبنانية في الانفجار على أرض يبتلعها العدو لقمة بعد أخرى ؟ من يصر على ايقاد شعلة المذابح الطائفية وكيف نفسر (لعلماء النفس قبل الأجيال) استمرار اختطاف الناس وقتلهم لخلاف في الرأي ؟

أما يزال البعض مصراً على ممارسة الهاراكيري ، تحت القصف ووسط حطام الوطن ؟

وبعدما دعونا العدوان الاسرائيلي لزيارتنا ، ها نحن نقدم له الاغراءات للبقاء عندنا ، ونتوسل إليه كي لا ينسحب من أراضينا ، وكي يتابع احتلاله لبيوتنا مقيماً في أمان، ونعده بأن نظل على انشغالنا في تقتيل بعضنا بعضاً ، وتدمير ما تبقى من

الـوطن على رؤوسنـا لنوفر عـليه عـناء ذلك . . . أليست تلك أصـول حسن الضيافـة للغزو الاسرائيلي ؟

* **

أليست هذه البنية الهشـة المفككة بـالصراع الـداخلي بمثـابة اغـراء للعدو بـدوام الاحتلال ؟

ألسنا نحن الذين نشجعه على انتهاك حرياتنا وانسانيتنا ، حينما نسبقه الى ممارسة ذلك فيما بيننا ؟

لقد بدأت مأساة لبنان يوم صار (السيف أصدق أنبـاء من الكتب) فتم احراق الكتب فوراً . يومهـا ألغى البعض الحوار ، ومنـع حريـة الكلام ، واستبـدل المحكمة بمراكز الارهاب ، واللقاءات الفكرية بالعصابات المسلحة ، والقلم بالسوط .

ودرب خلاصنا لا بـد وأن يمر عبـر النفق ذاته . لا مفـر من العودة الى احتـرام الكلمـة والحوار ، وحق الانسـان في شرح وجهـة نظره أو في الـدفاع عن نفسـه (على الأقل) قبل تنفيذ اغتياله إذا أمكن !

كأن الخطوة الأولى تبدأ برفض الارهاب ، والعنف الأعمى الضاري ـ تحت أي شعار ـ ، واختلاس حياة الناس والاستخفاف بها . . ورفض الممارسات غير الديمقراطية بلا قيد ولا شرط .

* * *

إن أنباء العنف (المحلي) الصغير ، الذي مـا يزال يمـارس بالـرغم من العنف الاسرائيلي الكبـير ، يثير قلق كـل مواطن عـايش الأحداث طـوال أعوام عن قـرب ، وشاهد جذور (الشر) تنبت في تربة العنف والاستخفاف بالانسان وانتهاك حرياته . . .

إذ كيف نطالب العالم بالعدالة ، ويحَرم منها بعضنا بعضاً ؟

كيف نطالب الغريب باحترام حريتنا ، ولا يحترم كل منا حرية مواطنه ؟

لماذا نطالب الآخرين بالاعتراف بحقوقنا ونحن ندوس حقوق أنفسنا ، ونمارس فيما بيننا ما نشكو منه حين يمارسه الآخر نحونا ؟

إنك لا تستطيع أن تطالب العالم باحترام حقوق تنتهكها أنت !

وأراضينـا المحتلة بالارهـاب والقمع والعنف ، هي اغـراء لاسرائيـل باستمـرار الاحتلال .

ولن يتبدل شيء اذا لم نتبدل نحن . وإذا لم يكن الغزو الاسرائيلي كافياً لايقاظنا وبعض العالم العربي ، واطلاق صفارات انذارنا الـداخلية ، هـل يمكن لشيء آخر أن يفعل ؟

وهل نجرؤ على التفاؤل دون أن نتهم بالحماقة ؟

جنيف ١٣/٨/ ١٩٨٢

اجازة في بيروت

لأنكم سألتم عني كثيراً في بريد القراء ، أشعر أنني مدينة لكم بـ « تـوضيح » . فقد اعتدنا أن نموت في بيروت دون أن يلحظ أحد ذلك . نسقط على الأرض برصاصة عدو أو صديق ، فلا يرفع جثتنا أحد قبل مرور أيام . ثم تعلم كل منا أن يلملم جثته بنفسه عن الأرض ، ويتابع المسير الى عمله .

لقـد أضحى الغياب هنـا مرادفـاً للحضور حـين تداخلت أزمنـة الموت والحيـاة وتشـابكت ، ولم نعد نميز بـين شهقـة الـولادة وشهقـة الاحتضـار ، واختلطت علينـا الأمور . . وصرت ألتقي صديقاً فأرحب به ، وبعد أن يمضي أتذكر أنه قتل منذ أربعة أعـوام في انفجار ، ولكنني لا أشعـر أن الأمر غـريب أو خارج عن مـألوف مـا يحدث حولنا . . . لم نعد نميز حقاً بين حياتنا وموتنا أو بين الشجرة والمشنقة .

ولم نعد نذكر عدد المرات التي قتلنا فيها ، أو قتل أحباؤنا ، ولا ننتظر أن يتذكر ذلك أحد بالنيابة عنا . . أو يذكرنا في عيد موتنا الخامس أو الثامن . .

في مجتمعنا البيروتي تم عقد قران الموت والحياة في احتفالات دموية دامت أعواماً ، وبعدها دخلت طقوس العذوبة والحنان في النسيـان . . وصار التعـاطف والأنس والود ذكريات غابرة لأشياء منقرضة ، الحديث عنها له مذاق الحديث عن الديناصـور المحفز للخيال .

ربما لذلك ، كان لرسائل أصدقائي القراء الباحثة عني في غيبتي مذاق خاص ، له أبلغ الأثر في نفسي المرمية لعراء التاريخ وشراسة الأقدار .

حدث نادر في بيروت أن يسأل أحد عن موت آخر أو حياته ، ناهيك عن إجازته السنوية .

أجل . . انني مدينة لكم (بإيضاح) على الأقل . . فقد وجـدت عبارة « إجـازة سنوية » غير وافية في هذا المقام .

***

في البلدان المستقرة والمتحضرة ، يذهب المرء من عمله الى الراحة والمتعة والهواية ، ويسمى ذلك ذهاباً الى « الاجازة السنوية » . عندنا : نذهب من العمل الى عمل أكثر مشقة ، فنضطر لطلب « إجازة » من عملنا الأصلي كي نتفرغ لترميم خراب الحرب ، ورتق جراحنا المفتوحة النازفة .

في البلدان الهادئة ، تقترن عبارة « إجازة » بالفنادق النائية الخلابة ، أو الأمكنة الصاخبة موسيقى وفرحاً ، حيث تنطلق النفس كالحصان البري نصف المروض بعد أن ترمي عنها سرج الأصول ولجام الالتزامات ولزوم ما لا يلزم اجتماعياً! الاجازة تعني أن يرفل الانسان في مباهجه الحقيقية في أحضان الطبيعة أو غيرها . . والاجازة عندنا تعني أن نرفل في الزجاج المكسر ، والكتب المحروقة ، والأبواب التي حطمتها الانفجارات والجدران المتداعية . شريك الاجازة رئيس ورشة تصليح البيوت المدمرة ، ورفاق اللعب هم عمال البناء والنجار والحداد . . صوت المطرقة ديك صباحنا ، وأزيز الحفارة همس الحبيب !

***

حين يذهب المرء الى إجازته ، يهبط من الطائرة وقلبه يرتجف شوقاً الى المباهج المنتظرة ، كالنوم الهادىء بلا كوابيس مثلاً !

حين قذفت بي الطائرة في مطار بيروت ، حاصرتني ذكريات القصف الاسرائيلي المروع الذي داهمني هنا قبل أشهر ، ووجدتني أغلق أذني بأصابعي ، فيزداد صوت الانفجارات ارتفاعاً . . وحدقت في الأرض الغالية التي داستها (جزمات) اسرائيلية ، وما زال الاسرائيليون يشتاقون الى امتلاكها . . ووعيت للمرة الأولى بعمق مدلول تلك التحية الرمزية الجميلة التي يقدمها البابا الى تراب كل وطن يزوره ، حين ينحني على جسد الأرض فيقبله .

***

بدأت « إجازتي السنوية » أيها الأصدقاء ، فرافقوني . .

ها نحن نمضي في (طريق المطار) ، نتجه صوب منطقة الرملة البيضاء والروشة المشرفة على البحر . يوم سعيت للحصول على بيت له نافذة بحرية ، لم أكن أدري أنني كالساعي الى حتفه بعشقه (لا بظلفه) . . فأنا أعشق البحر . . والزوارق والطائرات الاسرائيلية تكرهه ، وتعتبر الشاطىء منطقة « استراتيجية » كان لا بد من زرعها بالقنابل الرهيبة إياها . وهكذا فالدمار ممتد بشكل شامل منذ عتبة المطار حتى عتبة

البيت . ويا لها من بداية لاجازة . . .

منذ الساعة الأولى امتلأت عيناي بالبيوت المخربة . هذا مركز (الكوكودي) الشهير وقد دمرته القذائف بشكل شامل ، وكان من قبل حديقة غناء لا تنسى ، مشى طفلي فيها خطواته الأولى . . وهذه بيوت تساقطت فوق أصحابها ، وهذه محلات تجارية انطفأت أضواء (الثريات) التي كانت تباع فيها . . هذه الكتلة الحديدية المصهورة كانت ذات يوم سيارة ، وقد شاهدتها تنفجر وكنت في دربي الى المطار . . أم تراها تلك السيارة المعجونة الأخرى ؟ أخطأتني القذيفة يومها وأصابتها في (روليت) الموت ؟

هذا بيت سيدة أرملة صديقة ، لم يبق منه شيء سوى الباب . . غريب أمر الخراب كم هو « سوريالي » كأن يتهدم بناء بأكمله ، ويبقى بابه منتصباً مغلقاً على الفراغ ، يقطر سخرية ، مصراعاه مطبقان مثل فم يخفي ضحكة هازئة مكتومة . . .

هذه سفارة دولة حبيبة نخرتها القنابل ، وهذا بيت عروسين (كان) ، أعداه ولما يسكناه . . وهنا (كان) بائع السندويش المالح قليلاً ، ولم يبق منه غير الملح والرماد . . وهذه بقايا سفارة أخرى وأطلال . . . أطلال . أطلال . صار بوسع الشعراء الجدد الوقوف على الاطلال دون أن يكون في ذلك ردة الى المعلقات القديمة وعمود الشعر العتيق . . . فنحن للأسف نكرر أبشع ما في تاريخنا ، وندخل في جاهلية جديدة مروعة الأبعاد . . .

يتداخل الخراب القديم والجديد . . خراب ما قبل الاجتياح الاسرائيلي ، وخراب الاجتياح وما بعده . .

فهذا مبنى آخر مدمر بصورة كلية ، تم تفجيره ذات يوم منذ حوالي عام واحد ، ومات تحته عشرات الضحايا من الأبرياء ، بينهم تلك النخلة العراقية النادرة ، صديقتي الأثيرة بلقيس الراوي ، التي ما تزال تزورني في أحلامي ، وتخلفني على شاطىء الصحو مثل مركب أكلته العاصفة ، اتساءل مبللة الوجه : أهذه بقايا الموج أم الدمع ؟ وهذا التدمير من الداخل ، ألم يكن بطاقة دعوة للاجتياح الاسرائيلي والتدمير من الخارج ؟ وهل بوسع الكثيرين أن يغسلوا أيديهم من دم بيروت ؟

وريثما أصل الى بيتي ، تمر بي الدرب ببيوت العديد من رفاق القلم ، وكلها مسته الحرب بأصابعها الشرسة . هذا بيت جارتي الأديبة أملي نصر الله وقد احترق تماماً ، والهباب يمد ألسنته السود من النوافذ كلها ، ولا بد أنه التهم الأوراق وبعض جنى العمر

من حـروف ولوحـات . . وهذا بيت استـاذنا الكبـير منير البعلبكي وقـد زارت بعضه قذيفة . . وهذا بيت الدكتور سهيل ادريس وقد لاكت الحرب بأسنانها النـارية مكتبتـه الثمينة . وهذا فندق رفيق الطائرة الحزين وقد انشبت القنابل مخالبهـا فيه شـرفة شـرفة ودمرته دماراً شبه كلي . . فلماذا لا يمـوت بالسكتـة ليلة وصولـه ؟

أهرب بنـظراتي الى البحر ، فتطالعني قلعة حديدية عائمة هي إحدى قطع الأسطول الأميركي (المارينز) ، والسائق ينحرف بي في طريق جانبية توصل إلى بيتي خوفاً من الألغام التي ما تزال مزروعة في الدروب الرئيسية ، فأنا اسكن منطقة أعلنت عسكرية خلال الحرب .

إنـه المساء الأول لـلاجازة ، أقضيـه ألملم الحطام ، وأحـاول عبثاً انتـزاع بقـايـا الزجـاج المحطم ـ المسنن كالسكاكين ـ من موضعها في نوافذي ، فتنزلق أصابعي فوق الهباب المعجون بالغبار وأكاد أقطع شـريانـاً ما . . أهـرب من ذلك كله إلى الشـرفة ، وحين أفعل ذلك لا أفتح باباً لأنه لم يبق للغرفة باب ! . .

أحاول الهرب إلى النوم ، تهاجمني أسـراب البعوض المفتـرسة التي ألفت التهـام الجثث ، فأنهض لألصق كيساً من (النايلون) على النافذة بدلاً من (البلور) اللعين . . وأعود لأدخل في الكوابيس والزجاج المسحوق ، وارتجف رعباً من صباح اليوم التالي ، حين أذهب الى بيوت الأهل والأصدقاء ، وقد لا أجدها ولا أجدهم .

* * *

وتنهار فوق رأسي ذكريات الحـرب . أي حرب منهـا ؟ آه لم أعد أذكـر . . فقد عايشنا حروباً عديدة هنا ، اقتتل فيها اللبناني مع اللبناني ، واللبناني مع الفلسـطيني ، والفلسطيني مع الفلسطيني ، حتى تقدمت إسرائيل وكلها شهية لابتلاع الجميع ، حاملة معها الدمار الأكبر .

أتذكر يوم ماتت الكهرباء وجوعنا الحصار . .

صرنا نستعمل بطارية السيارة لملء الدواليب بالهواء . ثم تـطورت (مهاراتنـا) اليدوية ، فصرنا نستعمل بطارية السيارة لاضاءة مصباح صغير داخل البيت بعـد ترك (الموتور) في حالة عمل . وبعد موت وقود السيارات فقدنا مصدر الطاقة الأخير هذا ، وصار صوت مرور سيارة يثير دهشتنا والتفاتنا كما يحدث لأهل القرى النائية . . وعـدنا إلى عصر الشموع دونما (رومانسية) ، وكانت شموعنا رديئة ذات رائحة كريهة ، لهبها بلا وقار إذ يصدر أصواتاً بغيضة بينها يحترق . نتحلق حول الشمعة الثرثارة صامتين ،

ونسمع صفير القنابل ، ومع صفير كل قنبلة تتنهد الصعداء (والنزلاء) ، فقد علمتنا الخبرة أن القنبلة التي نسمع صفيرها ليست هي التي ستقتلنا لأنها تكون قد عبرت وانتهى أمرها . .

لحوم المعلبات القليلة كانت كل ما تبقى لنا . ولن أنسى يوم كتبت في مذكراتي « هدى المر جاءت من الجبل حاملة دجاجة مذبوحة طازجة . هليلويا . مجدوا الرب ، وأحمد أحضر لنا عشر زجاجات من الماء والبانزين مهربة من قبرص على مركب خاله شبارو » . لكننا لم نأكل الدجاجة يومها ، فقد لفظت قارورة الغاز الأخيرة أنفاسها . في اليوم التالي جعنا ، فأكلنا بعضها نيئاً .

* * *

أتذكر البيت الكبير القديم (أحرقته قذيفة فيما بعد) ، بساعاته الخشبية العتيقة المشلولة الرقاصات ، المنسية مصلوبة على جدرانه وسط غبار عشرات السنين ميتة راكدة ، وكم سببت لنا من الرعب على حين غرة . . فقد انفجرت ذات يوم قذيفة في الحديقة قرب النخلة ، وهوى البيت في الزلزال وانخلعت قلوبنا . تحجرنا صمتاً ورعباً ولم نتحرك من موضعنا حتى بعد أن ساد الهدوء ، ولكن الساعات العتيقة الميتة ، دبت فيها حياة شبحية فصارت تعمل كلها معاً للمرة الأولى منذ نصف قرن على الأقل ، ورقاصاتها تهرول وعقاربها تدور وأجراسها ترن وقد دبت فيها روح شريرة مخيفة الفوضى . . وأحصينا دقات إحدى الساعات فاذا بها ٢٥ دقة ، كأنها تعلن لنا : (الساعة الخامسة والعشرون) حلت .

أتذكر أن الحر والذعر أحرقا شفاهنا ، فقررنا ممارسة ترف شرب (ليموناضة) مبردة . . وكيف نحصل على الثلج والكهرباء ميتة ؟ وذهبنا تحت القصف إلى جارنا بائع اللحم نستجديه قطعة ثلج ، وحين حصلنا عليها كان بعض الدم مجمداً داخلها . . ولم نتردد ، وشربنا عصير الليمون المبرد بالدم . .

وأتذكر كيف كنا نستيقظ صباحاً وعلينا آثار عضات البعوض ، فالكل جائع ويريد أن يأكل .

* * *

وكم استيقظنا على صوت صرخات الاستغاثة ، وأصوات تنادينا بالمكبرات وتدعونا للهبوط إلى الملجأ ، والصوت يتوقف فجأة ولا يتابع نداءه ، ونحدس أن طلقة نارية قد استقرت في حنجرة المنادي .

وبعد ساعة جحيمية من القصف ، يعود صوت آخر ليدعونا للتبرع بالدم . .
ونتساءل : هل الذي يتدفق في شرايينا دماء أم ماء ؟

وهل الدورة الدموية للشعب العربي تضم دماء النخوة والقرابة أم الماء المثلج ؟
ولماذا لا يهب بعض العرب لنجدتنا ؟ ولماذا تضطر كل دولة للحرب وحدها (فيستفردها) العدو ، ولماذا تصالح كل دولة وحدها (فيستفرد) العدو سواها ؟

هذه لمحة عن مباهج مشاهدات اليوم الأول لاجازتي السنوية ، وذكرياته ، فهل تسمون ما يدور « إجازة » ؟ ألا أستحق إجازة من هذه (الاجازة) ؟

***

الاجازة لهو واسترخاء ونسيان ، وأنا قد سقطت في الصحو البيروتي المروع .

وما يمزقني حقاً ، ليس ذكرى ما كان ، بل هلعي مما سيكون . فالمفجع أن بعض العرب لم يدرك حتى الآن أن الخراب البيروتي هو البداية لا النهاية .

وأن بيوتنا المدمرة برقية إنذار لأشقائنا العرب تحيطهم علماً بما يخطط لبيوتهم . .
وبرقية تفهمنا بأن النظام الاسرائيلي لا يعمل منفرداً ، فالخطة تقضي باشعال جبهات عربية أخرى لتمزيق شمل المقاتلين الواعين كما هو حاصل ومعروف . .

فهل يصحو البعض على هذه الحقيقة ؟ . .

. . كل عام وأنتم في أوطانكم . . نحن بخير ولا تطمئنونا عنكم . نعرف مأزقكم لأننا جربناه . .

ولكن هل تعرفونه أنتم جميعاً ؟ . . هل تعرفون أن عذابنا الماضي والحاضر هو حزنكم الآتي ؟ . .

وإن بطاقة طائرة المنفى التي سأرحل بها ثانية في الأسبوع المقبل ، قد تظهر فجأة في جيوبكم ، وترحلون بها أنتم أيضاً ؟

جنيف ، بيروت ٣/ ١٠/ ١٩٨٢

الغربة الثالثة

بيدين غريبتين أُغلقتْ عينيك الميتتين
بيدين غريبتين سويت اعضاء جسدك
بيدين غريبتين زين قبرك المتواضع
الغرباء قدموا احترامهم لك ،
والغرباء ندبوك . . .

« الكسندر بوب »

الرحيل انتحار .

« صموئيل بيكيت »

يشتهي الناس الاستقرار ولكن ، ثمة أمل في
ان يبدعوا ما داموا غير مستقرين .

« رالف والدو ايمرسون »

المرأة ـ اللغم

يوم رحيلي ، يكاد يكون تجسيداً للاحزان كلها التي تدفع بك الى حب لبنان بدلاً من الكفر به . . ولنبدأ منذ الفجر ، فأيامنا في بيروت موصولة بلياليها . . ولنقض معاً ذات يوم لبناني طويل ونموذجي . .

الجمعة ٢٩ حزيران ١٩٨٤ . نستيقظ في الثالثة والنصف فجراً . المعزوفة ذاتها : رصاص . متفجرات . قذائف . دوي يصم الآذان ، يمتزج بصراخ اطفال الجيران المهرولين على السلم الى الملجأ . ظللت في فراشي وقد سمرني الغضب . ترى من يقتتل الليلة مع من ؟ كيف ينسون اسرائيل التي اكتسحت هذه الشوارع نفسها منذ عامين ، ويتابعون التهام بعضهم بعضاً على الأرصفة ذاتها التي داستها جزم عساكر بيغن ، وما زالت تتوق الى التكرار ؟

تكتشف في السادسة انهم يحتفلون بالعيد فهل سيكررون ذلك كل عيد ؟ لم تسكت قذائفهم المهدورة الا بعد ان تم ترويع كل طفل في المدينة . تتذكر أفراح اطفال العالم في أعيادهم . الموسيقى . الألعاب . الهدايا . الرقة التي يحاول الكبار سكبها في قلوب صغارهم . . الا نحن . نقدم العيد لاطفال بيروت من فوهة رشاش ونضيف الى بؤسهم غصة جديدة اسمها العيد . اطفال بيروت كلهم يخشون العيد . ينتظرونه برعب لانه يعني لهم جرعة جديدة من الاصوات المقيتة التي يكرهون ونكره جميعاً . آه ، كيف تحول الوطن الى مكان اهوج ، افراحه كأتراحه واعياده كجنازاته : رصاص ودمار ، وقتلى ابرياء يتساقطون عن الشرفات بتهمة محاولة استراق النظر الى هلال العيد .

تفور اعماقك حقداً وكمداً ضد الذين يشوهون طقوس اعيادنا ، ومدلولها الروحي السامي ، ويحولونها من فسحة تأمل وفرح وبركة الى جمجمة وعظمتين . تشعر ان هذا الدين هو دينك ، وهذا العيد هو عيدك ، وانك ترفض ما يفعلونه بالناس

وبك ، باسمك وباسم مقدساتك . ولن تسكت . ولن تحمل رشاشك وتنضم اليهم لترويع الاطفال . ولن تهاجر وتتركهم يعبثون بخاصرة عيدك بفوهات مسدساتهم .

يتدفق قلبك صوب بيروت نهراً من الحنان الشرس الجارف .

* * *

الجمعة ٢٩ حزيران ، الثامنة صباحاً ، تصل الى (مرفأ) الحمام العسكري . بعد قليل يلحق بك مسافر آخر بالغ الاضطراب . لقد اوقف سيارته حيث توقف التاكسي بك ، وهبط منها لينادي حمالاً ، فاستبولى عليها مسلحون ومضوا بها وبأمتعته كلها هو المهاجر ! . . تغص حقداً على المجرمين المندسين في ثياب الثوار . تحدق في البحر الباهر الزرقة والصفاء ، وتكاد السكينة تجد دربها الى روحك المضطربة . ترى رجلاً يعتلي منصة وقد حمل بيديه بوقاً قربه من فمه ، والناس يتراكضون نحوه . تفعل مثلهم . تسمعه يعلن ان باخرتك « أليزور بلانكو » التي كانت ستقلك الى قبرص موجودة الآن في حيفا بعدما اقتادها الاسرائيليون أسيرة ! . . تسقط في المسافة بين الشهقة والدمعة . لقد رمينا بالاسرائيليين في البحر بلاغياً واعلامياً وسجعاً عام ١٩٦٧ ، أما عملياً فهم يذلوننا في برنا وبحرنا الذي ادعوا اننا سنرمي بأطفالهم اليه . .

يعود الرجل ذو البوق ليعلم ان بواخر (الشحن) متوافرة لمن يشاء . ترضى بركوب ما تيسر. باخرة شحن؟ لا يهم. انك بحاجة الى مغادرة هذا الجحيم الأرضي في إجازة تطول او تقصر ، الى اي مكان لا تنفجر فيه سيارة جارك ، وينهار البناء فوقك ، وتدخل الشظايا قاعات دراسة اولادك قبل الاستاذ . تريد ان تخلو الى نفسك قليلاً او كثيراً . تعيد النظر فيما فعلته ، وما لم تفعله ، وما فعلوه بك . .

* * *

الجمعة ٢٩ حزيران ، العاشرة صباحاً ، يقول لك غريب ، وانتما تغامران بالقفز من المركب الى السلم الحديدي للباخرة ، والامواج تعلو تحت احدى قدميك وتهوي بالأخرى وتكاد تشطرك الى نصفين : حظنا ممتاز . هذه باخرة (جيت) سريعة ، وسنصل الى قبرص في ساعتين ونصف . تصل الى قبرص بعد تسع ساعات عذاب ، فالقبطان قرر فيما يبدو توفير الوقود والنقود لأن قطيعنا كان محدود العدد ، ومضى بالسرعة الاملائية والله اعلم . . . لكنه بالتأكيد يعلم انه لم يعد للبناني العادي من يحميه ، وعليه ان يسبح بحمد مافيا البر والبحر معاً .

مرفأ لارنكا ، وانت نصف محطم . انخلع قلبك للصاروخ الذي اخطأ باخرتك

لحظة انطلاقها ، ولا احد يعلم من اين جاء وكيف ولماذا . بعدها تنفست الغاز السام للمازوت ملء رئتيك ، وتذوقت طعم دوار البحر ، ومخاوف الاختطاف الى اسرائيل كما حدث لباخرتك السابقة . تتطلع بشوق الى لحظة معانقة اليابسة والساعة تشير الى التاسعة ليلاً ، وانت منهك مثل نورس طار عشرة اعوام بين القذائف والشظايا ، ولم يسمحوا له بالتوقف لحظة فوق شجرة محروقة ، او حتى على قدم واحدة بين الخرائب والمقابر . . .

***

تغادر بيروت مشيعاً بالقذائف ، فيستقبلك العالم الخارجي باللعنات . في مرفأ لارنكا يحكمون عليك بالسجن ساعتين في الباخرة ، ولا يبلغونك الحكم ولا طبيعة جريمتك . ثم تكتشف ان ذنبك الوحيد هو انك لبناني ، وان لبنانياً آخر هرب (الحشيشة) إلى قبرص ، وضبط في المرفأ ليلة البارحة ، وانت الآن (مخطوف الى التهمة) على الهوية ! . . . وتكتشف ذلك حوالي منتصف الليل حين ينتهون من استقبال (ابناء الست) في كوكبنا ـ اي بقية البواخر التي رست بعدك وقبلك ـ ويتفرغون لمواجهة (اجرامك) المؤكد . . ها أنت مهرب حشيش حتى تثبت العكس . . وأفيون وكوكايين ايضاً . اقترب مني رجل الجمارك كما لو كنت لغماً ، وتأملني مثل قنبلة موقوتة ، وعامل حقيبتي كما لو انها تخص جيمس بوند بالذات ونادى زميلته لكشف سر جدارها الذي أراده صانعها اللعين (كابيتونيه) من باب التجميل ، فتحولت في نظره الى مخبأ مبتكر للمخدرات ! . الركاب كلهم قهروهم فرداً فرداً في حفلة إذلال جماعية . ولم يشفع لنا ارهاقنا غير السري ، ولم يكن في وسعنا ان نلومهم ، فمن حقهم ان يحموا مواطنيهم من سم المخدرات . . ولكن . .

***

ها نحن اخيراً في غرفة الفندق ، نحلم بنوم بلا اعياد ولا كوابيس ولا معارك (تحرير) . يرن الهاتف . انها صديقة من بلد اجنبي ترحب بنا . كم هذا لطيف لولا النبأ الذي تحمله : « صاحب البيت الاوروبي رفض تأجيركم الشقة لاجازة الصيف حين عرف انكم لبنانيون . . . وحين قلت له انك سورية ، رفضكم من جديد بشدة اكثر» . . حسناً . ماذا افعل ؟ لن ابدل اسمي الى « غولدا شامان » بدلاً من غادة السمان ليرضى بي بعض اصحاب العقارات والاطيان ! . . .

***

انها الثالثة والنصف فجراً . اربع وعشرون ساعة متتالية ، وانت مستيقظ وتتلقى الضربات والاهانات . عيدك سرقوه مع امتعة جارك . باخرتك اغتصبتها اسرائيل . حقك في ركوب مقعد متحضر اكله سماسرة جمعية المنتفعين من سقوطك . وحقك في معاملة انسانية في مرافىء الدنيا دونما اذلال مسبق سقط عنك (على الهوية) . . ولا احد يريدك ان تقطن بيته على هذا الكوكب لمجرد انك لبناني . ماذا تفعل ؟ تغادر الفندق الى الفجر . تجلس على رمال كورنيش لارنكا مثل مركب مزقته العاصفة وحطمته ضربات القراصنة وشجار ابنائه فوق سطحه . .

وتقرر انك يوم خسرت لبنان ، خسرت معه القيم والقضايا العادلة كلها التي كنت تقاتل لاجلها على ارضه . . ومع خيوط الضوء الأولى للفجر ، ينبت في قلبك حب من نوع خاص نحو ذلك الوطن الجريح المهيض الجناح ، الذي شرب الجميع من بئر بركته ، ثم رمى معظمهم بحجر فيه .

***

اذا لم نقتل . اذا شاهدنا لبنان يغادر اسطورته ليدخل حقيقته بعد مخاض الدم . اذا شهدنا لحظة حرية تنبت من جديد في تربة الوطن المحروقة ، ليتنا لا ننزلق هذه المرة الى بئر النسيان . . ونتذكر ان الحرية المسؤولة الواضحة المعالم العادلة : نجمة . وحرية فئة في ظلم اخرى ، او حرية الجميع في الانفلات : محرقة .

٢٠/ ٨/ ٨٤

تحية الى لبنان

اعود اليكم . .

فهل اختال فوق جثثي العديدة التي خلفتها ورائي ؟ ارتـدي من اجلكم اعذب احزاني ، واروض وجعي لكم كالقرد المطيع الراقص في ساحات القرى ؟ . . وكالحاوي اخرج اليكم من أكمامي فجائعي المتلاحقة منديلاً حريرياً ملوناً تلو الآخر ؟ اهذا حقاً ما تريدونه مني ، ام تفضلون كلمة صدق في لحظة حرية ؟

***

اعود اليكم ،

فقد ادمنتكم وانتهى الأمر . نسيت كيف يمكن ان يعيش المرء بدون قارئه . انني اتقن فن العيش وحيـدة . بعيدة عن الصـديق الغالي والصـديق اللدود ، والاصحاب الذين يحبونني دون ان استحق ذلك ، والذين يكـرهونني لاسبـاب نجهلها معـاً ، هم وأنا ! لكنني لم افكر يوماً واحداً بهجر قارئي . كأن كل فراق آخر هو موت صغير لا بد منه للفنان كي يتجدد . . أما فراقه وقارئه ، فيعني الموت المطلق .

***

اعود اليكم . .

فلنتصارح منذ البداية : لا احب الصفحة الأولى ، صفحة ما بعد العودة . اشعر ان المرء يذهب فيها الى فعل الكتـابة كـما يذهب الى زفـافه . . يمشط الشعـر الغجري لكلماته المتوحشة . يقصه . يلمعه . يرتدي الكلمات المكوية باتقان ليغطي جراح اللغة النازفة على طول القارات ، ويسترها بالحروف البيض المنشاة كياقات قمصان السهرة ، ويحاول ان يكون عذباً مع الجميع مثل قط أليف يهز بذنبه للزوار طوال الوقت ، ويخفي مخالبه . يوزع ابتساماته (كـالبونبـون) . . يقطع كعكـة اللطف وهو يتمنى لـو يقاتـل بسكينه طواحين الهواء . . . وحروفي ألفت أن تأتي اليكـم مغسـولة بـأمطار الصـدق ،

طالعة من غسق احزان الوطن ، وجراح القلب العربي النبيل . . فهل تسمحون لي بأن اخلع قفازات المجاملة اللزجة ، وأتجاوز اللياقات المزورة ، واصول الانس في مخاطبة الزوار ؟ . . فأنتم اصحاب البيت ، وانا عابرة السبيل التي تطرق نوافذ نومكم لتعانق كوابيسكم ، او لتوقظكم من النسيان اليومي ، وتفك جراحكم المخدرة قطبة بعد اخرى . . . وربما لتخرج لكم أجنحتكم المنسية تحت اكوام المشاغل اليومية الصغيرة . . . لنطير معاً . . . .

***

أعود اليكم . . .

فلنتصارح منذ البداية : الكتابة فعل حرية . ورقعة الحرية ضاقت في زمننا هذا حتى صارت بحجم حبة (الفاليوم) التي نخدر بها ابجديتنا الجامحة كحصان يستعصي على الترويض . . الاوكسجين تناقص في مياهنا الاقليمية وتحولنا الى اسماك تختنق فتلفظها بحار الابداع . . واضحى المرء يذهب الى صدقه كالذاهب الى مشنقته . . وحين يضع عنواناً بعيداً عن مجاملة (متطلبات المرحلة) ، يشعر بأنه يضع بنفسه الكرسي تحت حبل مشنقته . وحين يكتب سطراً ، فعليه ان ينتبه الى (الدوزاج) ، ويذاكر جدول الحساسيات العربية التي يضاف اليها بند كل يوم . . وألف ممنوع وممنوع ومحرم عليك مراعاته قبل الكتابة . . . فلماذا الكتابة ؟ لماذا لا يعلن هذا الزمن العربي الرديء في معظم الاقطار انه لا يريد ادباء ولا صحافيين حقيقيين ، بل يكفيه زميلنا الخطاط ينسخ بالرقعي والثلث والكوفي نصوصاً جاهزة ممنوع مناقشتها ومحرم تبديلها ، ومسموح تلوينها فقط ، وحذار من تسجيل شارة استفهام او تعجب اضافية بعد احدى جملها ، والا تم ربطنا اليها واعدامنا ! .

***

لا ابداع بلا حلم خلاق ورؤ يا مستقبلية . ولا حلم بلا حرية . فلا تطلبوا منا بعد الآن جائزة نوبل ، ولا تسألوا اديباً في معظم أقطارنا لماذا كف عن الكتابة ، ما دام يكتب وعينه اليمنى على خواطر السلطة في ٢٢ بلداً عربياً ، وعينه اليسرى على رشاش (قبضاي) الحي . . .

منذ تقلصت حريتنا في بيروت ، تقلصت احلامنا . . وكنا نحلم بالوحدة من المحيط الى الخليج ، فصرنا نحلم بالوحدة بين الروشة وانطلياس ! . . . .

***

اعود اليكم ، وفي القلب جمرة . .

اتذكر كيف هجمت ذات يوم على الكتابة بحرية طفل يتسلق شجرة شفافة ملونة مضيئة محاولاً اكتشافها بفضول ، وقد تخلى عن كل اغراء آخر في الدنيا . . . وعاماً بعد عام ، تناثرت حولي جثث احبائي من رفاق القلم الذين آمنوا بأن الكتابة لحظة حرية ، وفعل صدق مع الذات والآخرين ، ودعوة الى الديمقراطية . . . تساقطوا عن الشجرة واحداً تلو الآخر بعدما تم (قنصهم) كالعصافير . . واعرف ان المقصود من قتلهم لم يكن التخلص منهم فحسب ، بل جعلهم عبرة لمن يعتبر . . .

فماذا تفعل امرأة مثلي اذا كانت من فئة الذين لا (يعتبرون) ؟ . . ثلث احبائها من القتلى ، وثلثهم الثاني في المنافي ، ومن تبقى في الوطن برسم القتل او التشريد او الموت كمداً ؟ قطع الارزاق من قطع الاعناق ؟ وكذلك قطع شريان الصدق الذي يرفد بالابداع قلم الأديب : كمن يقطع انبوبة الأكسجين عن فم الغواص .

***

أعود اليكم ، مغسولة بفجائع عشرة اعوام من الحروب والأهوال والكوارث . لقد زحفت اليكم وسط حقول الجثث والالغام . تطاير جسدي مرات عديدة على ارصفة السيارات المتفجرة . ذبحت على الحواجز كلها لأنني لن انتمي لغير طائفة « اللاطائفية » ، وافراد « ميليشيا المحبة » . . . تسلقت اليكم درباً قاسية متوحشة تهت فيها بين قصف العدو ومدافع الصديق وصوت الرعد . . لقد مررت بكهوف الجنون وانهارت الأبنية فوق أحب الناس اليّ . . . تساقطت عن فمي الكلمات كريش الطير في العاصفة ، ونسيت ذاكرتي ولم يبق بين شفتيّ المقددتين غير كلمة : الحرية . .

وحين اتحدث عن الحرية ، اتحدث عن حريتنا جميعاً ، لا عن حرية طائفتي الدينية ، او حزبي السياسي ـ لو انتميت يوماً الى حزب ـ واتحدث عن حرية مسؤولة ضمن شرطها الانساني ، لا عن حرية القتل او الانحلال الخُلقي . فقد بدأت مأساتنا في لبنان بعدالة اجتماعية اقل مما ينبغي ، وحرية اكثر مما ينبغي حتى ضاع الخيط الفاصل بين الحرية والفوضى ، وانتهينا الى خسارة كل حرية . . . .

اعود اليكم وانا اعرف ان الكتابة في هذا الزمن ليست مهمة سهلة للذين يريدون قول صدقهم الصغير المتواضع في وجه العالم الكبير المتعجرف . . والذين يرفضون التحول الى وقود في محرقة صراع انظمة ، معظمها متشابه في جوهره . . والذين يشتهون

الكتابة حواراً حراً لا (مصارعة حرة) ! . . ولكن . . .

***

اعود اليكم لنلتقي كل اسبوع حول بساط المصارحة ، في « لحظة حرية » عربية مسؤولة ، لأعرابية عرف اجدادها مـذاق الحريـة الأولى في صحراء الله الـواسعة . . . اعرابية منحدرة منذ مئات السنين من نسل اولئك البـدو الذين كـان الافق سطرهم ، والرمال الطليقة اللامتناهية الابعاد منبت حروفهم . . .

وحينما اتحدث عن الحرية ، لا املك الا ان اذكر اسم لبنان . . لقد كان لبنـان لحظة حرية في خاطر الزمن العربي . . . وكانت بيروت رئة العرب وحنجرتهم ، وبوتقة الانصهار الخلاق لفعالياتهم الفكرية وتطلعاتهم الانسانية والحضارية . . .

تحيـة الى لبنان الحبيب الـذي ستقتلونه بـإتقـان ، وستبكـونـه في قصـائـد رثـاء جميلة . . .

تحية الى معذَّبيه ومخطوفيه ومنفييه وأرامله ومعاقيه ومشلوليه ومهجَّريه ومغتربيه ، وفقرائه الـذين ازدادوا فقراً . . تحيـة الى ثواره الـذين يندس بينهم سـارقو الثـورات ، وابطاله الحقيقيين الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن ـ او لم يسقطوا بعد ـ ، وهم يتعثرون بجثث المجرمين والضحايا معاً ، وتختلط صور شهادتهم على الجدران بصور الذين قتلوا وهم يحاولون نهب الوطن ، لكنهم وجدوا (دكاكين سياسية) ومطبعة ، تفرضهم علينا كشهداء . . . تحية الـوفاء الى جـرحه . . لا لأننـا قطفنـا السنابـل الزرق من بحـره ، وسبحنا في خضرة سهوله ، وعرفنا دفـء ثلوج جباله ، بل لأنه كان لحظة حرية في الزمان العربي . . . وسيبقى كذلك حتى آخر رصاصة في بندقية مأجورة تترصد حناجرنا . . .

باريس ٣١/ ٨/ ١٩٨٤

قتلوه . . فانتحر !

المحبة وردة ،

والمحبة طعنة خنجر ، اذا اسيء استعمالها .

المحبة نار ، تضيء او تحرق . . وكم من آباء احرقوا اولادهم ، وهم يتوهمون انهم (ينيرون) لهم درب المستقبل .

حكاية ذلك الشاب تلخص المأساة .

طالب في الجامعة ، سنة اولى طب دونما حب ، رسب فانتحر . حكاية كلاسيكية . الأم تريد ابنها طبيباً لتتباهى به ، والأب يريده كذلك ، فابنه (العبقري) لا تليق به مهنة أخرى ، وشريكة المستقبل ستطالبه بأن يكون طبيباً لتضمن البيت والسيارة والخادمة ومعطف الفراء والخاتم الماسي والى آخره . . . والمسكين كان يعشق التمثيل ، ولكن من يبالي بمشاعر (الصغار) الذين يجهلون مصلحتهم ـ بالتأكيد ـ ، ومن يرضى بمهنة (الفن) الخطرة كمقامرة ، بديلاً عن عرش الطبيب ؟

* * *

بعد التأكيد على رفض مبدأ الانتحار (كحل) تحرمه الديانات السماوية كلها ، وبما ان الشاب انتحر وانتهى الأمر بالنسبة اليه ، نعود لنبحث ما تبقى من عناصر الحكاية حرصاً على عدم التكرار .

من السهل القول : « كان عليه ان يترك الجامعة الى الفن بدلاً من الانتحار» . . .

ولكن الاشياء لا تجري في الحياة على هذا النحو . فالاضطهاد بالمحبة قضية مركبة ومعقدة . . تربك الذي (يحاط) بها اكثر مما يربكه العدوان الواضح . . .

الاضطهاد بالمحبة نوع من القمع السري ، ندفع بالشخص الى ممارسته بذاته على ذاته تحت لواء الوفاء للام او الاب . . . انه يتحول الى شعور داخلي عميق بالذنب . .

ويقول المرء لنفسه الكلمات القاسية كلها التي يتوقع سماعها من ابويه لو خرج عن (بيت الطاعة) العلمي . . . ويضيف اليها عشرات الاضعاف من (الجلدات) بقدر حساسيته الشخصية وضعفه الداخلي امامهم . انه شعور مرير اعرفه لأنني عايشته .

***

كمعظم الطلاب في الأسر العربية المتوسطة واجهت مرحلة « ابنتي ستكون طبيبة » . يبدأ الأمر في سن مبكرة جداً ، حين يكون عليك ان تختار الفرع العلمي او الفرع الأدبي . وهكذا كان ، ورضخت لـ (نصيحة) الوالد ، ونلت البكالوريا العلمية وفي اعماقي عصفور سجين يكاد يحتضر . . . بعد حصة تشريح (العلقة) كاد يغمى علي . . وفي الامتحان كان المطلوب تخدير حمامة ، وقص قفصها الصدري دون ان يتوقف القلب . . (اي ميني عملية جراحية) . فإذا ماتت الحمامة قبل ذلك ، رسبت ، واذا نجحت في فتح صدرها وشاهد الاستاذ قلبها نابضاً ، توفقت .

***

امسكت (بالسؤال) بين يدي . . حمامة سلام نصف بيضاء ، حية ، دافئة ، تتطلع الي بعينيها الممتلئتين دهشة مثل طفل عذب . . . ثم ترتجف بين يدي وتنبض ذعراً كأنها حدست بالتخاطر ما نعده لها من ميتة بين المشارط والكلوروفورم . . وصارت تحرك جناحيها كصرخة استغاثة . . . وفكرت : هذه الاجنحة لن تلامس المطر بعد اليوم . . لن تحلق فوق البحر . . لن تلتقط الحب عن العشب . . ولن تنوح امام سجن ابي فراس الحمداني . . وقلت لها : « أيا جارتا لو تعلمين بحالي » . . . وتسللت بها نحو النافذة ، وتركتها تطير صوب جبل قاسيون لتغازل القمر ليلاً بمنقارها العذب . . .

وجاء الاستاذ يسألني ماذا فعلت بالحمامة ؟ وقلت له ببساطة : (السؤال) طار يا استاذ .

قال : ومستقبلك ايضاً طار . .

ولم انتحر وانما صارحت ابي بالحقيقة ، ولم يكن الأمر صعباً لان الوالد تفهم ، وهو الذي طالما رصد بمنظاره الأبوي جنوح باخرتي صوب جزيرة الحرف . . . وكلية الآداب . . ولكن لو . . . لو اضطهدني والدي بالمحبة ، لو جعلني اشعر بالذنب بصورة غير مباشرة . . . لو اقنعني دونما كلمات بأنني خيبت امله وكسرت حلمه ،

لو . . . لتبدلت اشياء كثيرة . . . كما حدث لذلك الشاب المنتحر . . . الذي شهروا حبهم عليه ، واغمدوه فيه بطعنة نجلاء . .

* * *

كم من طبيب نال شهادته ثم مارس مهنة اخرى . . وكم من طبيب يمارس المهنة بنجاح ، وعينه على الأبجدية وقلبه على الشعر . .

وكم من اطباء التقيتهم ، يعون الشعر وتضاريس الروح اكثر مما يبالون بالجسد وجغرافية جهاز الهضم . . وكم من اطباء يحيطون (بالسكتة النفسية) اكثر من (السكتة القلبية) . . ومنهم من لم يرغمه اهله بصورة مباشرة على ممارسة المهنة ، ولكن . . .

ثمة جو اجتماعي يمجد مهنة الطب ، وهي تستحق ذلك كمهنة انسانية بالتأكيد ، لكن التمجيد ينصب غالباً على الحقوق التي ترافق تلك المهنة ـ لا الواجبات ـ هذا الجو الاجتماعي يتحول الى اداة قمع عاطفية ، اداة ترغيب اكثر ما هي اداة ترهيب . . وينزلق البعض احياناً في درب لا تتفق وعالمهم الداخلي . . وينكسرون غالباً . . .

* * *

ثمة مهن يحذر منها الأهل و (المناخ الاجتماعي) معاً . . وعلى رأسها الفن . . . فالحرف اليدوية . . ولا ادري ماذا يفعل هذا المجتمع لو تحققت الامنيات وكان الابناء جميعاً من الاطباء ! . .

ويخيل الي ان المهن كلها محترمة وانسانية وضرورية على حد سواء ما دام المرء يمارسها بحب وشرف وصدق . . .

والطاهي الجيد خير من الطبيب الفاشل . . والعامل المخلص خير من الفيلسوف المزيف . . والفلاح الاصيل خير من البروفسور الدجال . . فما رأيكم ؟ . . .

* * *

ذلك الشاب الرقيق الفاشل في الطب ، المنتحر تلح صورته وتثقل على صدري كامرأة عربية في مجتمعنا المعاصر الذي يأكل ابناءه احياء ويفترسهم واهماً انه يصلحهم . . .

ذلك الشاب ليس فاشلاً وانما اسرته هي التي فشلت في فهمه ومجتمعـه فشل في احترام ما كان يتمناه مهنة : الفن . .

وهو لم ينتحر . . . حاصره القمع الاجتماعي غير المباشـر متحالفـاً مع (حب) الاهل ومات مقتولاً . . فالانسان الذي يرغم على ممـارسة مـا لا يحب ، هو ميت مـع وقف التنفيـذ . . تابـوت متحرك تتصـارع فيه شتى مشـاعر الحس بـالـذنب والـرفض والذعر من تخييب الآمال . . .

ذلك الشاب وجد نفسه مقتولاً ، فأعلن على الملء نبأ وفاته بأن انتحر . . .

٢٢/ ١٠/ ٨٤

غيرة !

هل ثمة من لم يذق لذعة الغيرة ؟
تلك الوقفة الذليلة بين التكبر والبكاء؟
تلك المسيرة الكئيبة بين الانهيار والعجرفة ؟
بين ان تحسد الآخر كارهاً ، او تغبطه بود ؟ بين ان تمقته او تتمنى ببساطة لو كنت موضعه ؟
بين ان تداري خجلك مشفقاً على ذاتك ، او تغني بصوت عال في ظلام مخاوفك مدعياً اللامبالاة . . .

***

لا اتحدث عن الغيرة الصغيرة التي جوهرها حب تملك شخص آخر ، او الغضب لمجرد انه يستطيع ان يكون سعيداً مع سوانا . . .
اتحدث عن غيرة شاسعة كدروب المجرات . صامتة كقلم داخل مبراة . غامضة كنظرة محتضر نجهل قاتله . سرية كخط طفل لما يتعلم الكتابة . مهيمنة كشمس صحراوية .
اتحدث عن الغيرة امام الحرية .

***

كل مشرد مثلي ، يمر بغصة امام مظاهر الحرية البسيطة الاليفة التي يتمتع بها الفرد في اقطار اخرى ليست له .
« والغصة » ليست كافية للتعبير عن هذا الشعور . ولا « الغيرة » إلا بمعناها الشاسع المتوحش التي حاولت وصفه ، الغيرة الغزيرة بعدد حبات رمال العالم العربي ! . .

كلما اودعت رسالة في بريد باريس الى صديق يسكن قطراً اوروبياً ، اشعر بالغيرة . . .

فالبريد في بعض الاقطار العربية يرفض ان ينقل بحرية اشياء كثيرة بريئة وعلى رأسها الكتب .

وكلما اودعت رسالة عن طريق احدى الشركات الخاصة بنقلها مستعجلة (مثل شركة الدي ـ اتش ـ إل) مثلاً ، اشعر بغصة .

اتذكر يوم رفضت احدى هذه الشركات الخاصة ـ ولا حاجة لذكر اسمها ـ نقل رسالة ادبية تتضمن حواراً صحافياً مع رفيق حرف في احد الاقطار .

* * *

لن انسى ذلي يومها بين الموظفات الفرنسيات . الرسالة الى قطر عربي ؟ هذا يتطلب عناية خاصة . اخرجن الحوار الصحافي من غمده ، وفتشن المظروف بعناية كأنني دسست بين الأوراق احدى راقصات السين او ملابسها الداخلية !! . . . . ثم بدأت مرحلة المباحثات حول صوري المرسلة مع الحوار الصحافي . حسناً . انها محتشمة . سألتني : هل انت عارضة ازياء ؟ مطربة ؟ راقصة . قلت لهن : لا لسوء الحظ . انا لا أحد . قلن : حسناً . الصور يسمح بها القطر العربي لأنها محتشمة وعادية ، اما النص ، فلا بد من مروره على الرقيب . . .

الرقيب ؟ هنا في باريس ؟ وفوجئت بأن الشركة وظفت (رقيباً) عربياً يقرأ النصوص العربية ـ أياً كانت ـ قبل ارسالها الى ذلك القطر الحبيب ، تحت طائلة منع الشركة من العمل في ذلك القطر اذا خالفت قائمة الممنوعات !

وشعرت بالخجل امام موظفات الشركة ، انا التي اباهي دوماً بأنني عربية اينما حللت . لماذا كوني عربية يعني كوني مراقبة ، وثمة موظف خاص بأمثالي يقرأ نصوصهم المشبوهة ؟

والطريف ان رقيب الشركة رفض نقل الحوار الصحافي ، اما رقيب الوطن فلم يرفضه ورحبت الصحف به يوم صدوره بعدما تطوع بحمله صديق . . . فلماذا نعطي الغرب صورة عن انفسنا هي اسوأ بكثير من حقيقتنا ؟ ولماذا يرفض (رقيب باريس) ما يحلله رقيب ذلك القطر العربي الحبيب نفسه ؟

* * *

اغار من حرية الكتاب في التنقل في الغرب . اشتهي ان ارسل لأحبائي في غير قطر عربي كتباً جميلة حقاً ، او لوحات فنية بديعة لكنني اعرف ان معظمها سيتعرض للمصادرة وسيقطع رأسه اذا مده عبر الحدود . . .

اغار من حرية الكتاب هنا ، والرسالة والتنقل والافكار . . . . اغار . . .

تمطر الدموع السرية في حنجرتي كلما التقيت بصديق غادر جنسيته العربية الى الكندية مثلاً ، فأضحى مطلق السراح في السفر الى بلجيكا وغيرها من الأقطار دون تأشيرة دخول مسبقة . . اما صديقتي اللبنانية المسافرة الى اسبانيا مثلاً ، فعليها ان تحضر ورقة من سفارتها تثبت ان جواز سفرها ليس مزوراً ، وهذا كله قبل البحث في أمر اعطائها تأشيرة دخول او لا . . . ولكل قطر مطالبه منك . . فهذه سفارة تطالبك بأوراق تثبت انك حجزت في فندق السياحة او العمل ودفعت سلفاً ، واخرى تطالبك ببطاقة الطائرة وبحساب مصرفي (لائق) والا ، فالكرة الأرضية قد اوصدت ابواب اسوارها دونك . .

* * *

ولا تحتج ، لأنك لا تلقى معاملة افضل ـ كعربي ـ من سفارات بعض الاقطار العربية . . . بل ان بعضها يذلك احياناً للحصول على تأشيرة دخول اكثر بكثير مما يفعله الغرب بك . . . فلمن تشكو ظلم الغريب وانت ترزح تحت ظلم الحبيب ؟ وماذا تملك امام موقف موجع كهذا غير الغيرة ؟ الغيرة من حرية الحركة لدى الأوروبيين فيما بينهم ، وصعوبتها بين العرب انفسهم في غير قطر . . . وويل لك إذا كنت لبنانياً او فلسطينياً . . . ستوصد في وجهك ابواب بعض بلاد العرب ، وقلبك عصفور ينبض شوقاً الى معرفة تلك الأرض التي نتحدث جميعاً عنها كوطن عربي واحد وأمة واحدة . . .

نرجوكم . . قولوا لنا الصدق . . . هل تصدقون انتم ما تقولونه لنا حول الأمة العربية الواحدة ؟ وكيف نمارس عروبتنا اذا لم نتعارف ، ونتواصل ، ونقترب من بعضنا بعضاً وتتلامس مناخاتنا النفسية والفكرية ؟ وكيف نتعارف ونحن نحيا حرمان حرية اللقاء رحيلاً سياحياً او لقاء على جسر الكتب والرسائل والصحف . . اي جسر الكلمة ؟ . . .

* * *

متى نتحدث عن العروبة أقل ، ونمارسها اكثر ؟ ومتى يكره بعضنا بعضاً اقل ، وعلناً ؟ ! . . .

وحتام نظل نغص أمام حريات الآخرين اليومية الأليفة ؟ . . .

ولماذا (الوحدة الأوروبية) تكاد تكون قائمة عملياً كممارسة دون ان يتحدث احد عنها او يستعمل هذا التعبير ، فيما تكاد عبارة (الوحدة العربية) تتحول الى حلم شاعري بعيد المنال ؟ . . .

باريس ١٢/ ٦/ ٨٥

لسعة حب

صديقة عزيزة ازورها كلما داهمني الحس بالاختناق في الفضاء الشاسع للغربة . . . وأجد في اخلاصها ومرحها وصفائها خير عزاء .

فوجئت بها هذه المرة شاحبة ذابلة تكاد لا تقوى على الوقوف . قالت انها سهرت الليلة السابقة واصدقاء ، وتسممت وعانت الكثير حتى طلع الفجر .

سألتها : ماذا أكلت ؟ الم يتسمم غيرك من الطعام ؟

فصمتت . وفهمت انها تسممت بلسعة (صداقة) او (حب) . . . وحين روت لي حكايتها الموجعة وسم الصداقات اللدودة ، رويت لها حكايتي السعيدة والثعابين اللطيفة ، وتاريخ تلك العلاقة الطويلة من الحب المتبادل . . .

***

بدأت علاقتي الودية والأفاعي قبل سن المراهقة بعامين . . . اي حينما يبدأ المرء باكتشاف انياب بعض البشر ، ويلحظ عضاتهم السامة على جسد دهشته وبراءته . . .

كنت اتمدد كعادتي فوق احد اغصان شجرة الدلب الكثيفة ، على شاطىء بردى في قرية الشامية . . . لا صوت غير هدير المياه واغنية الرياح ورائحة السلام تفوح من الخضرة المضيئة لاوراق الاشجار . . . وبين النوم واليقظة ، كنت افكر بالمجرات المهرولة خلف بشرة السماء الزرقاء ، وبالإله العظيم خالق هذا الكون من المحبة ، واحسست بشيء ناعم يزحف فوق ذراعي ، وكان ثعباناً ملوناً جميلاً من مخلوقات الله البديعة . . . كنت في تلك اللحظة اتدفق حباً نحو كل ما يحيط بي أو يمسني ، وغسلت ثعباني بنهر المحبة وانا اتأمله وهو يتابع رحلته فوق صدري فعنقي فغصن الشجرة ويختفي بأمان في الاجمات الكثة الخضرة . . .

وهرولت ونشوة حقيقية تشعل حواسي ، وابلغت اخي وبقية رفاقه الصبيان

الملاعين ان افعى عبرتني ولم اخف . . . وانتشر النبأ ، واستقبله اولاد القرية الذين يرفضون اللعب مع البنات (حرصاً على مكانتهم في هذا الكوكب) بكثير من التشكيك . . .

***

جاءت لحظة الامتحان . طلبوا مني السباحة في بركة سقي البستان . وكلنا يعرف ان بركة (السقاية) مليئة بالثعابين المائية ، وكنا نراها ترقص فرحتها البنية في القاع بعد تفريغ المياه الا من طبقة رقيقة طينية . . . وكانت شرارة الحب في اعماقي اقوى من حكايا الخوف التي نشأنا عليها . . ولم يكن في مقدوري ان افهم لماذا احب صديقة غدرت بي واكره افعى لم تؤذني . . .
وسبحت امام العيون الطفلة المذعورة ، وشعرت بالأفاعي المائية تواكبني وملمسها الناعم يحنو على بشرتي،ورقصنا معاً بهدوء وانسجام في ايقاع فرحة الشمس والمحبة ، وببراءة الحياة في كائنات ارض الله الطيبة . . . وتوجني الصبيان اميرة المشاكسين رغم معرفتنا يومها بأن الأفاعي المائية غير سامة . . . او هكذا كنا نتوهم . . .

***

علمني يومها ساحر القرية : تمسكين بالأفعى من رأسها أولاً ، وتغلقين فمها . ولا تقبضين على واحدة اطول من ذراعك كي لا تكون عضلاتها اقوى منك وتلتف حول ساعدك بشدة وتشل يدك. بعد الملامسة الأولى تغمضين عينيك وتسترخين وانت ما تزالين تمسكين الرأس بحزم . . . دعي مشاعرك الودية نحوها تتدفق منك اليها سيالات ضوء . ولتدخل كهارب المحبة قشرتها . تفرغي لتحسس اعماقها ، هل تتجاوب معك ؟ هل تبادلك ذلك التيار المتعاطف الذي لا اسم له ؟ وبعد ذلك ، تستطيعان اللعب معاً . . .
وبعد اشهر ، صار ضيوفنا يشاهدونني وانا العب مع الأفاعي وانام في رعايتها ، واعضها احياناً مداعبة ويخيل الي انني اسمعها تقهقه معي ، هي واوراق الاشجار ونهر بردى والقطط والسحالي والنجوم ، ومخلوقات الله البديعة كلها . . .

***

ومرت الايام بحلوها ومرها حتى كان ذات يوم صيف متوحش . . . مات ابي

فانكسر قلبي وانهرت وكما يحدث لكل من يسقط ، تخلى الجميع عني - الا فيما ندر - واحاط بي كل صديق لدود ، حاملاً سكينه بانتظار سقوطي الأخير ليبدأ موسم الطعنات . . . احترقت وحيدة في فندق « الكسندر » البيروتي حيث كنت اقيم ، وخرجت من رمادي كما حدث لي مرات عديدة في حياتي ، وعلى جسد ايامي لسعات الأفاعي البشرية (الحبيبة) والصداقات المفخخة . .

وجاءتني يومها صديقة وزوجها بهدية من القرية : ثعبان صغير طلبته منها ليؤنس وحدتي . وحملت الثعبان الى غرفتي ، وشرب نخب لقائه بي بيضة نيئة ، وارتعش محبة ووفاء . . . كان ثعباناً طفلاً ، اخفيه في خزانتي كلما ذهبت الى العمل . .

ولكن صديقة اخرى كشفت سره حينما نشرت خبراً في احدى المجلات عنه . . . ودب الذعر في الفندق ، وهدد جيران غرفتي بترك المكان ، ورفضت سيدة التنظيفات الدخول الى (جحري) اذا لم يغادره الثعبان المسكين . . .

وودعته بحزن عند شاطىء البحر ، وعلى عنقه لسعة سم من اشخاص كرهوه دون ان يعرفوه . . . وشردوه . . .

***

ولم اترك يوماً فرصة لصحبة ثعبان الا وانتهزتها . . . وفي زيارة الى قرية بطرام - الكورة - شمال لبنان ، قال لي الصديق المرحوم خليل سالم : في قريتنا رجل يربي الافاعي . . . وبعد دقائق ، كنت احمل احدى افاعيه الكبيرة ، واهرول بها في ازقة بطرام خلف ناقد عربي رافقنا في الزيارة . . . والقرية كلها تضحك للمشهد . . . وزوجي يختبىء شبه شامت !

***

رويت لصديقتي هذه الحكايا وسواها عن علاقتي الودية بالثعابين ، فنسيت عضة (ثعبانها) الحبيب ، ولسعة (افعاها) الصديقة ، وفارقتها اوجاع التسمم وهي تنصت لحكاياتي اللامتناهية عن الحيات منذ كانت جدتي تحترم حضور افعى عتيقة في بيتنا تدعى (الالفية) - المفروض ان سنها الف عام - وتطلب مني ان اقول لها : « سيري يا مباركة » اذا شاهدتها ، حتى لقائي الاخير وافعى اوروبية في الالب . . .

وغادرت صديقتي وهي تضحك ، بينما استعدت انا ذكرياتي الحزينة مع

(لسعات) الاحباب وسم بعض الاصحاب وفحيحهم . . . ولم تعد الي الابتسامة الا حين تذكرت نكتة الزميل العزيز ميشال ابو جودة التي ما تزال تضحك بيروت لها حتى اليوم ، حين غاب احد محرريه ولما سأل عنه قيل له : انه مصاب بالتسمم . . .

وقال الاستاذ ميشال وهو يهز رأسه بتفهم: مسكين . . . يبدو انه ابتلع لعابه ! . . .

دوفيل ١٥/ ١٠/ ٨٥

حضرة المليونيرة

بدأت المتاعب يوم أهدتني صديقة حقيبة فاخرة (كروكوديل) ، سلخوا لأجل صنعها جلد ملكات جمال التماسيح في أفريقيا وتايلاند وبلاد الهند والسند . حقيبة تليق حقاً بأن تحملها مليونيرة ، وتودع فيها بعض مجوهراتها وسنداتها العقارية والتجارية . . فأودعت فيها مخطوطة روايتي « السقوط الى القمة » أشهر رواية عربية غير منشورة ! . . . وفي المطار ، طارت الحقيبة على يد سارق توسم فيها ثروة . . . وأتخيله باع أوراقها للبقال وتم صر النعناع والفستق والبندق في صفحاتها المكتوبة بدم البحر الأزرق . وتعلمت درسا . صرت أضع مخطوط أي عمل روائي في مكان لا يجذب اليه السارق رأفة بي وبه . . وروايتي « ليلة المليار » حملتها في « صندوق حذاء » يوم عرضتها على الأصدقاء وبينهم الأستاذ باسم الجسر مدير معهد العالم العربي في باريس . يومها بدوت امرأة تسوقت « حذاء سندريللا » لفرحها بتلك العلبة التي أوسدتها صدر الجلسة وعرضت ما فيها على الأحباب ، وفوجئوا بصفحات الرواية المتنكرة ! . . .

***

الأوراق تحترق ، لكن الكلمات تطير . هذا القول يصح في الأعمال المنشورة وحدها للأسف . . . فقد أعدت كتابة « السقوط الى القمة» بكل عناد ، فسرقها القدر مني هذه المرة . ففي حربنا اللبنانية ، شرفني صاروخ بزيارته منتقياً غرفة المكتبة ، واحترقت أوراق الرواية ، والكلمات معها . . . والجدران . .

وطالت الحرب ، وصارت النار هاجسي . تلك العلاقة العاطفية المحمومة بين اللهيب والورق لا تصدق. . .ما يكاد أحدهما يلمح الآخر حتى يأكله شوقاً في جحيم من القبل لا تخلف غير الرماد . . . بسرعة الحب من النظرة الأولى . . . التعايش السلمي بين الأوراق والقذائف مستحيل ، و« فك الارتباط » ، أو « الهدنة » أو « الصلح » أوهام . . . وقررت : يجب أن تغادر أوراقي بيروت . . .

الذين يعاقرون الكتابة يعرفون تلك الأوراق المتناثرة التي يخط عليها الكاتب أفكاراً تمر بخاطره كالفرحة ولا تتكرر . . . وإذا لم يسجلها لحظة وصولها في أي وقت ، تهرب الى دهاليز النسيان . . . فمن ملحوظة مسجلة على ورقة في مطعم ، أو علبة سجائر أو لفافة أو طرف جريدة الى أفكار قصص وموضوعات في دفاتر خاصة بها . . ركام غريب من « الشيفرات » التي لا يفك لغزها سواه ، شرط ألا تضيع . . . وقررت : ستهاجر أوراقي الى مكان أمين . . . . وسأبقى في بيروت .

***

هل كان الذي اخترع خزائن المصارف المصفحة يتوقع أن تتحول من مكان لحفظ الذهب والمجوهرات والسندات المالية ، التي كل ورقة فيها توازي ثروة ، الى مكان لحفظ أوراق غجرية لا قيمة لها الا في نظر صاحبها ؟

هذا ما فعلته . . . واستأجرت خزانتي الأولى في المصرف في لندن ، وكان الأمر مذهلاً . . . موظف يتقدمني وآخر يمشي خلفي ، كما في موكب الملكة اليزابيث ، وطقوس ، ولا بد من توقيعي السحري ليفتح الباب المصفح الأول ونهبط على السلالم الى باب مصفح آخر من الفولاذ ، سمكه نصف متر على الأقل . . . وكما في غواصة ، تدار أكرة الباب الضخمة ، وتجد نفسك وسط تابوت شاسع رصفت فيه الخزائن الصغيرة كالنوافذ الموصدة على البراءة . . نصير في الداخل ، موظف يقف أمام الباب كحارس ، والآخر ينحني لي بالرغم من (بنطلوني الجينز) وثيابي العادية متوهماً أنني مليونيرة متنكرة ، ويتناول من يدي مفتاحي كي لا يزعج طراوة الأنامل المرفهة (!) بالعملية الشاقة لادارة المفتاح في القفل ! . . . عفواً . . . ثمة مفتاحان ، مفتاحي الخاص ، والآخر الخاص بالمصرف. . . والخزنة تفتح بهما وتقفل بهما زيادة في الحرص على المجوهرات الموهومة لحضرة المليونيرة . . . فتح الموظف باب الخزانة ، وكم خاب أملي حين اكتشفت انها قد تتسع لمجوهرات التاج البريطاني لكنها لا تتسع لدفتر مذكراتي !! ولا لربع أكداس الرسائل والأوراق التي أحملها متنكرة داخل « علبة قبعات» ! . . . سحب الموظف من الخزانة ما يشبه (الجارور) الحديدي المغلق وحمله باحترام نحو منضدة تتوسط المكان . . قدم لي مقعداً مخملياً كي لا أتعب من الوقوف ، كأنني قادمة من قصر أتجول داخله في مركبة ذهبية!! ولم أقل له أنني وصلت قبل قليل بالمترو، بل جلست داخل شبح حضرة المليونيرة لاستريح مجاناً ! . . وتركني الموظف أدبر أموري ووقف وقد عقص يديه عند الركبتين ، وأدار وجهه خشوعاً للثروة الماسية والزمردية التي

يتخيل أنها تلامس الصندوق . . . فأودعت فيه ما اتسع له من رسائل أدبية ثمينة في نظري ، وفشلت في حشر أي من دفاتر مذكراتي العشر . . . . ثم أغلقت الغطاء وقلت « اخم » وتنحنحت ، فهرول الموظفان لحمل الكنز ، وأغلق الصندوق أمام عيني بالمفتاحين كما تقتضي الأصول ، وغادرنا المكان كما جئنا في موكب ملكي لا ينقصه قرع الطبول التي خيل اليَّ أنها تصدح من وقع خطانا على الحديد البارد للسلم اللولبي .

***

توسلت الى مدير المصرف : خزانة أخرى كبيرة . أرجوك . . . قال : هذا أوسع حجم لدينا . . لكننا نستطيع ايداع طرود السندات في مخزن المصرف ، ونعطيك وصلاً به . سألت : هل المكان أمين ؟ وكأنما أهنته ، أجاب غاضباً : تجار الماس جميعاً يودعون طرودهم في مخزننا . انه أكثر أمناً من « فورت نوكس » . . .

ومع ذلك قبلت على مضض . لم يكن أمامي خيار وأنا مضطرة للعودة الى بيروت . وذهبت الى الموظف ، لوضع (الكنز) في طرد خاص ، وكان من أصل هندي ، نظر بدهاء الى دفاتر مذكراتي واهماً كل دفتر علبة مموهة وقال بلكنته المحببة : لم أر مخبأ للمجوهرات كهذا من قبل ، قلت له : وأنا أيضاً !! وتم لف (العلب) بورق خاص ، والصاقه ، وربطه بخيوط تختم بالشمع الأحمر ، ودهش الموظف لتلك المليونيرة المتواضعة التي تساعده وتمسك المقص شخصياً ، وتجرح يدها أيضاً ، ويسيل دم احمر اللون وليس ازرق . والواقع أنني دهشت أنا أيضاً لأن دمي أحمر وكنت أتوهم أن دورتي الدموية تضخ الحبر لا الدم ! ولا أدري لماذا ختمت الطرد بدمي ، كما فعل فاوست حين وقع صفقة مع الشيطان بدمه . . . كأنني أفعل الشيء ذاته ولكن مع شيطان الشعر ! .

***

وعادت الأوراق تتكدس . وعادت الحرب الى بيروت ، فعدت أفتش عن مصرف يتسع لأوراق هذياني . وقيل لي : في المصارف السويسرية تجدين أكبر الخزائن حجماً . . . ومن يومها فتحت خطاً جوياً مع سويسرا توهمه بعض أصحابي خطاً عاطفياً . في المصرف السويسري الأبهة أكبر ، والمعاملة لا توصف . أودعت مبلغاً صغيراً من المال كنت قد قبضته من المجلة التي أعمل بها ، وطلبت أكبر ثلاث خزنات مرة واحدة . . . وظنوا أنفسهم أمام ابنة سرية لأوناسيس ، أو ابنة مجهولة لهتلر أو وارثة القياصرة أو أميرة شرقية هاربة بكنوز ألف ليلة وليلة . . وهرول مدير البنك بعدما نقلوا اليه النبأ ، وانحنى يقبل

يدي الموسخة بالحبر ، وأعجبه اسمي (المستعار) ، وجواز سفري (المزور) ، فهو لم يسمع بعد « بسمكة قرش » في عالم المال تحمل اسمي . . . ورحب بي باللغات كلها ، بلكنة المانية ، لغته الأم . . .

***

وصرت كلما زرت المصرف أحمل في حقيبة (الخضار) أوراقاً جديدة انقذتها من خطر الصواريخ المحتمل في بيروت ، أجد استقبالاً (ملوكياً) في المصرف السويسري . موظفة تفتح الباب لي ، أخرى تفتح الخزانة الأولى وتدير وجهها ريثما أخرج منها بقية المفاتيح (مفتاحان لكل خزانة . . . ستة مفاتيح كبيرة ثقيلة ، وأنا لست ناطورة المفاتيح ، لذا أودعتها كلها في خزانة واحدة وحملت مفتاحاً اذا ضاع ، ضاعت كلها معه !) . . . أما كلب الموظفة التي لا تقدر على مفارقته وتخفيه بهدوء في غرفتها ، فقد تصرف وكأنه وحده يحدس سري ، وينبح علي من دون الزبائن جميعاً ، لكنها تقمعه بشدة لأجلي خوفاً على مشاعر « حضرة المليونيرة » المتنكرة في ثياب غجرية . . . وكانت الموظفات يتركنني لحالي في الغرفة المصفحة ، اراجع (سنداتي) وأجمع ثرواتي ، وأكدس سبائك الذهب وحصى الماس في (خزناتي) ! . . . بل وتم تكميم الكلب وتكبيله اكراماً لي ، رغم تغاضي مدير المصرف عنه إكراماً للموظفة الحلوة . . . وطالما قلت للموظفات أنني امرأة عاملة مثلهن ، وليس في خزائني غير الأوراق . . فكان (تواضعي) يزيدهن حباً وتقديراً وانحناءات وابتسامات وسلامات وآهات حسد !

***

وفي رحلتي الأخيرة الى سويسرا منذ أسابيع ، انكشف السر . . . كنت في البنك ، ألملم (نوطات) روايتي القادمة . . . ونسيت نفسي . . نسيت أنني في الغرفة المصفحة لا في غرفة مكتبتي . . أخرجت أوراقي كلها من الخزائن الثلاث وكومتها على الطاولة ، وبدأت أعمل ، وأنثر سجائري ومعطفي وشالي وحذائي وأغني وأحضّر لروايتي القادمة ، سعيدة بانجاز « ليلة المليار » . وداهمتني الموظفة وهي تحمل الي فنجاناً من القهوة . لم الحظها حين جاءت ولا أدري كم طالت وقفتها وهي تتأمل خزائني الفارغة وطاولة المصرف تغطيها أوراق هزلية كدفاتر الأطفال وقد تحولت الغرفة المصفحة الى مكتبة بوهيمية . لم تقل شيئاً . لكنها خرجت بخطى سجانة وكادت تتعثر بحذائي . بعد قليل جاءت زميلتها تبلغني بلهجة جافة : البارونة قادمة ، فالرجاء لملمة (حاجياتك) . ثم جاءت أخرى تقول : ممنوع انفراد الزبائن بالغرفة وحدهم .

ووقفت تحرس المكان . . ولحقت بها أخرى ورابعة ثم حضر بقية الموظفين يتفرجون ساخرين . وكنت قد أنجزت تجميع أوراقي وأعدت ما تبقى . . . صحيح أنني أنفق نصف راتبي أجرة استئجار هذه الخزائن . . . ولكن لا خيار لي مع نار الحرب . وغادرت المكان . لم يمسك أحد لي بالباب . لم يقفل أحد عني خزائني . . الموظفة لم تدر قفلها في الصندوق الأخير تعبيراً عن احتقارها ، وحين نبهتها الى ذلك قالت أن (ظهرها) يؤلمها اليوم والصندوق منخفض الموضع . . وستفعل ذلك ربما في المرة القادمة !! . . وغادرت المكان دونما انحناءات وتحيات وابتسامات تشق الخدود ، بل وتم اطلاق سراح الكلب . وكانت المفاجأة : للمرة الأولى لم ينبح أو يهاجمني . . هز لي ذنبه بود ، ولعق ركبتي بحنان ، كأنه يعتذر عن صاحبته والكوكب بأكمله . . وقلت له منحنية مودعة : يا صديقي . . حضرة المليونيرة تفتش عن مصرف جديد !! . . هل تعرف مكاناً آخر ؟

جنيف ١٧/ ١١/ ٨٤

الحب الكبير

أعترف بأن الطقوس « الطعامية » تستفزني ، كالمجاعات .

تذهب مفجوعاً لتعزي بانسان أحببته ، ولا تصدقِ أنه مات . . . فتجد الموائد ممدودة ، وروائح الطبخ آتية عاصفة من البهارات واللذائذ ، وجثة الصديق ما تزال مسجاة في فراشه . . . وبينما هم يغسلونها تمهيداً لدفنها ، تكون الأيدي الماهرة مشغولة بغسيل الدجاج والسمك والحمام تمهيداً لطبخها . . .

والحزن يقضم قلبك ، ترى الأهل والأصحاب يقضمون الأطايب ، وقد أحاطوا بالمائدة ملتهمين الخروف الذي يتوسطها ، كأنه القاتل ! . . . وتشعر بالغثيان من رعايا الشراهة . . .

***

ما من فعالية اجتماعية عربية الا ويزج فيها بسيقان مائدة طعام . . . دونما « نبرة اعتدال » ، و « خير الأمور الوسط » في هذا المجال . ففي الاحتفال بالعرس تنصب الموائد ، وينشغل الأهل بتدوين قائمة الطعام أكثر من انشغالهم باعداد بيت العروسين . . . في الاحتفال بصلح سياسي . . . تحضر الخراف والديكة قبل « الدية » ، ويتم « تبويس » الشوارب واللحى المبللة بالثريد والمرق والدهون على ايقاع أنشودة الصحون . . .

فقد تحول الطعام من وسيلة للعيش ، الى أسلوب في الحياة ، وصارت له مهمة اجتماعية هي الاعلان عن القوة والثراء عبر قنوات التبذير . .

وأضحت المائدة كمعطف الفراء ، مجرد رمز للقوة الشرائية لصاحبها ، الغاية منها ادهاش الناس قبل اسعادهم . . . أضحى الأكل ديكوراً اضافياً ، والجوع يلتهم نصف اطفال أفريقيا . .

وتأتي أمثالنا الشعبية فتغذي تلك النزوة « الالتهامية » بوقود تراثي . فيقال

« الأكل على قدر المحبة » ، فأية محبة تلك التي تقاس بأفخاذ الدجاج وكلاوي الغنم وأكوام الرز المبهر ؟ أما من وحدة قياسية أخرى للمحبة ؟ . . .

قلت ذلك كله لنفسي وتذكرت عبارة جورج برنارد شو : « القادر يفعل ، والعاجز يعظ » . . .

فقررت أن أفعل . . .

وأن أكون البادئة بتغيير تقاليدنا الشرهة الالتهامية . . . وحين دعوت الى العشاء صديقي المصاب بمرض السكري ، وارتفاع الضغط ، قررت أن يكون « الأكل على قدر المحبة » ، ولكن المحبة الواعية . . . فماذا حدث ؟

حرصت على أن تحوي المائدة طعاماً من المشويات البسيطة والخضار الخالية من الملح لأجل « ضغطه » ، ومن المعجّنات لأجل نسبة السكري في دمه . . . وبدت المائدة مثل ربيع لطيف ، لا يؤذي العافية ولا يبلد الحواس بعد ملء « الكرش » العزيز . طبق واحد كان يخرب انسجام نعومة المائدة ، لما فيه من رز ومرق وسمن ولحم وشحم وملح وإلى آخره . . . وكان لا بد منه لاطعام الصبي الصغير، نجل صديقي . وتوقعت أن يشكرني الصديق على أفكاري النيرة ، و « رهافة » مشاعري نحو مرضه ، ويتلذذ بدعوتي « الثورية » الرؤيا لمهمة الطعام . . . فماذا حدث ؟

حدق صديقي في المائدة كمن يتأمل بقايا سمكة تم التهامها وبقي هيكلها العظمي ، وبدت الخيبة على وجهه . . وحين نهضنا عن المائدة بعد العشاء كان يبدو سعيداً ، فقد التهم طبق الرز الكبير الذي حضّرته لابنه ، ولم يذق لقمة واحدة من الأطباق الخاصة به ، وقاطعها .

* * *

قلت لنفسي : لكل قاعدة شواذ ، وسأتابع مقولة جورج برنارد شو حتى النهاية . . . « القادر يفعل والعاجز يعظ » . وحين دعوت صديقتي العزيزة الى الغداء ، دحرجتها معي (بوزنها الذي ينوف على الماية كيلو) الى مطعم باريسي خاص ، وجد لتطبيق ريجيم خاص لزبائنه . . .

فهو يقدم قائمة الطعام ، والى جانب كل طبق عدد الحريرات الموجودة فيه ، قبل ثمن الطبق . ويعتبر المكان من أغلى المطاعم الباريسية ، وهكذا أطبق نظريتي في الثورة على « التقاليد الأكلية » دون الاخلال بضرورة اكرام الضيف ـ كخطوة أولى انتقالية ثورية ! ـ .

والتهمت صديقتي ثلاثة أطباق مشوية بلا ملح ، وبدت على وجهها أحزان وجودية (أو هكذا خيل اليَّ) . قلت لنفسي : لعل الجو الشاعري ، والطعام الشهي غير المعقد قد حرضا حاستها الفنية . . وهي ترغب الآن في الذهاب لكتابة قصيدة . . . فدفعت فاتورة محترمة ونهضنا . ولكن ، حين غادرنا المطعم ، قالت لي مؤنبة بعذوبة : أنت نحيلة ، فلماذا اخترت هذا المطعم ؟

قلت لها: لا أريد تبليد حواسنا بالطعام . . . أريد أن نشترك في أشياء أخرى كثيرة جميلة في هذا الكون . . . كأن نتحدث عن عالمنا الداخلي . . . عن هموم كوكبنا . . عن شوقنا الى النجوم والأزهار والموسيقى والمسرح . . ما رأيك بالذهاب الليلة الى المسرح بدلاً من مطعم للعشاء . صرخت بي : أين أقرب بائع للسندويش وللهمبرغر . . . خذيني اليه الآن !! . . وفشلت في جرها بعيداً رغم أنني تلوت عليها سطوراً واعية حول (المأساة) ذاتها قالها الدكتور عزيز الحاج :

« هناك موضوع الدعوات الرسمية للغداء أو العشاء أو حفلات الاستقبال ، وهي ما عدا قلة منها ، مرهقة لي صحة ووقتاً ومزاجاً . . . بعضها شديد التكلف ، ومفتعل ، وثمة مجاملات متكررة وباهتة . . ولكنها جزء من الواجبات الرسمية ولو لبيت كل هذه الدعوات لكنت طريحاً دائماً للفراش ، ولما أنجزت مقالتين في الشهر . . البعض ولا سيما نحن العرب ، يعتبر قبولك للغداء أو العشاء معه الدليل الأوحد على الاهتمام والصداقة ولكن لمَ لا يكون الحديث في جلسة قهوة أو شاي ؟ » .

* * *

ولم أكرر تجاربي . . . فكوارث الدنيا كلها بدأت بالأكل : بل بقضمة من تفاحة ! وصرت كلما همزتني نفسي بتبديل « الأصول » الالتهامية العربية ، اذكرها بقول آخر لبرنارد شو نفسه : « ليس في الدنيا أي حب أكثر صدقاً من حب . . **الطعام** ! » . . اذن هذا هو الحب الكبير ؟! . . . ولكن ، لماذا تتحول تلك الطرافة البشرية الفردية الى ظاهرة تبذير اجتماعية استعراضية ، بغيضة على قلوب ملايين الفقراء العرب الذين يفتقرون الى أبسط ضرورات الحياة ، كثمن الدواء والكساء والأقساط المدرسية والمأوى ناهيك عن قوت عيالهم ؟ . .

في الوطن ، وفي المنفى ، تجلب الأطعمة بالطائرات من مختلف القارات ، ويجد أصحاب البذخ تسويغاً تقليدياً لذلك : « اكرام الضيف » ، ولكن جوهر تراثنا بريء من تلك الممارسات الاستعراضية الذميمة . .

فمن يجرؤ على كسر « تابو » تقاليدنا « الأكلية » التي تحولت الى مزايدة في سوق البذخ والغرور ؟

أنا لن أجرب مرة ثالثة ، فالحلول الفردية لا تجدي في زمن ينفق أثرياؤه حوالي مليون فرنك ثمناً لأطعمة عرس عربي أقيم هذا الأسبوع في جنيف . .

ونام ليلتها عشرات الأطفال العرب بلا عشاء . . .

١٩٨٥/٩/٢٤

من يرفض تحرير السلاح ؟ . .

كالشهب ، يسطعون في حياتنا مرة ، لحظة احتراقهم وسقوطهم المجيد .

مرة واحدة تكتب الصحف عنهم ، لتنعاهم . . أولئك الشبان الذين يذهبون الى الموت الجنوبي كي تخرج اسرائيل من أرض الوطن . . .

كالشهب ، تتحول حياتهم كلها الى فعل اضاءة واحدة شرسة كنصل السكين . . .

لكن الشهب تتحول الى رماد . . .

وأولئك الشبان يحولون حياتنا من رماد الى جمر . . ومضتهم الحادة كالبرق لا تخلف الظلام ، لأن شيئاً لا يعود كما كان بعد لحظة الكشف الباهرة تلك . . .

وعلى ضوئها نرى تاريخنا بعين غسلت عن ذاتها رمد الخيبات ، وما زالت تحن الى الأمل . .

***

في ركن متواضع من الصحف نقرأ كل يوم عن شهداء مقاومة المحتل الاسرائيلي لجنوب لبنان . . . وتزدحم بقية الصفحات بكوارثنا وخزي أيامنا وانهيارنا . . .

في زاوية صغيرة نرى صورهم للمرة الأولى والأخيرة ، أولئك الذين يصنعون التاريخ العربي الحقيقي غير المخزي .

وفي بقية الصفحات نرى صور (لورداتنا) وجلادينا وهم يتشاجرون على اقتسام (قرص الجبنة) الذي فسد وفاحت رائحته لطول ما (تناتشوه) كالوحوش الضارية . . . وكل يدعي أنه يريد الاستئثار به من أجل (الشعب) طبعاً . . .

نتمنى لو نقرأ قصص حياة أولئك الشبان الصغار الذين وجدوا الدرب البدهية وسط غابة الكلمات المتقاطعة التي تفضل بعض ساستنا بتحويل حياتنا اليها . . .

نتمنى لو نسمع المزيد عنهم ، بدلاً من تلك (الأسطوانات) اليومية لبعض

جلادي الشعب الذين ينادون بتحريره ، وعملياً يحررونه من حريته وكرامته ورغيفه ! . .

* * *

نتمنى لو تمنحهم الصحافة العربية بوجه عام المزيد من اهتمامها . . . فأولئك الشبان ليسوا (بضاعة محلية) ، أو صناعة جنوبية فحسب ، بل هم الامتداد الناصع لتاريخ العرب العريق مع الكرامة ، والدفاع عن شرف الأرض . . .

انهم يموتون ميتة يحترمها العالم ، وتقدسها شعوب الدنيا كافة . . . ميتة لها قيمة انسانية مضيئة اسمها « المقاومة » . . . مقاومة عدو واضح يحاول احتلال أرض ليست له . . . . وعظمة هذه الميتة تكمن في بساطتها المطلقة . . . وخلودها الأليف .

* * *

هل كانت مجرد مصادفة ،

أن ذلك الشهيد الذي سقط في عملية ضد العدو الاسرائيلي في الجنوب ، كان من مواليد عام ١٩٦٧ ؟ . . .

أم أنه أحد ردود الأمة العربية على تلك الهزيمة ؟ . . .

* * *

شهداء جنوب لبنان لا يحررون الأرض فحسب ، بل يحررون السلاح أيضاً .

انهم يقومون بتحرير السلاح من استخدامه في المكان الخطأ ، لغايات لا تشرف السلاح ولا حامله .

لقد مرت بنا أعوام مريرة ، واقترن السلاح في أذهان الناس باقتتال الأخوة ـ الأعداء فيما بينهم ، وبالعدوان على الآمنين . .

اقترن السلاح في الأذهان بالخوات والسرقات والقمع وقهر الطيبين والفقراء ، وسلب كرامات الناس ، والغطرسة ومحاولة الاستئثار بالسلطة . . . اقترن بالطائفية واللاعقلانية والاستفزاز و (الدكاكين) السياسية ، وفساد بعض القيادات ، حتى لم يعد السلاح أداة تحرير ، بل صار هو نفسه بحاجة الى تحرير . . .

* * *

أولئك الشبان افتتحوا زمناً جديداً لتحرير السلاح من مرحلة الموت العبثي ، وادخاله في زمن الموت المجدي المضيء . . .

انهم نداء الى كل حامل سلاح ، للخروج به من الشوارع المكتظة بالأطفال ، الى الجنوب وراشيا والبقاع الغربي حيث التحدي الواضح والعدو الحقيقي . . .

انهم يعيدون للسلاح صورته الحقيقية ، زينة للرجال . . . . يكرمونه بموتهم ، وفي استشهادهم نداء لا يقاوم للخروج بالسلاح العربي من مرحلة (الزواريب) والأزقة الضيقة الى الشمس ، ومن شرفات (التشليح) الى تلال التاريخ . . . فهل ينصت بقية المسلحين لهذا النداء التاريخي العربي الناصع ؟ . . .

باريس ٣٠/ ١/ ٨٥

شارع الليل

لحظة ذل ، عاشها أحد أصدقائي اللبنانيين في باريس هذا الأسبوع ، وسأعيشها حين يدنو موعد تجديد وثائق اقامتي ، ويعاني منها آلاف الغرباء في عاصمة النور كل يوم . . . فقد ذهب الصديق اللبناني الى مركز البوليس في « شارع موريللون رقم ٣٦ » في الثامنة والنصف صباحاً لتقديم الوثائق اللازمة لتجديد فترة اقامته . وجد مئات الناس قد سبقوه قبل بدء الدوام . وقف ساعات حتى الظهر ثم طلبوا منه الانصراف وسواه .

عاد في اليوم التالي في السابعة والنصف صباحاً قبل موعد بدء الدوام بساعة ونصف ، وفوجىء بعشرات الناس وقد سبقوه الى رصيف البرد . . . وبعشرات حضروا بعده . . وانتظر في « طابور » الوقوف حتى الواحدة ثم طرد ثانية بكل تهذيب . لاحظ وبقية المنتظرين البطء الشديد في انجاز المعاملات وقيل له أن عدد الموظفين محدود . وطلب رقماً ليحفظ حقه في العودة « غداً » وقيل له أنه لم يصل الى ملكوت غرفة توزيع الأرقام بعد !

***

قبل أن يغادر صديقي جحيم « شارع موريللون رقم ٣٦ » في الدائرة الباريسية رقم ١٥ ، سأل أحد سعداء الحظ الذين أنجزوا معاملتهم : متى حضرت ؟ قال الرجل في الخامسة فجراً !

وفي اليوم التالي ذهب صديقي الى « شارع الليل » في ظلمة الصقيع ، في الخامسة والنصف فجراً الى مكان التعذيب بالبرد والاذلال والانتظار . فوجىء بخمسة أشخاص وقد سبقوه الى الجلوس على الرصيف المعتم ، وهم يلتفون (بالبطانيات) و (الحرامات) ويرتجفون برداً تحت الثلج كقافلة من سجناء سيبيريا . جلس صامتاً الى جانب طالبة

مصرية ترتعد وتقرأ كتابها في ضوء الشارع والظلام الحزين يركض في سعال المقهورين . . . وأخيراً طلع الضوء حوالي الثامنة وكان الرصيف قد امتلأ بصف طويل من التلامذة والعمال والمهاجرين والكادحين والهاربين من ظلم أوطانهم الى ظلم الغربة ، واللبنانيين اللاجئين من نيران بيروت الى ثلوج باريس .

***

روى لي صديقي « لحظة الذل » هذه وطلب مني الكتابة عنها ، وعن شارع الليل ورصيف الانتظار الثلجي . ولكن ماذا أقول ؟ . . . وهل تعاملنا سلطات بلادنا بأفضل من ذلك ؟ . . وقبل أن يصير شعارنا رفع الظلم عن المواطن العربي في باريس ، أليس الأولى بنا أن نتحدث عن الظلم في بعض أقطارنا والقهر الذي يدفع بالبعض الى الهجرة ؟

أن تكون باريس مدينة النور حقاً أو مدينة الظلام هو شأن أبنائها ، وليس شأني . أن يتحدث التلفزيون الفرنسي ليل نهار عن المساواة والعدالة والانسانية بينما يذل الناس في طوابير الانتظار ويعذبون بسياط البرد ويجلدون بالظلمة وصقيع الاذلال ليس قضيتي الأولى ، بل قضية الفرنسيين الذين يدافعون شخصياً عن العدالة .

قلت لصديقي : ما يحدث في باريس شأن فرنسي ، وإذا كان التناقض كبيراً بين الأقوال الفرنسية الشاعرية عن الانسانية والعدالة والكرامة ، والسلوك اليومي للسلطات ، فتلك قضية تعني المثقف الفرنسي « الانساني » مباشرة . .

وألح صديقي : لو اضطر فرنسي أو أميركي للوقوف في طابور تعذيب مشابه في بلادنا محاطاً بالبرود واللامبالاة ساعات وساعات لأقاموا الدنيا وأقعدوها ضد سلوك العرب « المتخلفين » ولقالوا : « انظروا مصائب العالم الثالث » ، ولشهروا بنا . . . و « بهمجيتنا » وتخلف جهازنا الاداري .

أكدت له أنني أعرف ما يحدث وقد حضّرت « ثياب التزلج » لارتدائها يوم يحين دوري للذهاب الى هناك . قال محرضاً : صديقتك ليلاس كتبت رسالة الى مدير البوليس تحتج فيها على هذه المعاملة الشائنة للغرباء . انهم يتعمدون إذلالنا .

قلت بشراسة : اعذرني . لا أستطيع أن أكتب عن حقوق العربي في باريس هرباً من الكتابة عن حقوقه في غير قطر من أقطارنا . . . وصديقتنا ليلاس تعرف على الأقل من هو مدير البوليس هنا ووجدت مسؤولاً له عنوان تخاطبه ، ولكن حالنا المخزية في

أقطار عربية كثيرة تفوق الوصف ، حيث لا يعرف المرء لمن يشكو ظلماً لحق به ، ويضيع أشهراً وهو يفتش عن الموظف المختص بقضيته ثم يكتشف أن لا سبيل الى ممارسة حقه الا بالرشوة . . ولن أتحدث عن مأساة الغريب مع الدائرة الباريسية رقم ١٥ ، لأن مأساة العربي مع الدائرة الممتدة من المحيط الى الخليج هي ما يؤرقني ! والغربة داخل الوطن هي الوجع الحقيقي . . و « شارع الليل » ذاته يزنر وطننا ، وآه كم هو طويل . .

***

حين أفكر بالذل الذي يتعرض له المواطن العربي بدرجات متفاوتة في بعض أقطارنا العربية ، لا أجد هماً آخر يسرقني . . بل ان العربي نفسه يلقى الأهوال في دهاليز انجاز (معاملاته) في بلده أو في أقطار عربية أخرى يفترض أنها تشكل جزءاً من أمة واحدة . . . فلماذا نرفض ذل الغريب وحده ونصمت على ذل القريب ؟ . . ولماذا نحتج عن ممارسات « شارع الليل » في باريس ونسكت عن « ارصفة الأحزان » في وطننا العربي الشاسع ؟

صديق آخر طلب مني الكتابة احتجاجاً على المعاملة القاسية التي يلقاها اللبناني في مطار باريس . . ألسنا نحن الذين بذلنا جهدنا لنستحق معاملة رديئة كهذه ؟ الارهاب . الحشيش . المخدرات . . . ؟ ألم نرتكب خطايا كهذه ؟ ثم ، هل نلقى في مطارات بلادنا معاملة أفضل ؟

وهل يجد العربي في مطارات معظم الأقطار العربية الأخرى من يستقبله في المطار بغير الاستجواب أو التفتيش أو فتح الرسائل أو الطرد أو بذلك كله على التوالي ؟

هل ثمة مواطن عربي لم يعش لحظة ذل في مطار عربي آخر ، وربما في مطار وطنه ذاته ؟ فلماذا نفكر (بتحرير) عرب باريس ، قبل أن نفكر بتحرير الانسان العربي في بعض أوطانه ؟ . . .

واذا كنا نلقى الذل في الغربة حين نحاول الاقامة هناك ، كم من الدول العربية ترضى بأن يقيم فيها بعض رعايا الأقطار العربية المجاورة ؟ وهل ترضى بمنح الناس « تأشيرة » دخول بالأساليب العادية التي تحترم كرامة الفرد وانسانيته ؟

***

لأنني عابرة سبيل في باريس وفي الغرب ، أمر بلحظات الذل بألم ، ولكن على وطني لا على ما يدور هنا . . .

ولن يحق لنا في أي يوم الاحتجاج على أية إهانة تلحق بنا في أقطار العالم كله ، قبل أن نرتع في أوطاننا داخل ملكوت احترام الانسان وحقوقه . . . فالفرد الذي لا تحترمه سلطاته ، لن يجد العدالة لدى سلطات أوطان أخرى غريبة . . ولن يقدم له الغريب الا ما يقدمه له القريب : لحظة ذل في شارع الليل .

١٩٨٥/١٢/٢٥

أشهد أنني أحب

كل فراق مهما كان مؤلماً ، يحمل مسافة حرية . . الا الفراق وأبطال قصة ما . . . يذهبون ، وتبقى حالة العبودية للكلمة مستمرة ، وهاجس الرغبة في صياغة حرف جديد مستعراً .

وداعاً « ليلة المليار » . ضباح الخير يا كتابي الجديد الذي أعمل عليه « أشهد أنني أحب » . كأنني أداوي الحب الضائع بحب جديد . فالكتابة حكاية حب مع الحقيقة . .

ولكن ، قبل أن أطوي الى الأبد « ليلة المليار » ، واستغرق في « أشهد أنني أحب »[1] ، لا بد من وقفة ضاحكة مع الرواية السابقة . فلكل رواية قصة ، هي قصة كتابتها ! . . وفي بيروت حيث كتبت مسودتها الأولى ، كانت لحكايتنا طعم الهذيان والذعر والقهقهة في آن . .

***

حينما أكتب رواية ، أعمل عليها باستمرار ليل نهار حتى أنجز كتابتها الأولى . . وفي هذه الفترة انقطع تماماً عن عالمي ، وعن مخاطبة أي مخلوق لأنني أكون مشغولة بحياتي مع أبطال روايتي .

وبعد انقضاء عدة أسابيع على هذه الحال ، سمعت عاملتي السيريلانكية تخطط على الهاتف لهجري ، متحدثة عن خوفها مني بعد اصابتي المفاجئة بالجنون (!) ، لأنني صرت أقضي أيامي وحيدة في غرفة مغلقة مع الموسيقى ، ولا أكلمها . . . وأبدت استعدادها للعمل فوراً في أي مكان آخر بنصف مرتبها الحالي حرصاً على حياتها مني ! . . .

وهجرتني . . . وبعد أيام ، تذكرت أنني كنت قد نسيت أن أشرح لها أنني كاتبة !! . . .

---

(١) صدر فيما بعد تحت عنوان «أشهد عكس الريح».

وذات ليلة ، والقصف يزلزل الدنيا ، شرفني (الوحي) عند منتصف الليل ، والكهرباء في بيروت مقطوعة ، فنهضت في الظلمة أتحسس المحرك الكهربائي وفوجئت به خالياً من الوقود . وكان عليَّ أن أحمل (غالون) البنزين وأعاقر المحرك كأي ميكانيكي محترف ، وبعدما نجحت في توليد الكهرباء ، وجلست الى طاولتي لأكتب ، طار الوحي ولم أجد في قلمي قطرة كلمة ، وحين أخرست المحرك وعدت الى سريري ، كان النوم قد طار أيضاً !! . . . . وعند الصباح ، علمت من جارتي أن التيار الكهربائي كان قد عاد بعدما أدرت محركي بدقائق ـ وكانت قد أرقت ليلتها بسبب صوته ! . .

* * *

كأن العلاقة العاطفية بين (الوحي) ، والأحوال الأمنية المتردية لا تنفصم . دوماً يحضران معاً . وهكذا وسط أصداء الانفجارات أنجزت الكتابة الأولى للرواية ـ ودهمني حدس غريب بالخوف عليها ، فقررت اللجوء الى « ايديولوجيا الفوتوكوبي » وتوزيع النسخ على بيوت الأهل والأصدقاء ، حتى إذا ما احترق بيتي أو بيتهم ، بقيت نسخة من الرواية ، لا كما حدث لروايتي « السقوط الى القمة » التي احترق مخطوطها مع حريق مكتبة بيتي السابق . . بعدما سرقت قبلها وأعدت كتابتها ! . . .

وقبل تنفيذ ذلك تحول بيتي الى ساحة معركة تتوسط القتال ، تماماً كبيتي الأول الذي كتبت فيه « كوابيس بيروت » !

* * *

ليلة ٦ شباط ١٩٨٤ كنت في البيت وحيدة مع طفلي المحموم ، ومخطوطة روايتي ، والمعركة بمدافع الدبابات والراجمات تحت شرفتي ، والقصف احتجز زوجي في مكان آخر . . ولم نستطع الهبوط الى الملجأ لعنف المعركة ، فقررت البقاء في (الدهليز) الشهير الذي لا يوجد شخص في بيروت إلا وذاق طعم النوم فيه ولو لمرة واحدة . . .

ليلتها احتضنت طفلي ، وأوسدت رأسي الى حقيبة تضم الصفحات الألف للرواية . . . وضحكت من قدري مع رواياتي . . لا أكتب واحدة الا على ايقاع الزلزال والرصاص ، ولا أنجزها الا في ساحة حرب ثم أهرب بها مع طفلي . . كأن (الوحي) الخاص بي زعيم ميليشيا يشرفني دوماً محفوفاً بالموت والتنهدات والقنابل .

* * *

صباح الجمعة ١٩٨٤/٦/٢٩

بعد عشرة أعوام من الحرب المريرة المديدة ، غادرنا بيروت قبل فتح المطار عن طريق البحر وميناء (الحمام العسكري) على الطريقة البدائية : مركب ينقلنا إلى الباخرة . وطالما سقط بعض الناس في الماء ـ أو الحقائب ـ ، فالمكان ليس معداً ليكون أكثر من مسبح . وكنت أحمل الصفحات الألف لروايتي في حقيبة ، قذف بها أحد البحارة ـ خدمة لي ـ عن المركب الى الباخرة فسقطت في الماء . . . وقفزت خلفها وقد أذهلني أنها عامت . . وحين أنقذتها نظر اليَّ بقية الركاب حسداً على كنز المجوهرات الذي هربت به من بلدي ، والا لما قفزت خلفه الى اليم . ولم تبتل أوراق الرواية فقد كنت قد احتطت لذلك حين وضعتها داخل كيس أزرق من النايلون يعرفه أهل بيروت جيداً لأنه مكدس على أرصفتها الحزينة ! . . .

***

رجل الجمارك في مطار شارل ديغول رمق هذه الأوراق بفضول وحدق اليَّ كأنني « ماتا هاري » وسألني عن ماهيتها . فقلت له : اطروحة جامعية . . وفي الفندق خشيت أن يتوهم سارق ما أن الحقيبة تضم مقتنيات ثمينة ويمضي بها ، فصارت ترافقني الى العشاء والسهرات ، ملطخة بالملح وحشائش البحر ، وهو مشهد يلفت أنظار الناس (والغرسونات)، والسارقين، وأخيراً اقترح زوجي، أن نستأجر حاضنة (بيبي سيتر) تلازم الرواية وقت خروجنا ! . .

***

وبدأت مهمة الكتابة الثانية للرواية ، وكان ذلك في باريس ، والصقيع يحاصرني بقصف الثلج حاملاً معه زكاماً لم يفارقني عدة أشهر . . . وكان الأمر شاقاً بعد نشر الحلقات الأولى ، فأنت لا تستطيع الكتابة الثانية وتلك الأنفلونزا الأوروبية تطحن عظامك ، ولا تقدر على نشر تقرير طبي للقارىء بدلاً من حلقة جديدة من الرواية . وكلمة « يتبع » تعني أن يتبع الكاتب كلمته حتى . . القبر .

***

ذلك كله أضحى ذكرى . . . و« ليلة المليار » صارت تستعصي على النار والغرق ، بعدما أضحت بيوت القراء ملجأ لها . . . ولكن المتاعب لما تنتهِ ، بل بدأت الآن ، وأنا أخط سطور « أشهد أنني أحب » ، وأفكر بأن أحملها وأمضي الى بيروت التي أفتقد . . .

فمتى تصير بيروت مكاناً صالحاً لنمو الأطفال . . والحرف ؟
وإذا كان العمل على « ليلة المليار » دام عامين من التشرد ، فالعمل على « أشهد أنني أحب » قد يدوم ثلاثة أعوام لأنها على شاكلة كتابي « أعلنت عليك الحب » . . .
فما الذي ستحمله هذه الأعوام الثلاثة من تشرد عاطفي وحربي وقصفي ؟ . .
سأخبركم ذات يوم . . .

باريس ١/ ٥/ ٨٥

من يسرق الموت ؟

. . وتقول لنفسك سوف أرحل
الى بلاد أخرى . الى بحار أخرى
الى مدينة أجمل من مدينتي هذه/ من كل جمال في الماضي عرفته . .
. . . لا أرض جديدة ، يا صديقي هناك
ولا بحر جديداً : فالمدينة ستتبعك
وفي الشوارع نفسها سوف تهيم الى الأبد
وضواحي الروح نفسها ستنزلق
من الشباب الى الشيخوخة
وفي البيت نفسه سوف تشيخ وتموت .
. . لا سفن هناك تجليك عن نفسك
آه ، ألا ترى
أنك يوم دمرت حياتك في هذا المكان
فلقد دمرت قيمة حياتك
في كل مكان آخر على وجه الأرض ؟! . .

***

هذه القصيدة للشاعر اليوناني « كافافي » تلخص ببساطة حكاية مواطنة قررت العودة الى وطنها ومسقط رأسها ، وتصادف أنها ابنة شخصية سياسية كبيرة : ستالين .

ومنذ عودتها ـ في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي ـ الى روسيا ، والضجة لم تهدأ ، والصحافة (الغربية) تنتقدها وعلى رأس الجوقة زوجها السابق ، والصحافة (الشرقية) تفسح المجال لمؤتمراتها الصحافية وتدافع عن صحة اختيارها وعلى رأس الجوقة هي نفسها . . .

وتحولت القضية الى شجار زوجي ، وشجار سياسي ، والى سجال بين فضائل الحياة في المعسكر الغربي و (الستار الحديدي) الشرقي . . وكتب أذكياء وعباقرة حول القضية ، وأدلى محللون نفسانيون بشهاداتهم عن نفسيتها (المضطربة) غير المتوازنة ، ولعل آخر ما قرأت في هذا المجال وأثار اشمئزازي ما كتبه صحافي مبدع عادة في صحيفة فرنسية محترمة عن الحياة الخاصة لسفيتلانا ، « آكلة الرجال » ، وسيرتها العاطفية غير الناصعة وازواجها الكثر ، بأسلوب ساخر كله تشهير . . .

وقلت لنفسي : حتى إذا كانت سفيتلانا وغدة ، ماذا في ذلك ؟ للأوغاد أيضاً وطن . . . وحتى إذا كانت مزواجة ، ماذا في ذلك بالنسبة الى هذا الصحافي ، ومعظم رموز الحياة الغربية النسائية لاتخلو حياتهن من نصف دستة من الزيجات ، و (المخبى أعظم) ؟ . . ولماذا هذا الحرص فجأة على (عفاف) سفيتلانا ، وقوانين « الأخلاق الفيكتورية » ؟ . .

ولماذا كانت شريفة وفاضلة يوم اختارت الغرب ، وتحولت الى غانية يوم عادت الى الوطن ؟ . . . ولم طرح الموضوع كله أصلاً من هذه الزواية الهزلية ؟ . . لماذا يقدر البسطاء على فهم بعض الأشياء من غير جهد ، ويعقدها المثقفون والعباقرة ويتوجون التعقيد بالحيرة والتفسيرات المجلوبة من مفاهيم نائية (فارفيتشد) ؟ أليس الوطن كالموت ، لا أحد يستطيع حرمانك منه ؟ وهل تحرم امرأة من الموت بتهمة الزنا مثلاً ؟ من يستطيع أن يسرق الموت منا أو الوطن أو الذاكرة ؟

* * *

هل كانت سفيتلانا الليلوييفا ابنة ستالين مضطرة لتلاوة « فعل الندامة » ، واتهام « السي . آي . إي » بأنها تقف وراء كتبها عن والدها ستالين التي أصدرتها في الغرب ؟

أما كان يكفي أن تقول ببساطة أنها افتقدت وطنها الأم ومسقط رأسها ؟ . . .

هل أجبرتها الـ « كي . جي . بي » على اتهام الـ « سي . آي . إي » ؟ أم أن السلطات الروسية أذكى من أن تتورط في أمر كهذا ، بعدما صارت الشهادة السياسية لسفيتلانا عديمة القيمة . . والغرب أخطأ يوم اعتبر « ذهابها » اليه منذ سبعة عشر عاماً شهادة له ، فقد ذهبت المرأة يومئذ الى المجهول . . . ووسائل الاعلام التي وظفت هذا الرحيل اعلامياً ، تحصد اليوم التوظيف المضاد لهجرتها المعاكسة . . . .

وأنا أرى ذلك كله خارج الموضوع ! . . . وأفضل التفسير البسيط الذي تحمله

أغنيات شعبية عربية كثيرة (اذا كنتم لا تحبون الشعر اليوناني أو الشعراء عامة) ، ومن هذه الأغاني التي تلح على وجداني في المطارات ، أغنية « يا حمام، يا مروح بلدك متهني » و « بلدي يا بلدي أنا عايزا أروح بلدي » ، و « يا مضيع الدهب/ بسوق الدهب تلقاه .

ويا مضيع حبيبك/ تمر سنة وتنساه .

ويا مضيع الوطن/ فين الوطن تلقاه » . . .

فما رأيكم بهذا التفسير الشعبي البسيط لسلوك امرأة افتقدت وطنها الأم ، وأولادها هناك وربما أحفادها ، وحنت للحظات « تترغل » فيها بالروسية لأنها لم تألف « غود مورننغ » و « يس ، نو » ؟ . .

***

مطلقها الأميركي له تفسيره الخاص لسلوكها . . . ولكن ، من يثق بشهادة مطلقة أو مطلق بالشريك السابق ؟ أليس مجرد وقوع الطلاق بمثابة دليل على عدم قدرتهما على التفاهم ؟ . . . الطلاق لا يعني بالتأكيد أن أحد الطرفين على خطأ ـ أو كليهما ـ، لكنه يعني بالتأكيد أن سوء التفاهم هو السيد . . . فلماذا يتحفنا الزوج السابق بانتقاداته لها ؟ . . .

من حقه أن يتحدث عن ابنته ـ ابنتهما ـ وانعكاس قرار الأم على حياة الابنة ، بل من واجبه ، فلماذا أفسد ذلك بالانضمام الى جوقة العشاق السابقين ، الشاتمين حالياً ؟ . . .

الابنة وحدها يمكن أن تقلق « ضمير الاعلام » ـ اذا وجد ـ ، ولكن الحديث عنها جاء عابراً . . . فالأم في سن تسمح لها بايذاء نفسها اذا ندمت على قرارها الثاني كما الأول ، أما تلك المراهقة المسكينة ، ما ذنبها ؟ ماذا ستفعل حين تكبر ؟ وهل ستحن الى أميركا بصفتها « مسقط رأسها » ؟ وهل ستعتبر ذلك روسيا هزيمة لها ، وتشتمها كما شتمت الصحافة الغربية أمها يوم فعلت الشيء ذاته ـ أي عادت الى مسقط رأسها ـ ؟ . . . لماذا يدفع الصغار دوماً ثمن ترددنا أو اختياراتنا الخاطئة ؟ . . .

***

يخيل الي أن المغتربين والمشردين والبعيدين عن أوطانهم هم أقدر على فهم سلوك ابنة ستالين من عباقرة علم النفس والصحافة والـ « سي . آي . إي » والـ « كي . جي . بي » ، وفرويد . . .

فالعودة الى مسقط الرأس والقلب غريزة كالجـوع والعطش والجنس والـرغبة في الحياة . . . ولكنها غريزة نائمة ، يوقظها رعد الغربة ، وتنميها أمطاره ، وتبدو جلية في مرآة السنين الطويلة للبعد . . . وإذا لم تصدقوني ، اسألوا مغترباً لبنانياً تثقون به ، أو غير لبناني . . .

يقول أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى/ ما الحب الا للحبيب الأول .

وجهـة نـظر لم أؤ مـن يـومـاً بهـا ، الا إذا كـان الشـاعـر يعني بـالحبيب الأول : الوطن ! . . .

متى؟

سرت في شوارع احدى مدن العالم التي تحب الاطفال ، وتوقفت امام حذاء غريب يشبه التمثال ، يزين « واجهة » دكان بائع الاحذية .

انه ليس حذاء سندريللا ، فهو صغير الحجم ، وله مقاس قدم طفلة لا يزيد عمرها عن عدة اشهر . . .

ودفعني الفضول الى قراءة اللافتة الملاصقة للمنحوتة البرونزية الغريبة ، وكانت تقول : احضروا الحذاء الاول لطفلكم ، لتخليده !

***

شعرت بالدوار فجأة . . . فقد تدحرجت على سلم الزمن عدة اشهر ، او سنوات الى الوراء . . . وها انا واقفة على رصيف بيروت امام دكان الفران والزحام على اشده ، ننتظر رغيفاً في جوع الحصار . . ودوى الانفجار وامتدت يد الزلزال تقذف بي الى الفضاء ، فالأرض المدماة المحروقة . . . فتحت عيني وكانت حافة الرصيف ملاصقة لوجهي ، وكنت ما ازال عاجزة عن الوقوف او التأكد من انني لم اجرح او افقد احد اعضاء جسدي ، وطنين مروع يصم أذني ، حين وقعت نظراتي على قدم صغيرة مقطوعة مرمية على بعد شبر من وجهي . . . قدم صغيرة شفافة لطفل تنتعل حذاء نصف مهترىء وقد سود بياضه الهباب . . . . حاولت ان اصرخ ، فلم أجد صوتاً في حنجرتي كأنني استهلكت حصتي من الحبال الصوتية على هذا الكوكب . . . اين هرب جفناي حين حاولت اسدالهما كستارة بيني وبين ذلك المشهد المروع ؟ . . وحتى حين لملمت نفسي ، ونهضت من المحرقة كواحدة من الاحياء القلائل الذين نجوا من القذيفة « الأخوية » امام الفرن ذلك اليوم ، وشاهدت اشلاء بقية المنتظرين الذين كنت اتزاحم واياهم قبل دقائق على قطف رغيف ، بل وحتى حين شاهدت جثة الطفل وامه ، وقدمه الثانية تتدلى وهي ما تزال شبه معلقة ببقية جسده ، ظلت تلك القدم المقطوعة الشفافة ترتسم امام

وجهي . . . ولم تغادرني . . . ورحلت معي بدون جواز سفر ولا تأشيرة ، لكنها جلست في المقعد المجاور لي في الطائرة ولم تربط حزام الأمان .

* * *

هناك نقطع اقدام اطفالنا ، وهنا يـدللون احذيتهم ! . ام تـراني قرأت الـلافتة بشكل خاطىء ؟

ودخلت الى البائع يبسوطني الفضول المعذب . وسألته : ما هذا الحذاء البرونزي الصغير في الواجهة ؟

أجابني : انه نموذج لعمل فني اعتقد ان كل ام تحب الاحتفاظ به . تأتي الأم الينا بفردة الحذاء الاول لطفلها بدلاً من ان ترمي بها ، فنصب فوقها البرونز ونحولها الى تمثال فني . . وتذكار جميل . . . ظللت صامتة مكسورة الخاطر (الام هنا تخلد حذاء طفلها ، والام هناك لا تحلم بغير الحفاظ على القدم الفانية لابنها ، بحذاء او بغير حذاء !) . . .

تابع حديثه وقد توهم صمتي احتجاجاً على عدم « فنية » النموذج : نستطيع ايضاً صنع الحذاء من الفضة . . . ومن الذهب . . .

لعلي اجبت بفتور : شكراً .

سألني : ألم تسمعي بذلك من قبل ؟

قلت له : لا . وانت ، هل سمعت بـوطن يقطع اقـدام اطفالـه قبل ان تغـادر حذاءها الاول ـ إذا وجد الاهل ثمنه ـ ؟

أجـاب ببساطـة : وكيف تجدون ثمن القـذيفة ولا تجـدون ثمن الحذاء ؟ ولـماذا تنفقون النقود في شراء السكين بدلاً من رعاية الطفل ؟

ولأن حكـايتنا طـويلة طويلة ، واحتـرت من اين ابدأ بهـا ، من قـدم القـاصـر المبتورة ، ام من العقول القاصرة التي بترت احلامنا وعمرنا وتحكمت بأولادنـا وارزاقنا وحرياتنا ، ظللت صامتة ، كما يحدث للكثيرين حين يكون لديهم ما يقولونه حقاً ! . .

* * *

سألني بائع الاحذية : اذن ليس لديكم مكان كهذا لتخليد الحذاء الاول ؟

كدت أقول : لا . . ولا القذيفة الأولى . . .

تابع : ولن يكون بوسعنا افتتاح فرع كهذا في وطنك ؟

قلت : بوسعك افتتاح فرع لتحنيط القدم الأولى لا لتكريم حذائها ، فنحن نربي اطفالنا بطريقة خاصة .

ـ كيف ؟
ـ نعلمهم القتل او الانتحار !
ـ واذا رفضوا القتل والانتحار معاً ؟
ـ لم يعد في مقدور احد ان يرفض . في وطني ثمة خياران : ان تكون جلاداً مسلحاً او ضحية مستسلمة .
ـ هذا غير معقول . . . ماذا عن المدارس ؟
ـ من يذهب الى المدرسة عقابه القصف والقتل فوق اقلامه الملونة ودفاتره .
ـ اين يذهب الاطفال ؟
ـ الى سجون خانقة يتعايشون فيها مع الجرذان ، ويسمعون فيها صوت استاذهم الأوحد : القصف .
ـ واذا احب احدهم الخروج الى الشمس ؟
ـ عليه ان يتحول الى قاتل كي يتجرأ على التجول دون ان يقتل في القصف ، اذ انه سيصير هو القاصف لا المقصوف . . هل بدأت تفهمني الآن ؟

***

ترك البائع زبائنه وتفرغ لحكايتي الخيالية عن وطن يحترف قتل اطفاله وتقطيع سيقانهم وتحويلهم الى معاقين ، عقاباً لهم على انهم . . ولدوا . . .

وسألني : وماذا بعد مرحلة الملاجىء ؟

قلت : القتل او الانتحار . . التدجين في الملاجىء و . . . هل فهمتني الآن ؟

قال : قصتك خيالية . . الاطفال لا ينتحرون ولا يعون حقاً معنى الموت حتى اذا قلدوا « السوبرمان » وقفزوا من النافذة . هذا هو الموت مصادفة في حادث ، لا الانتحار .

قلت : عندنا طفلة بريئة اسمها رندى عمار انتحرت لانها لم تعد تطيق تدجين الملجأ . . .

ـ لا اصدق . . .

ـ وحين صحت في المستشفى وفوجئت بأنها لم تمت سارعت الى النافذة لترمي بنفسها وتنتحر ثانية .

قال : وهذه لم تنتحر . انتم حاولتم اغتيالها مرتين ! . . .

وانتزعت البائع مني « زبونة » تحمل الحذاء الاول لطفلتها ، وتطلب تكريمه

بالفضة المذهبة ، وتركتها وفي صدري صرخة كل ام في بيروت : اتركوا لاطفالنا اقدامهم ، وليمشوا بها عراة وحفاة . . . فقط دعوهم وشأنهم دون حثهم على القتل او الانتحار . . .

***

تعبت من مسيرة التشرد فاشتريت صحيفة نشرت في صفحتها الاولى صورة صف من اطفال بيروت واقف امام الفرن بانتظار رغيف المجاعة . . .

ووجدتني اتأمل سيقانهم الدقيقة الشفافة . . واحصيها . . واصلي كي لا تكون قذيفة قد سقطت بعد لحظة التقاط الصورة وأطاحت بها اشلاء مقطعة على الرصيف الذي ما زلت اذكر رائحته معفراً بالدم والهباب والصراخ . . .

كما حدث في كل مكان وزمان ، ذات يوم ستحاصر هذه السيقان الرقيقة جلادها ، وستدوسه . . ستتكاثر وتتناسل كالقهر والحقد . . ولكن ، متى ؟

باريس ١٣/ ٩/ ٨٥

معذرة يا قارىء الصيف

نعرف ان فصل الصيف حار ، والقلوب مثقلة بالرطوبة الساخنة . ونعرف ان الصحافة المتحضرة تعطي القارىء شبه اجازة وتريحه بنشر موضوعات صيفية خفيفة . ونعرف ان اكثر المجلات رصانة تخضع لهذه القاعدة العالمية ، وحتى مجلة « التايم » تختار لقرائها كتباً خاصة للمطالعة في الصيف ، فصل الاجازة . . ونعرف اننا مقصرون في هذا المجال ، ونجلدكم بحروفنا الحزينة واخبارنا البشعة و (تحليلاتنا) المتشائمة ، ولكن . . .

ما ذنبنا مع زمن لم يعد الموت القاسي فيه يمنحنا فسحة تنفس او لحظة صفاء ؟

* * *

هذا الصباح لامست اوراقي بفرح طفولي ، وقلت لنفسي : ايتها المرأة المهرولة عارية القدمين فوق الزجاج المكسر والجمر . . امنحي نفسك وقراءك اجازة من دنيا الحزن الكابوسي التي ترسمها سطورك . . . ولم اكد ابدأ بكتابة حروف ملونة حتى جاءني النبأ : مسلحون مجهولون اقتحموا بيت (سمير . . .) وقتلوه وزوجته وطفليه اللذين لم يبلغا الخامسة من العمر بعد!

نبأ مألوف آت من بيروت ؟

لا . لن نسمح بأن يصير خبر كهذا مألوفاً ، وسنظل نعلنها حرباً ضد البشاعة ، وضد تبلد المشاعر بفعل التكرار ، وسنظل نحزن لكل قتيل بريء في بيروت ، رغم انهم يدربوننا على اللامبالاة منذ عشرة اعوام ، وعبثاً يفعلون .

* * *

الذي يعرفه الناس جميعاً هو ان الصديق القتيل سمير ، انسان رقيق مثقف لم يمس سلاحاً ولا مالاً حراماً ولا اتى منكراً ، ولم يؤذ مخلوقاً ، واذا مرت به النملة ابتعد عن دربها الى الرصيف الآخر . . . ولم يوسخ يديه بلعبة الطائفية او العشائرية ، ولم ينزلق يوماً الى المتاجرة بالشعارات لأغراض شخصية . . .

انه باختصار يمثل آلاف الشبان اللبنانيين الذين نطلق عليهم اسم الاكثرية الصامتة ، وهم في الحقيقة (الاكثرية المكممة) التي تجد باستمرار من يدعي حق التكلم باسمها ، وقمعها تحت ستار تحريرها ، واذلالها بحجة تكريمها ، وخرب بيوتها بحجة (اصلاح) الدرب الى فلسطين ، واحراق ارزاقها تحت راية اضاءة شموع الحرية .

***

سمير الصديق ، ليس بالنسبة لي مجرد شخص اضافي قتل ظلماً ، وفجعت به اسرته الكريمة المعروفة بعراقة اخلاقها واصلها . . .

انه رمز للانسان اللبناني البريء الذي لم تحقق هذه المجزرة السوريالية غير قتله وابادته ، وما اكثر الجرائم التي ارتكبت في هذه الحرب ، وما اكثر الاصوات التي تحولت الى ابواق بحجة تأمين العدالة للناس . . وما اكثر الذين صدقناهم وحملناهم على اكتافنا ، ولكن مشنقة واحدة لمجرم لم تنصب طوال هذه السنوات العشر العجاف . . . ومحاكمة واحدة لقاتل آثم لم نسمع بها ، ولو سمعنا لهرولنا كلنا من اقطار الأرض كلها لنرى مشهداً طال شوقنا اليه : محاكمة مجرم محاكمة عادلة وتنفيذ الحكم به علناً ودونما اسرار ودهاليز . . .

***

يقولون ان سمير واسرته قتلوا على ايدي سارقين مسلحين . . فيزيدنا ذلك الخبر حزناً لا على مصرع سمير وحده ، بل على مصرع (القضية) التي سرق اللصوص شعاراتها واسلحتها ، وانطلقوا بين الابرياء (يحررونهم) من حياتهم وممتلكاتهم وكراماتهم . . . فهل يعاقب الثوار الأصيلون اولئك الذين يشوهون رسالتهم ، ويوسخون قبور رفاقهم الشهداء الحقيقيين الذين ماتوا من اجل قضية الانسان ؟

***

بين وقت وآخر تطلع علينا الصحف بصور مجرمين او سارقين من الصغار (حجماً) في عالم الجريمة ، ونراهم وهم ينالون عقابهم العادل ، ولكن ذلك لم يعد يخدر شهيتنا الى (العدالة) بمعناها الشاسع . . . عدالة تقديم المجرمين الكبار الى المحاكمة . . عدالة اعتقالهم وكشف الغطاء عنهم ، شرط محاكمتهم علناً . تلك الجثث المرمية في الحقول مقتولة ، وقد الصقت عليها ورقة تتهمها بالعمالة ليست عدالة . . خصوصاً حينما نقرأ في اليوم التالي رسائل ذويها شاهدين لها بحسن الاخلاق والسيرة والوطنية ، ولم يعد سراً ان كل من يرغب في الخلاص من غريمه المهني او العاطفي يقدم

على قتله ببساطة ، ويلصق ببقايا جثته ورقة تتهمه بالعمالة . . . ونريد ان نعرف العميل الحقيقي لنشمت بموته ونبارك قاتله . تعبنا من عدالة الظلام . . . نريد عدالة واضحة وبسيطة كالصدق .

* * *

ولأن الزمن علمنا التقشف البالغ في احلامنا الثورية ،

ولأن تلك الاحلام النقية تحولت الى كوابيس ، ولأنني اعرف ان العشرات من الأبرياء امثال سمير سيتم قتلهم ريثما تتوقف هذه الدوامة الجهنمية البشاعة ،

أتوقف الآن فقط عند مصرع طفليه : ابنته (٤ سنوات) وابنه (سنة واسبوع !) . . .

ربما كان قتل سمير ضرورة ملحة في نظر القاتل ورفاقه . وكذلك قتل زوجته كي لا تبكي في مأتمه وتفسد نومهم السعيد (بضمير مرتاح) . . . ولكن ، لماذا تم اعدام طفليه رشاً بالرصاص ؟

* * *

نحن الذين لم تبق في وطننا حرمة لشيء ، هل نستطيع فقط تحييد الاطفال ؟ . . .

وما دمنا (عاجزين) عن التفاهم والاتفاق وتنفيذ الوعود وتحقيق الشعارات ، هل نستطيع ان (نكف أذانا) عن الأطفال وحدهم على الأقل ؟ . . .

صحيح اننا لا نستطيع الكف عن تقتيل اطفالنا في حفلات القصف ، لان القنبلة (خبط عشواء) ، ولكن ، هل يمكن ان نزيح برشاشاتنا عن رؤوس الاطفال قليلاً ؟ . .

لقد قرأت اليوم عن اقرار حق الضمان الاجتماعي للكلاب والقطط في فرنسا ، فهل كثير علينا ان نطلب بهذه المناسبة اقرار حق الحياة لأطفالنا ؟

باريس ١٣/ ٧/ ٨٥

هل نصحو ؟

ما الذي أصابنا نحن العرب ؟ ما الذي يخرس لساننا عن قول الحق امام بـاطل عم الدنيا وهو يرتدي قناع الذل والمسكنة ويمعن فينا قهراً واذلالاً ؟ . . .

كيف تتحول الحقيقة الى رذاذ هلامي منسي بين اصابعنا الموسخة بـدماء بعضنـا بعضاً ، وتتحول الأكاذيب بين أصابع العدو الى سلسلة محكمة الحلقات اعدت خصيصاً لخنقنا ؟

وكيف اكتب سطوراً « خطابية » كهذه ، أنا التي أمقت تحويل الأدب الى ملحمة وعظ ولو في كلمات ؟ . . .

اعذروني اذا كنت قد أضجرتكم ، لأنني فيما تبقى من « صفحتي » سأسبب لكم الألم ايضاً !! . .

***

مسرحية كتبها فنان الماني كبير اسمه فاسبيندر ، استطاع صهاينة المانيا منعها من الوصول الى خشبة المسرح طوال عشرة اعوام . واليوم ، بعد وفاتـه بسنوات ، تمكنت المسرحية من الافلات من براثن الشبكـات العنكبوتيـة القمعية الصهيـونية ، واحتمت بحـرية الكلمـة ، وأعلن عن ليلة الافتتاح في فـرانكفورت . فمـاذا فعل الصهـاينة ؟ صعـدوا الى المسرح قبـل عرض المسـرحية حـاملين شعارات الـذل والمسكنة والتـوجع والأسى لذكريات قمع النازية لليهود ، مطالبين بعدم مس « مشاعرهم » الرقيقة .

وهكذا كان ، ولم تشهد المسرحية النور بعدما تظاهر « يهود » فرانكفورت (حيث كان مقرراً لها ان تمثل) ، ولم يأبه أحد لتظاهرة مضادة المانية لتجمع « حزب الخضـر » الذي أصر على عرض المسرحية احتراماً لحرية الرأي . . . فحريـة القول ، والحـريات كلها تنكسر أمام عتبة الدلع الصهيوني على أحفاد النازيين الذين ما زالوا يدفعون حتى

اليوم ثمن وحشية تلك الحقبة في تعاملها واليهود الابرياء . . . ونحن نسدد الفاتورة في فلسطين وجنوب لبنان . . و . . و . .

* * *

ما هو الاثم الذي لا يغتفر في مسرحية فاسبيندر ؟ انه ذاته إثم شكسبير في مسرحيته الخالدة « تاجر البندقية » ، حيث المرابي اليهودي قاسي القلب « شايلوك » يريد ان يتقاضى رباه الفاحش من لحم ضحيته . . وقبل ان تقص سكين شهواته جسد فريسته ، تأتي المحامية المتنكرة لتنبه « شايلوك » المفترس الى ان العقد ينص ان يتقاضى « لحم » الضحية ولا يأتي على ذكر « دمها » ، وبالتالي فعلى المرابي اليهودي ان يقتطع نصيبه من اللحم دون ان يسفك الدم . . . مسرحية عبر فيها شكسبير عن كراهيته لاستغلال مصائب الناس على يد المرابين ، وجسّد في اليهودي « شايلوك » تلك الصفات . . من يجرؤ اليوم على عرض مسرحية « تاجر البندقية » في الغرب ؟ لقد تم اعدام رائعة شكسبير هذه اكراماً لخاطر الدلال الصهيوني ، الذي وجد في زمن « الهولوكوست » تجارة لا تنضب . . كما يتم اليوم اعدام فاسبيندر الالماني لأن بطل مسرحيته مقاول يهودي يشبه « شايلوك » شكسبير في تسلطه وقسوته وامتصاصه لدماء الناس حوله ، ثم ان فاسبيندر تجرأ على تسمية الاشياء بأسمائها ، وأسماه ببساطة : « اليهودي الغني » ، وعبر عن واقع يعيشه فقراء فرانكفورت الالمان فيما يبدو .

* * *

يقول « اليهودي الغني » في المسرحية : « أشتري البيوت القديمة في المدينة . أهدمها . أعمر بدلاً عنها بيوتاً جديدة وأبيعها بربح كبير» . . ماذا في ذلك ؟ ولماذا يغضب هذا الكلام الصهاينة ؟ لأنه كما تروي مجلة « النيوزويك » حدث فعلاً في فرانكفورت ما بعد الحرب ، وهنالك طبقة كبيرة من اليهود اثرياء الحرب الذين كما تتابع المسرحية وصفهم على لسان أحد ألمان المدينة « انهم يمتصوننا حتى نجف ونتقدد ، اولئك اليهود . انهم يشربون دمنا ، وفي الوقت ذاته يتهموننا بأننا مذنبون ، لمجرد انهم يهود وعلينا بالتالي ان نشعر بالذنب نحوهم » . . ويؤكد الثري اليهودي في المسرحية « انا اصير ثرياً كما اشاء . المدينة تحميني . انها مجبرة على ذلك ، فأنا يهودي » . وهو فيما يبدو على حق ، والدليل في اعدام فاسبيندر حتى بعد موته .

* * *

المسرحية ببساطة ثورة « ورثة » الشعور بالـذنب تجاه الصهيـونية . لقـد ارتكب اجدادهم خطأ مميتاً ضد اليهود المساكين يومئذ ودفعوا الثمن ، ولكن مـاذا بعد ؟ لقـد ضاق الناس ذرعاً بتلك المهزلة ، ولكن الصهاينة لم يتعبوا من جمع الربا الفاحش لتلك المأساة. وما زالوا ينتصرون في قمع كل صوت قد يجرؤ على توجيه اي انتقاد لأخطائهم. وانا شخصياً كعربية لا اكره اي يهودي لمجرد انه كذلك وأميز بين « اليهودي » البريء و «الصهيوني» المجرم ، واحترم الاديان السماوية كلها والبشر كلهم من حيث المبـدأ ، لكنني أكره السلوك الاستغلالي الوضيع ، حتى حين يكون بطله يهوديـاً مات والـده في احد سجون الاعتقال النازية . ويبدو ان الغرب بدأ يصحو من تركة الحس بالذنب ، وعـاد يحاكم « اليهـودي » انطلاقـاً من افعالـه . . وكان الحكم قـاسياً . . . واذا كـان فاسبيندر قد ضاق ذرعاً « بالطبقة اليهودية » المستغلة لقومه بعـد الحرب العـالمية ، فـما الذي نقوله نحن في الذين سرقوا منا وطنـاً وعينهم على ارضنا الباقية ؟

* * *

لقد ربح صهاينة المانيا الكثـير من قمع المسـرحية « المنـاهضة للسـامية » !! . . معظم الصحافة أيدتهم وكتبت عن ضرورة مراعاة « شعورهم» ، كمجلة « التايم » مثلاً التي عرضت وجهة نظرهم وحدهم . اما « النيوزويك » فعرضت وجهة النظر الأخرى بخفـر واستحياء . وكـانت ردود فعل الصحـافة العـالمية مشـابهة ، والمحصلة ، حفلة اعلامية جديدة للتذكير باليهـود « المساكين المقمـوعين » ، والفـاتورة نـدفعها نحن في فلسطين ! . .

* * *

وهكذا يصادر الصهاينة حرية الكلمة في الغرب ، ويمعنـون في التعتيم على كـل حرف قد يمس اسطورتهم المقدسة « الهولوكوست » . . . أما نحن ، فنعوم في بحر من الاعلام العالمي الذي يتعرض غالباً « للشخصية العربية » ويسخر بنا ويحقرنا ، ويرسم لنا صورة بشعة ، اكثر بشاعة بكثير من شخصية المضـارب « اليهودي » الـذي يستغل الناس . . فماذا نفعل ؟ . .

نعرض أحياناً على شاشاتنا أفلاماً تحقرنا دون ان نلحظ ذلك قبل انقضاء أيام . . ونمر بالأمر في العواصم الاوروبية كاليتيم في اعياد اللئيم ، ولا نقول كلمة . لم نر مـرة تظاهرة عربية واحدة امام احدى دور المسرح او السينما الغربية التي تعرض لسنوات احياناً

مسرحيات تحقرنا كعرب وتسخر منا مسلمين ومسيحيين . . ثوريين وغير ثوريين . . ولا تستثني احداً منا . . .

* * *

مسرحية واحدة ضد اليهود ، اقامت الصحافة واقعدتها وشغلت الناس . ونحن نعيش منذ عقود مسرحية حية ، يمثلها الصهاينة على ترابنا بعدما حولوا مدننا الى خشبة مسرح ، وشعبنا الفلسطيني الى ضحايا حية ، ومن بعده شعبنا اللبناني العربي في جنوب لبنان وغير جنوبه . . ونحن مشغولون عنهم بالكيد لبعضنا بعضاً . . . فهل نصحو ؟ واذا كان الف متظاهر يهودي قد تجمعوا في فرانكفورت لمنع مسرحية واحدة تسيء اليهم ، كم عدد العرب الذين كان يفترض ان يجتمعوا في فلسطين المحتلة التي تمثل في كل بيت عربي فيها مسرحية وحشية يتم قتل ابطالها العرب جسدياً او معنوياً كما في جنوب لبنان . . فهل نصحو لنتعلم الدفاع عن حقنا كما يدافع سوانا عن باطله ؟ ! . .

* * *

وحتام نصبر على غطرسة الصهيونية في المجالات كلها ؟

فإلى جانب قمع اي صوت عربي او غربي يجرؤ على انتقاد سلوكهم اللاانساني ، يستمر تيار اغراق الناس في بحر الدعاوة الصهيونية الاسرائيلية بزخم متصاعد كرافد اساسي لقمع اي انتقاد داخلي قد يوجهه الفرد الاوروبي او الاميركي العادي للغطرسة الاسرائيلية والتعنت الصهيوني .

وخلال اسبوع واحد فقط ، ها انا أحصي لكم عشرات المظاهر « الاحتفالية » التي تؤذي القلب العربي المصفح ضد حملة غسيل الدماغ الدعائية لأنه يعرف الحقيقة المرة ، وقد دفع ثمنها من ارضه ورزقه وربما دم احد افراد اسرته في احدى الجولات بين العرب واسرائيل التي شردت شعباً عربياً في اصقاع المخيمات والشتاءات ، بينما هي ما تزال تندب بلا انقطاع تشرد ابنائها في مخيمات اعتقال النازية ، وتلهي الناس بذلك الماضي ، عن حاضر لا انساني مشابه تفرضه على ابرياء هم الشعب العربي في فلسطين وجنوب لبنان و . . والقائمة تطول . . .

* * *

على صعيد السينما ، اضاف المخرج لانزمان فيلماً جديداً اسمه « شواه » الى سلسلة تلك الافلام الكابوسية عن زمن « الهولوكوست » النازي . لماذا ؟ ألم يقع ظلم على وجه هذا الكوكب غير ايام النازية ؟ ألم يقتل بريء منذ بدء التاريخ في اي مكان ، غير

الابرياء اليهود في اوروبا هتلر ؟ اربعون عاماً وافلام « الهولوكـوست » تتفنن في كشف الظلم الذي لحق بهم ، وجمع التبرعات والتعويضات ، فهل تبقت حكاية لم نسمعها كي يقدمها المخرج لانزمان في فيلم تسجيلي طوله ٩ ساعات و ٣٢ دقيقـة ؟ معقول ؟ ربمـا لا ، ولكن للصهيونية منطق آخر : لا بد من تغذية الشعور الأوروبي بالذنب باستمرار ، كي لا يلحظ الذنوب التي ترتكبها اسرائيل الآن . . عمليـة غسل الـدماغ لا يمكن ان تتـوقف ، كي لا يصحو احـد . . ومـا دام اصحـاب القضيـة بحكم النيـام لانشغـال معظمهم في الاقتتال فيما بينهم ، فلماذا لا تغفو عيون بقية اهل الدنيا ؟ . . . ولماذا لا يهلل بعض النقـاد لظهـور الفيلم ويدعـون الناس الى مشـاهـدتـه ، وأكـل اظـافـرهـم واصابعهم وهم يسمعون شهادات من تبقى حياً في ذلك الزمان ، ويخرجون وقد كرسوا (حنانهم) للصهاينة (المساكين) ؟ . .

***

« صرعة » اخرى للاعـلام الصهيوني في الاسبـوع ذاته تتحـدث عنها الصحـافة العالمية ، وتتعلق بـ « وحش فيينا » او « الواس برونر » الذي يفترض انه ضابط نـازي سابق مسؤول عن مصرع ١٣٥ الف يهودي . . ويفترض ايضـاً انه يعيش في عـاصمة عربية ترفض تسليمه (!) ، ويفترض ان بعض الصحافيين قابلوه هناك في حديقة عامة وهو يتنزه مع كلابه ! البلد العربي ينفي وجود شخص كهذا ، ولكن الدعاوة الاسرائيلية بحاجة الى اختراع احداث كهذه كي تظل ذكريات (الهولوكوست) قابلة لـلاستعمال اليومي ، وبما ان الحـديث عن النازي « جـوزف مينغيل » انتهى بعـد نبش عظامـه في البرازيل ، فلا بد من اختراع حكاية اخرى . . . والا فكيف تجمع التبرعات ، وكيف تظل بقرة الشعور بالذنب تحلب ؟

***

الى جانب هذه « الأعمال الكبيرة » لا بد من لمسات صغيرة يومية . منها رسـالة عتب من اسرائيل نشرتها مجلة عالمية ، يعتب فيها كاتبهـا من تل ابيب عـلى عدم ذكـر « فريق الانقاذ الاسرائيلي » حين تحدثت عن بقية فرق الانقـاذ العالميـة التي شاركت في رفع ركام البيوت إثر زلزال المكسيك . . .

ويكاد القارىء ينفجر ضاحكاً بمرارة اثر قراءة الرسالة . . أهذه نكتة ؟ هل يوجد حقاً « فريق انقاذ اسرائيلي » ؟ يا للانسانية المفرطة ، ولكن لماذا يذهب هذا الفريق بعيداً

هكذا الى المكسيك ، ولماذا لا يعمل في جنوب لبنان حيث تردم اسرائيل البيوت والقرى فوق رؤوس اهلها الابرياء العزل ؟ . .

***

ولا بد من حشر اسرائيل في كل مناسبة اعلامية عذبة ، كتصوير زعماء الدول وكل منهم يحمل في يده علماً صغيراً لبلاده بمناسبة « عيد ميلاد » الامم المتحدة . . . ويغيب عن ألبوم الاسرة الدولية اي وجه عربي ، ويطلع لنا وجه بيريز حاملاً علمه الذي يمثل في نظرنا رمزاً لاغتصاب ارض وتشريد شعب . . . ولكن . .

وما نكاد نصحو من هذه الضربة حتى نكتشف ان الحس بالذنب لدى الالمان ما زال مشتعلاً ، وها هم يكفرون عن المذابح النازية وربما عن مسرحية فاسبيندر المقموعة بتقديم « جائزة السلام » لمعرض الكتاب العالمي في فرانكفورت الى إسرائيلي يزوِّر حقيقة بؤس العرب في القدس مدعياً (توحيدها) تحت لواء نجمة اسرائيل ! . . . ولماذا لا يحدث ذلك ، وشجار بعضنا ، وشخير البعض الآخر من الماء الى الماء يصم الآذان والوعي المصيري ؟ . . .

***

ذلك كله في أسبوع واحد بالاضافة الى عشرات التفاصيل المشابهة التي لا تتسع لها هذه الصفحة ، منها « بشرى » فيلم جديد ضد العرب انتاج مناحم جولان « منتج فيلم قارعة الطبل الصغيرة الذي احتفل بعض العرب بمؤلفه لوكاريه يوم زارهم لاعداد روايته المضادة لهم » ، وتمثيل لي مارفن وشيللي ونترز وحنا شيجولا وتشاك نوريس . . . فهل سنظل نرى طلتهم « البهية » على شاشاتنا حتى بعد تمثيل فيلم يحررون فيه الرهائن الاميركية من طائرة مخطوفة في بيروت ، ويحققون على الشاشة ما فشلت اميركا في تحقيقه على الأرض ضد المطالب العادلة لإطلاق سراح سجناء اسرائيل اللبنانيين والفلسطينيين الابرياء ؟ . . متى نرى على الأقل تظاهرة عربية واحدة امام احدى دور السينما التي تعرض فيلماً يكرس صورة « العربي البشع » في العالم ؟ متى نبدأ الرفض الحاد لهذا الواقع الموجع ولو بخطوة صغيرة ؟ متى نصحو ؟ وهل نصحو ؟ . . .

باريس ١٣/ ١١/ ١٩٨٥

نعم . . . انا طائفية

سألتني والثلج يجلدنا في المحطة ، ونحن بانتظار المترو أو الحصان أو زحافة الجليد التي تجرها الكلاب : من أين أتيت ؟ انه السؤال التقليدي الذي يواجهه كل غريب في محاولة الآخر للتقرب منه بدفء الحوار . وهو عادة مناسبة فرح للمشرد ، ويتذكر فيها ان له قبيلة واوتاداً في مكان ما من هذا العالم المزدحم المقفر .

قلت لها : انا من بلاد بعيدة . . . سماؤها قوس قزح وقمرها دفء وبحارها حنان .

ـ من أين ؟

ـ من لبنان . .

ـ لبنان ؟ يا إلهي . . وهل انت مسلمة ام مسيحية ؟! .

اذن صار السؤال مطروحاً حتى هنا . قلت لها : وما علاقة ديني بالأمر ؟

ـ انكم تقتتلون لأجل ذلك منذ عشرة أعوام ! . . .

***

وصمت . تركت الثلج ينهمر ليغطي « عورة » خجلي الانساني أمام هذا الطرح المخزي لما يدور في وطن أحببته وما زلت ، اسمه لبنان . تحولت الى امرأة من الثلج ، وبقيت في محطة الحزن واقفة ، وعشرة اعوام من الحرائق والانهيارات والفظاعات وبهلوانيات (المنتفعين) تمر امام عيني داخل قطارات الزمن المهرولة . . . وسؤال المرأة المجهولة يشنقني على أسوار مدن الغدر . .

اذن بعد كل ما كان ، صار الأمر يبدو هكذا ، بل ويكاد حقاً يتحول الى ذلك ؟

قلت لها بعدما مضت : ما يحدث له اقنعة طائفية ، ويريد بعضهم تحويله الى هستيريا طائفية تحقيقاً لمكاسب اقلية أضاعت ضميرها او صوابها . أما نحن ، طائفة الصمت الارغامي من مسلمين ومسيحيين وطوائف اخرى فلا يد لنا في ذلك . . .

***

في محطة ثـلج اخرى سألني رجل له صوت المرأة اياها : ولماذا لا نسمع صوتكم اذا كنتم الاكثرية حقاً ؟

ـ لأنه تم ترويعنا . نكاد نتحول من طائفة السلام والمحبة والانسانية الى طائفـة (المرعوبين) ، والمهددين في كل لحظة بالتخوين بحيث يقتلنا متعصبو طائفتنا ، ويمثـل بجثثنا متعصبو الطائفة الأخرى . . . . لقد تم اختطافنا جميعاً في طائرة الطائفية . .

* * *

لقد كنا نحلم بوطن ديمقراطي للجميع . . .

وطن للحرية والمحبة والانسانية . . . وطن تسوده العدالة الاجتمـاعية للطوائف كلهـا . . وطن يفخر العـرب به . ولم نكن نكـره (زعران) طـائفتنا بـأقل من كـرهنا (لزعران) بقية الطوائف . . ولم نكن راضين عن مصاصي دماء الشعب ، لأية فئة دينية انتموا . . . وكنا نراهم عصابـة واحدة للسـرقة ، تـدين بالـولاء لمافيـا سرقـة الارزاق العالمية . . . والاديان السماوية كلها منها براء . .

فماذا حدث ؟ . . .

وكيف تحـولنا من مجتمـع انسـاني التـطلعـات الى مضـرب للمثـل في الـوحشيـة والقسوة ؟ كيف تحول اللبناني من « الأمير الصغير » الى « المركيز دي ساد » ؟

* * *

. . .ولأن اللغة الوحيدة المتداولة هذه الايام ، هي لغة الطائفية ، وكل ما عداها ذهبت (موضته) كالعروبة والقومية والعقلانية والعلمانية ، أجدني مضـطرة لاستعمال اللغة السائدة . . .

أنا طائفية ، فهل بينكم من يدلني على زعيم الميليشيا التي تمثل طائفتي ؟

انني انتمي الى طائفة « اللاطائفية » ، وحينما اكتب رواية افتش عن الاسماء التي نجدها في الطوائف كلها مثـل عبد الله وسـامي وخليل وسميـرة ووداد وسلوى ، لان الشرير موجود في الطوائف كلها كما النبيل ، ولأن بطاقاتنا الشخصية قد تعرف بالدين الذي ورثناه عن آبائنا لكنها لا تقول اذا كنا جديرين به او نمثله ، ولا علاقة لها ببطاقتنا الانسانية التي يحددها سلوكنا في الحياة . . .

* * *

طائفتي تكره مدناً تدين بشرعة الغاب : المسلح فيها هو القوة ، وهو على حق حتى

ولو كان في رقبته عشرة قتلى ـ أياً كان دينهم ـ يجهل اسماءهم ولا يذكر لماذا قتلهم . . .

وطـائفتي ترفض ان يكـون لها « زعيم » يعيش مـرفهاً وقـومـه في ضيق ، اولاده يـرتعون في بحبـوحة الامن والعيش واطفـال الآخرين يخـطفون ويـذبحون . . . فهـل تعرفون اين أجده لأذهب اليه ، فقد تعبت من الغربة . . .

***

ستقولون لي : انت مسلمة .

سأقول لكم : نعم . انا بحق كذلك ، ولذا ارفض كل ما يدور . . .

« وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو الخلق العظيم ، كان جالساً فمـرت جنازة فقام واقفاً فقالوا له : انها جنازة يهودي ، فقال صلى الله عليه وسلم : أوليست نفساً ؟ » .

هذا الحديث الشريف قرأته في كتاب استاذي الكبير محمد حسين زيدان . وهتفت اليه في جدة ، وسألته هل هو حديث مسند ، فأكد لي ذلك وقال انه صحيح من حيث السنـد والروايـة والمتن والدرايـة . وفي كتابـه « خواطـر مجنحة » يعلق استـاذي المبدع زيدان ـ أمد الله في ربيع ثمانيناته ـ ، على هذا الحديث الشريف فيقول عن نبينا : « اي رحابة اتسعت تعلن حرمة نفس الانسان من هذه الرحابة ؟ انها قدوة ، فإذا ما احترمنا انفسنا كان ذلك خيراً لنـا ، واحترام النفس لن يتـأتى الا اذا اتسعت النفس لأية نفس نعيش معهـا في موطن واحـد ، لهم ما لنـا وعليهم ما علينـا ، امـا من تعـدى الحـد ، فسيجري عليه الحد» . . .

وطـائفتي اللاطـائفية ستـظل ترفض كـل قتل بـاسم الانتقام ، ولـو تقنع خلف شعارات المسيحية والاسلام . . .

٦/ ١/ ٨٥

غربة

ثمة شعور يشبه العتب ، ويكاد يلامس الحسد ، يحسه العرب عامة نحـو المقيم منهم في الغرب خاصة . . ففكرة الاقامة في الخارج مقترنة عادة ـ في اذهان الكثيرين ـ بالثراء المفرط غير المشروع او اللامبالاة بالوطن ، او الانغماس في انهار العسل الأوروبية الليلية وامطار البـطر والتخلي عن الآخـرين . . حتى ان مجرد الاقـامة في الخـارج تبدو للكثيـرين مسوِّغاً للطعن في حب (المغتـرب) او (الغـريب) لـوطنـه ، وانتمـائـه الى قومه . . .

***

قد يكون ذلك صحيحاً في بعض الحالات النادرة ، لكنها للأسف هي الحالات التي تتحدث معظم الصحافة العربية عنها ، حيث تنقل اخبار مباهـج اصحاب الثـراء والسلطان والوجاهة في الغرب وقلما تتطرق الى اخبار فقراء الغربة الذين يتعذبون سـراً ويموتون سراً ، دون ان تلتمع عدسة الفلاش فوق وجوههم الا لحظة رفـع جثثهم من شوارع التشرد . . . اولئـك الذين يغتـربون سعيـاً وراء اللقمة او الأمن او العلم ، لا سعياً وراء قصر ، وزجاجة خمر ، وساق راقصة .

***

تعـالوا معي احـدثكم عن غربـة الناس العـاديين جـاهاً ، والمتوسطين حـالاً او الفقـراء ، اي غربـة الاكثريـة الساحقـة من ابناء شعبي العـربي . . . لا تخافـوا ، لن اضجركم بآلاف الحكايا ، وسأكتفي بنموذج لأحد صباحات الغربة .

تعال يا قارئي وقف معي في (الطابور) ، امام مبنى البوليس في باريس . اليـوم هو الاربعاء ١٦/١ ، وانت الآن ترتجف مثـلي برداً ، والميـزان يسجل سبـع درجات تحت الصفر . . واسم المبنى الذي نقف امامه (نور وست) ، ولكل مبنى (طابوره) البشري الذي يرتجف برداً . نتدافع وندخل الى الغرفة الزجاجية ونتحول الى علبة سردين بشرية

مهددة بالاختناق ، فتستعين الموظفة برجلي بوليس ينظمان وقوفنا في الخارج لنموت برداً بدلاً من الموت اختناقاً . . ماذا نفعل اذا كنا لا نعرف وسيلة اخرى للحصول على بطاقة اقامة ؟

* * *

في البرد تتجلد اعضاؤ نا ، وتتساقط فوق الأرض كالدمى الخزفية . هذه يدي تتكسر على رصيف الغربة الى جانب يد اخي الزنجي الواقف امامي واختي العربية واسرتها الواقفة خلفي . . . واخيراً نعبر عتبة الصقيع الى ملكوت الموظفة الأولى ، وويل لمن لا يتكلم الفرنسية لحظة تسليم جواز سفره وشرح غايته من البقاء في باريس ، حتى وان كان قادماً لتعلم اللغة الفرنسية . . . نتنهد ارتياحاً حين نعبر العتبة الى غرفة الانتظار ونحن نظنها (خاتمة الاحزان) ولكن . . .

* * *

اربع ساعات ونصف الساعة ، وانت مجلد داخل ثلاجة الانتظار . لا لقمة . لا كوب ماء . . لا شيء غير اسماء ينادى عليها في الميكروفون ، وانت لا تستطيع ان تغضب لسرقة ساعات من عمرك ، ما دمت هنا هرباً من الذين سرقوا قبلها عشرة اعوام من ذلك العمر السليب ! . .

كل ذلك يهون امام بكاء تلك المرأة الغريبة . . . في الساعة الحادية عشرة والربع تماماً من ذلك الاربعاء الحزين انفجرت امرأة تبكي بحرقة . . كان صوتها طالعاً من قاع الحزن ، وفي البداية لم نميز اهو صوت ذكر او انثى . . . كان شبيهاً بصوت الريح المتسربة عبر ثقوب القلب . . . فجأة صمتت القاعة بأكملها ، وتحجر الغرباء بجنسياتهم المختلفة امام ذلك الاسى الانساني ، ولعل بعضنا خاف ان يكون البكاء خارجاً من اعماق روحه هو ، فوضع يده على فمه ليتأكد من ان انتحابه ما زال سرياً وصامتاً . . . لم يقترب احد من المرأة ، كأنها مسورة بمهابة قلبها الذي يعري احزانه .

* * *

تابعت المرأة انتحابها المقهور ، الذي لم يبلغ حدود العويل او الهستيريا ليتم طردها بتهمة اقلاق الراحة العامة ! . . . لا شيء في القانون ضد ان تأكل في الأماكن العامة او تبكي او تسعل . . . وبعد دقائق الرهبة الاولى انضم الى المرأة طفل صغير . . لحظات اخرى ، ولم يبق في القاعة طفل لا يبكي بصوت مرتفع . . . كأن الانسانية ترفع صرخة احتجاج طفولية عفوية . . . .

ظلت تنتحب طوال ربع ساعة احسستها دهوراً . . . وحين تعبت كان كل من في القاعة يمسح دمعته خلسة . . وقد فجّرت في القلوب كلها لوعات الغربة ، وانسحبت عن المسرح . . .

هذه عينة مما يقاسيه الانسان العادي في الغربة . . .وبكاء الاربعاء ١٦/١ لم يحدث فقط في مبنى (البرفكتور) . . . شاهدته عبر الجدران ، داخل المستشفيات ، والبيوت الفقيرة ، والمعامل ، والحوانيت ، والاماكن كلها التي يتحرك فيها العرب الغرباء الفقراء ، من مناضلين ولاجئين وعمال وسياسيين ومثقفين وتجار متوسطي الحال وطلاب علم او امن او رزق . . .

***

غادرت (البرفكتور) ذلك اليوم الحزين في الخامسة مساء ، وهبطت الى محطة مترو (سيتي) ، وعلى المقعد الخشبي سطرت لكم بعض هذه الحروف : لا بد من التمييز بين غربة تحت الصفر ، وغربة فوق الريح . . بين غربة المترف وغربة الكادح . . بين غربة « ليلنا خمر » وغربة « آخ يا بلدنا » ، بين غربة « هزي يا نواعم » ، وغربة هز العصا لمن عصى اوامر ظالم . . بين غربة جمع المال ، وغربة جمع العلم . . بين غربة الطائرات الخاصة وغربة دهاليز المترو . . . بين غربة (الكوما) عن الوطن وغربة الانتماء اليه . . .

باريس ١٧/ ١/ ٨٥

نحبهم . . . ونكرهكم

أمام موتهم النضر النقي ، رجال المقاومة في جنوب لبنان وراشيا الفخار والبقاع الغربي ، تبدو بقية أشياء حياتنا أكثر بشاعة واهتراء وسقوطاً من أي يوم مضى . . .

أمام استشهادهم البسيط الفاتك في مواجهة العدو الاسرائيلي ، تبدو ممارسات بعض (صبيان) الميليشيات على أرصفة حياة الناس العزل خيانة عظمى لم تعد مقبولة .

* * *

عشرة أعوام وهم يقتتلون على « كيفية القتال » ، فوق دفاتر أطفالنا ويطارد بعضهم بعضاً بين أزقة المستشفيات وقاعات المدارس وبيوت العجزة وحليب الرضع . . . يقتتلون على كيفية تحريرنا ، فوق ذلنا وخبزنا واشلاء عمرنا ووسائدنا وأصابعنا وثياب حدادنا وشرفاتنا ، حتى صارت بيروت رمزاً للموت العبثي الهزلي الدامع ، ومسرحاً لانتحار المرضى بالزهو المسلح ، والسطو المسلح ، والقمع المسلح لنا باسم الحرية طبعاً . . .

* * *

وصرنا سخرية العالم . . اذا ساعدنا عربي هدمنا ما بناه . . . وإذا مد الينا أحد يد العون عضها البعض بناب اللامسؤولية قبل الجحود . . . وصارت بيروت موضع تندر كوكبنا واحتقاره الضمني ، مرتسماً في عيني ضابط أي مطار في الدنيا يلحظ جواز سفرك اللبناني ويتأملك متسائلاً : أهذا مهرب حشيش ، أم مهرب سلاح ، أم مجرد سارق عادي ؟ وجراثيم أي موت يحمل الى بلدنا ؟ . . . لقد أصبحنا رمزاً للأذى العبثي . . .

* * *

نحبهم ، شهداء المقاومة في الجنوب وراشيا والبقاع الغربي الذين واجهوا القمع الاسرائيلي والمجازر والاعتقالات والتجويع والتعطيش وتدمير البيوت واحراق المحاصيل وجرف أشجار الليمون ، وقاموا باعادة الاعتبار الى الموت ، والى لبنان ، والعرب . . .

واستطاعوا تجييش القرىٰ والحقول ، فالتهب الناس دفعة واحدة صغيرهم وكبيرهم وعاجزهم « وتاء تأنيثهم » ، وأعادوا الى الذاكرة صورة العربي الجميل المقاتل العادل . . .

وأثبتوا أن سياسة « القبضة الحديدية » لاسرائيل هي سياسة « قبض الريح » .

***

ونكرهكم ، يا من نقرأ أخبار شجاراتكم الصغيرة الى جانب أخبار استشهادهم الكبير . . وعبثكم بالسلاح وبكرامات الناس ونومهم وصحوهم وأرزاقهم ، وأنتم تقتتلون في (زواريب) شراييننا ويطارد بعضكم بعضاً داخل دورتنا الدموية ، وتسرقون الضوء من مصابيحنا ، والشمس من أيامنا حين تقسروننا على البطالة داخل الملاجىء . . .وعلى الهجرة بين محطات الغربة والقهر . . . لقد اندس السارق وفارض الخوة وقاطع الطريق بين صفوف الشرفاء الذين قاتلوا أو استشهدوا ليكون الوطن أكثر عدالة وعروبة وانسانية . . . وقضينا عشرة أعوام والسارق يسرقنا مرتين : يسرق حياتنا ، وموت شهدائنا . . .

***

نحبهم ، فاستشهادهم صورة مصغرة عن الحل العربي المنسي الناصع الأوحد : ارادة الصمود والقتال .

ونكرهكم : تشرذمكم وغطرستكم وزهوكم بالاستقواء على كرامات الناس بغير حق ، صورة عن التشرذم العربي الكبير والتخلف المرير والتمزق الشاسع . . .

هم يذكروننا بأنبل ما في العربي ، وأنتم تذكروننا بالانهيار والكارثة وفقدان الحس بالمسؤولية . . .

***

هم يعيدون الى قضية لبنان احترام العالم ، والى مأساة جنوب لبنان بعدها القومي وعمقها العروبي ، ويفرضون على بقية العرب اتخاذ موقف تتقرر مصداقيتهم على ضوئه ، وأنتم تابعتم العبث المسلح بتفتيت الجبهة الداخلية ، واضعافها .

***

نحبهم ، أولئك الذين يرسمون صورة مشرقة للبنان ، ويعيدون بدمهم أخباره الى صحف العالم ويفرضونها على تلفيزيوناته ، وينتزعون احترام الأكثرية الساحقة من الرأي العام العالمي .

فليس ثمة من لا يتعاطف مع (مقاومة) ضد (محتل) ، وفي تجارب الشعوب المريرة كلها طعم هذا الموت الشجاع الباهر العفوية والتواضع .

ونكرهكم ، أنتم الذين مزقتم أوصال مدينتنا وأجهزتم على أعصاب العباد . وخربتم ردود فعل الناس . . فصار حتى احتجاجنا على ظلم لحق بنا ، يتقمص صورة ظلم أكبر نلحقه بأبرياء آخرين مثلنا ، مظلومين مثلنا . . الم يعد ممكناً مثلاً أن يصرخ رجل « أنا مظلوم » وهو على حق ، الا فوق جثة رجل آخر وأجساد (دزينتين) من الجرحى المظلومين ، ولكل منهم حكايته بل وموسوعته الخاصة بالقهر الذي عاناه والظلم والتشرد ؟ . . .

***

نحبهم بمقدار ما نكرهكم ،

نحبهم ، أولئك الذين يستشهدون (بالنيابة) عن الأمة العربية جمعاء ، ونكرهكم ، ونتوسل الى مخلصكم وصادقكم أن يخرج من جرحنا مصطحباً معه سلاحه ، وليذهب صوب الجنوب !

٨٥/٣/٦

نكتة للبكاء

مع صديقتي الدمشقية التي تزور باريس جلست في صالة الفندق المزدحمة بالناس ، وقد تصدرتها شاشة تليفزيون عملاقة . وحين أعلنت المذيعة عن برنامج ساخر يومي شهير هو « كوكوريكوبوي » اقترب الجالسون من التليفزيون وتعالت القهقهات الجذلة ، وفعلنا مثلهم .

مداعبة أثر أخرى ، والضحك الجماعي عدوى لذيذة . . . . حتى قال أحد نجوم البرنامج نكتة أضحكت الجميع ، وأبكتني ! . . .

فقد روى ممثل يؤدي دور سمسار البيوت لزبائنه الأوروبيين : عندي شقة كبيرة . أربع غرف نوم ، صالونان ، غرفة طعام ، شرفتان وكاراج للايجار بمبلغ ألف فرنك في الشهر فقط !

وصرخ الزبائن بلهفة : أين تقع الشقة لنذهب اليها ؟

أجاب ضاحكاً : في بيروت الغربية طبعاً .

وقهقه كل من في صالة الفندق . . باستثنائي طبعاً ! . .

* * *

ملايين المتفرجين ضحكوا لتلك النكتة ، باستثناء سكان بيروت الغربية أمثالي ! . . فالرجل يسخر من بيوتنا ، ومدينتنا التي تمنيناها يوماً منارة للفكر والحرية ، تحولت الى أحد أعقاب السجائر المستهلكة في منفضة السخرية . . يا لها من نكتة للبكاء ، حين يكون بيتك هناك ، وقلبك هناك ، وجرحك هنا وهناك .

مساء اليوم التالي حاصرني الثلج وصديقتي في صالة الفندق ثانية أمام شاشة التلفزيون نفسها . نشرة الأخبار ، والمذيع يتحدث عن الشؤون الفرنسية الداخلية . تنفست الصعداء (والنزلاء أيضاً) وقدرت أنني سأرتاح قليلاً من جرح لبنان . لكن المذيع استعمل تعبير « لبننة فرنسا » على سبيل التحذير . وها نحن ندخل قاموس

المصطلحات السياسية للدلالة على منتهى التمزق وسوء المصير، بعدما دخلنا قاموس السخرية والنكات للدلالة على أكثر الأمكنة رداءة في العالم، للاقامة ولاستئجار منزل ناهيك عن تربية الأولاد، وارسالهم الى مدارسهم كل صباح بين المتاريس وعبر حقول الألغام . . .

***

تجمهر نزلاء الفندق من عشاق هتشكوك (وصديقتي الدمشقية وأنا منهم) أمام الشاشة الصغيرة مع بدء ذلك المسلسل الأسبوعي الهتشكوكي على قناة (فرانس ٢) . قلت لنفسي : سأستريح قليلاً من سيرة بيروت . ولكنني فوجئت بأن بطل المسلسل المهووس جنسياً، المهزوز نفسياً، قد خرج لتوه من مستشفى المجانين لأنه كان مقيماً في بيروت قبل ذلك لمدة ٣ أعوام !! . . .

لقد انتهى الأمر، وتحولت بيروت الى أحد رموز العنف الأعمى الهستيري، وحلت محل « شنغهاي » و« شيكاغو » في هذا المجال ! . . .

وستنقضي أعوام طويلة قبل أن تتوقف عملية غسل الدماغ الجماعية لسكان كوكبنا، كما حدث لشنغهاي التي هدأت أحوالها ولكنها ظلت رمزاً للعنف المتوحش زمناً بعيداً بعد ذلك ! . . .

***

تلك المدينة الوردة التي أحببناها متفتحة حرة نقية، تحولت نهائياً الى واحدة من (كليشيهات) العنف التي ترفد قواميس النكات التليفزيونية وبرامج المغامرات حيث يأتي (الشرير) دوماً من بيروت ! . . .

قلت لصديقتي الدمشقية التي لامتني يوم وصولها لأنني أكتب عن بيروت أكثر مما أتحدث عن مسقط قلبي ورأسي دمشق : هل عرفت الآن لماذا أعتبر الكتابة عن بيروت واجباً عربياً ؟ . . . هذه مدينة فتحت صدرها للجميع، واحتضنت العرب، وقد سقطت اليوم الى قاع البؤس، وتوسخت سمعتها في العالم . . . فهل نتخلى عنها ؟

هل عرفت لماذا أكتب هذه الأيام عن بحمدون أكثر من قاسيون، وعن الدامور وصوفر أكثر من معلولا ودمر ؟

***

كررت لصديقتي : اذا كان في حروفي ما هو عريق وأصيل، فهو عراقة دمشق في دمي، أقدم مدن التاريخ الصامدة، وأصالة شعبي السوري .

وأخلاق دمشق في دمي هي التي تجعلني أقف الى جانب بيروت ، فقد علمتني منذ نعومة أظفاري وقلمي ألا أتخلى عن أحبابي حين يسقطون .

وأخلاق شعبي السوري في أعماقي هي التي تفرض عليَّ الوفاء لمن أكرمني ، وقد أكرمتني بيروت كما أكرمت الأدباء العرب جميعاً، ووجد فيها ـ حتى الذين لا يستحقون ـ ملاذاً وموطىء قلم وقدم ذات يوم . . . فكيف ننسى مدينة فتحت صدرها لكل جريح روح ، وطريد قلب ، وشريد فكر ؟

* * *

أن أتذكر بيروت لا يعني أنني نسيت دمشق . كأنني مثل جدتي العربية القديمة التي سئلت عن أحب أبنائها اليها فقالت : صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يشفى .

وبيروت مريضة منذ عشرة أعوام ونيف . . . تنزف جرحاً بعد آخر ، ليلاً بعد آخر ، جنوناً بعد آخر ، ضحية بريئة بعد أخرى . . . .

وقوى الشر التي تحاول تركيعها لا تتوق لأكثر من هجر عشاقها الحقيقيين لها ، ونسيانهم لأحلامهم الكبيرة فيها : ألق الفكر العربي الحر ، المتوهج خارج الأقنعة والكمامات وبعيداً عن الكلمات المحشوة داخل قفازات الخوف والرياء . . .

بهذا المعنى يبدو التخلي عن بيروت كالتخلي عن الذات . . .

* * *

أقطار أخرى عربية غالية تنزف وتدمي قلوبنا جراح أهلها . . لكن لبنان يظل الأخ الأصغر ، الأكثر مرضاً الأطول معاناة ، المشرف على الهلاك حقاً . . . ويظل جرحه الأكثر تعقيداً ، وشروره الأكثر فسيفساء (تخلفية) ، وأوجاعه مرآة لمآسي العرب جميعاً ، وانعكاس لسموهم وسقطاتهم في مرآة بحر بيروت . . .

لقد تزاحم العرب على تلك المدينة يوم كانت وليمة ، فهل انتهى الآن عرس الدم وحان وقت غسيل أيدينا الملوثة جميعاً بنزيفها ؟ هل علينا أن نحترف الآن مهنة العنكبوت لنخيط خيوط اللامبالاة شرنقة حولها ؟

هل نهيل عليها النسيان بعدما زرعت في عيوننا النجوم ؟. . . ليتني أستطيع . . لأستريح . . .

ليتني لا أستطيع . . لأظل احترم نفسي ! . . .

باريس ١٥/ ٢/ ٨٦

ليلة باريسية

غجرية بـاهرة الحسن ، عارية القـدمين ، تـركض في دروب الليل راقصـة وقد نشـرت عتمة شعـرها الـطويل الأسـود بين قـوس النصر وبـرج ايفل وسـاحة المـادلين والفاندوم . . . حاضرة في البيوت كلها والحانات والأرصفة . الأوراق الملونة والفراشات والموسيقى تطير من شعرها . . نظراتها ألعاب نارية وابتسامتها دعوة للحب والفرح . . . تلك هي باريس ليلة رأس السنة . . .

وعند منتصف الليل ، ارتدى « برج ايفل » حلته الضـوئية الجـديدة التي سيـراه الناس فيها في الأعوام المقبلة ، وخلع القديمة التي سبق وارتداها منذ عـام ١٩٥٢ حتى الليلة . . . فتحول الى قصيدة معدنية نورانية ، محاطة بهرم شاسـع من الضوء الأزرق الأثيري . . . وتفجرت ألعاب نارية برتقـالية وفضيـة ، وتفتحت وروداً ومجوهـرات في الشعر الأسود للغجرية ، وجنت الصرخات الجذلة والعاشقة والمستبشرة بعام جـديد ، وغطت القبعات الملونة شلالات الشانزيليزيه المنهمرة نوراً . . .

في تلك اللحظة بالذات ، أغمضت عيني أمام ذلـك العناق الشـرس للجمال ، وهمست بلا صوت أمنيتي : « أرجوك يا رب ، لا تدعني أكون هنا في العام المقبل » ! . .

***

قلب الغريب يرى الجمال ولا يبصره . يلامسه ويبقى خارجه . جسده يستحم بالأضواء المنهمرة من أشجار باريس المزينة بآلاف المصابيح الشفافة الـوهج ، وقلبـه ما زال يهيم بعيداً في شوارع مدينته المسودة بالهباب والقتلى والأحـزان وصنابـير الكهربـاء الجافة الا من الحشرات والتنهدات . . . يتحول الغريب الى شبـح راكض بين أحبـائه هناك ، الذين عـرفهم في الماضي والـذين لم يعرفهم ، ويـده اللامـرئية تـلامس بحنان وجوههم وزمنهم وأصواتهم وروائحهم . . . ويعي بحزن أسيان أن كل الرشـاوى التي يقدمها العالم له والحسن الغجري الضوئي وبركات أفراح اللهو ، هذه كلها عاجزة عن

شراء ذاكرته . . . لا رشوة في الدنيا تجليه عن جذوره . . . « أرجوك يا رب ، أمنيتي ألا أكون هنا في مثل هذه اللحظة من العام الآتي » . . .

* * *

ومن نهر السين ، تهب أصوات السفن وهي تطلق صيحات الوداع للعام الماضي ، محتفلة بقدوم العام الوليد . . . ولا أدري لماذا تبدو لي صيحاتها حزينة كالفراق ، شرسة وباردة كحديد المرساة ، حادة وموجعة كضربة خطاف من يد قرصان . . . منذ عام سمعت هذا الصوت الحزين للوداع ، وتمنيت ألا أسمعه ثانية هنا . . وأن يكون ايذاناً لفراقي وهذا المكان ، وليس لفراقي والذين أحبهم في تربتي الأم . . . وها قد مر عام آخر وأنا هنا . . . وقد يمر عام آخر « أخير » ، فآخر وآخر أخير وسنة مرفوضة بعد سنة . . . وأنا هنا . . . أهكذا يسقط الناس في المستنقعات المتحركة للغربة ، دونما سابق تصميم وتصور ؟ . هل يحدث الأمر غالباً على هذا النحو ؟ . . .

أفكر بالغرباء حقاً أمثالي في كل مكان . . آخذ الى قلبي كل غريب يتعذب في هذه اللحظة مثلي ، مستحضراً ما تبقى من الروائح والأصوات والوجوه اللامنسية زادا له في مواجهة الغربة . . . وأشعر بأنني أقف خارج هذا الزحام الراقص اللاهي المبتهج حولي ، وجسور لا مرئية تمتد في الليل الحزين كالشرايين بين أعماقي ، وأعماق كل غريب تألم في تلك الليلة مثلي ، وقد احتضن في صدره حلماً مكسوراً . . . تطلق السفن صفارات الوداع بشراسة ، فأمسك بيد آلاف المشردين مثلي ، وأشعر بأنني لم أعد وحيدة حين آخذ أحزانهم الى أحزان قلبي . . . أنا معك يا غريباً مثلي ، أياً كان اسمك وخطاياك ورياحك . . .

* * *

تأتي لمسات حنان من الماضي الحاضر . . . هذه لينا ، قطفت لي من حديقتها وردة بيضاء معفرة بتراب الوطن ، أودعتها في ظرف ، وحملتها لصديق مشترك مسافر في اليوم الأخير للعام . . . وعند المساء ، كانت الوردة بين أصابعي ، تهب منها رائحة حقول أحبتها . وردة ما تزال دافئة دفء قلوب أهلها ، وحينما أغلقت يدي عليها خيل الي أنها تنبض كقلب حي ، وحين فتحت يدي خشيت أن تطير كعصفور وليد . . . وحين غرستها في شعري صرت فراشة . .

* * *

لمسة دفء اخرى من الوطن . . .

ندى بحثت لي عن شجيرة جاردينيا في باريس بعدما قرأت كلمتي عن « شجرة بلقيس » ، فلم تجدها . . . ووجدت في مجرد الفكرة لحظة محبة شفافة . . . ففي بلادي لا يسقط مشعل المودة ، واذا سقط من يد ، سرعان ما تمتد اليه أنامل حنان أخرى ، ترفعه عن أرض النسيان ، وتركض به الى كهوف القلوب الحزينة . . .

هشام أرسل لي نبتة كأنها قادمة من أرض الوطن . . . أزهارها تشبه دويكات الجبل التي تنتشر في حقول لبنان وجباله . لكنها «دويكات» عملاقة ، أتأملها طويلاً ، وأجد نفسي فجأة وأنا أهرول في سهوب شاسعة تطل منها آلاف الدويكات راقصة فوق سيقانها الدقيقة الشفافة ، ورياح بحرية دافئة ترافقها ايقاعاً ، وتفوح رائحة لبنان الغالي كطفل جريح ، تلفح وجهي وأنا أتابع الركض فوق تراب افتقدت ، وزهرة تسلمني الى أخرى . . . هكذا اللبناني حتى في باريس ، اذا أهدى جاءت هديته صورة عن أشياء وطنه ، بقدر ما تسمح بذلك قامات الأزهار الباريسية . . .

***

يستجوبونني : ماذا فعلت ليلة رأس السنة ؟ وأصمت .

وتنطق في عيونهم التهم السبع . . يتخيلونني اقترفت الخطايا كلها التي كانوا يشتهون اقترافها ، ولا يتجرأون ، وفنون الجنون الممكن بلا حدود في باريس ، وغير الممكن .

وحين يلحون في استجوابهم أقول لهم ببساطة : أخجل من أن أبوح لكم بما فعلته في تلك الليلة . . . وأشعر بأن الكلمات تستحيل الى جليد يسد الحنجرة . . . آه من يجرؤ على الاعتراف بأنه هرب الى النوم تلك الليلة ؟ من يجرؤ على القول بأنه لم يجب على هواتف الفجر لأنه كان ببساطة نائماً ؟ . . . وكان يخون معارفه جميعاً ، مهرولاً في كوابيسه بعيداً عن باريس ، ممسكاً بيد غريب مثله ، تعذب تلك الليلة مثله ، ولا يعرفه بعد . . . وطلع الفجر قبل أن يسأله عن اسمه ، ونسي أن يسأله عن عنوانه ، وسجل رقمه الهاتفي على لفافة ، ثم دخنها . . .

٨٦/١/٣

الجائزة للمهزوم !

صباح الأحد ٧ تشرين الأول ، استيقظت على صوت زئير معدني . نهضت مستطلعة . شاهدت المراكب السريعة تطير فوق صفحة نهر السين متسابقة وهديرها يصم الآذان . مرت ساعة . ساعتان . ثلاث ساعات . أربع . ثمان ساعات وهي لا تهدأ ، وأنا عبثاً أحاول كتابة « لحظة حرية » ، فقد قمعني الصوت الشرس ، والضجيج المتوحش طاحونة جهنمية تسحق الأفكار والخواطر والمشاعر . . .

***

كنت قد اخترت هذا البيت الصغير الهادىء على نهير السين لأنه يقع في قلب السكينة ، ومقابل « تمثال الحرية » المحبب الى نفسي في منطقة « جرينيل » بباريس غير الفخمة . . . ويبدو أن منظمي السباق اختاروا البقعة نفسها للسبب ذاته ! النهر هنا هادىء ، شاسع العرض ، يشطره الى نصفين لسان من الأشجار الشاهقة المتوحشة الخضرة . . . والزوارق تدور حول هذه الجزيرة الطولانية وتدور . . . حسناً . انني أحترم رياضة « الماراثون » زحفاً وركضاً وداخل المراكب والطائرات ، ولكن ليس أمام شرفتي يوم كتابة (صفحتي) . . أجل . . « احترم » هي الكلمة . فأنت أحياناً تحترم أشياء لا تحبها . وأنا بصدق لا أحب (الرياضات) التي تتضمن تمجيداً للعنف الحيواني في البشر ، أكثر مما تعبر عن أنبل ما في انسانيته من ارادة وقدرة على التحكم في الطاقة الجسدية مثلاً . . . وسباق الزوارق السريعة ـ باستثناء ضجيجه الرهيب ـ ينتمي الى فصيلة الرياضة التي نسبة الرقي الانساني فيها تفوق نسبة القوة الجسدية الحيوانية . . . فهي تتطلب صبراً وإرادة وقوة في التركيز ودقة في الحسابات . . ثم أنها لا تؤذي أحداً . . . (باستثنائي) !

***

الكتابة وسط هذا الضجيج مستحيلة . . نزلت الى شاطىء النهر أمشي صوب « تمثال الحرية » الذي يتوسط النهر ، واليه أحج كل يوم . . . وذلك العنف المعدني

المتوحش في زعيق القوارب السريعة ينكأ (جرحي الرياضي) الذي أتكتم عليه . وقررت أن أعترف علناً : أكره تلك (المجزرة) الملقبة برياضة « مضارعة الثيران » . همنغواي مجدها ، وعدد كبير من الكتاب والشعراء والبشر يحبونها وأنا أمقتها . . . طوال الأسبوع الماضي والشغل الشاغل لبرامج الرياضة في التلفزيون هو مصرع فرانسيسكو ريبيرا باكيرتي المصارع الأعظم على قرني ثور . . . رغم التفسيرات (الميتافيزيقية) كلها (لأبعاد) هذه الرياضة المنقرضة الا في اسبانيا والمكسيك ، ما زلت أرى في مصارعة الثيران تعبيراً عن حب البشر للقتل ، وسفك الدماء ، وتمجيد القوة الجسدية ، وغطرسة الانسان على غيره من مخلوقات الله . ثيران مرصودة سلفاً للقتل ، تغز فيها الرماح الملونة ، وتعذب حتى الموت . لماذا ؟ ثمة رجال يعذبون حتى الموت من أجل قناعاتهم الفكرية ، وعالمنا المتوحش لا تنقصه غريزة الافتراس ، ورياضة مصارعة الثيران تبدو لي المكمل (الرياضي) لمناخ سياسي كهذا ، ولزمن فاسد رديء متوحش كزمننا . . . لدينا في دمشق مثل شعبي يقول : « من يلاعب القط ، عليه أن يلقى خرمشته » فما بالنا بمن (يلاعب) ثوراً وزنه ٤٠٠ كغ كالذي قتل الماتادور باكيري ؟

نصف مليون انسان خرجوا في جنازته ، لم أتعاطف مع أحد منهم ، فقد كانوا يتابعون مهرجان « تمجيد العنف » حتى النهاية . . . وحدها صورة زوجته الباكية اخترقت قلبي كرمح الماتادور . . ويتيمه المبتسم ابن الثمانية أشهر اقتحمتني ضحكته كصاعقة . . . أسرة أخرى بائسة على مذبح آلهة العنف الدموي التي آن للانسانية أن تنضج وتتخطاها ، وتبشر بانقراضها ورموزها في آن . . .

لا يمكن لامرأة قادمة من بيروت الا أن تمقت العنف ، حتى ولو ارتدى ثياب الرياضة !! . . .

أعترف لكم أيضاً أنني لا أحب رياضة الملاكمة والمصارعة . . . ولا أدري لماذا يتجمع هذا العدد الكبير من الناس لتأمل رجلين يضرب كل منهما الآخر دونما مسوِّغ . . . لماذا لا يذهب هؤلاء الناس لممارسة رياضة ما ، بدلاً من الجلوس ساعات ، مهللين لكسر يد الأول ونزف الآخر ومصفقين لتحطيم العمود الفقري أو ارتجاج الدماغ لهما . . . في العام الماضي مات عدة شبان اثر (مباريات) الملاكمة ، ولم يلتفت عشاق (الرياضة) الى دموع الأم التي سرقت (حضارتنا) الدموية ولدها وضحت به فوق « مذبح العنف » الملقب « بحلبة المصارعة » . . . أما آن للبشرية أن تنضج إنسانياً وتنقرض بذلك هذه التظاهرات منتقلة من الممارسة الى المتحف ؟ . . . وهل ابتعدنا

كثيراً حقاً عن (أفراح) كوليزيوم روما ، حيث كان يرمي الناس الى الوحوش في حلبة دموية الهتافات ؟ .

* * *

سرت على شاطىء النهر والقوارب تعوي ، وهذه الأفكار تتدفق في رأسي . شاهدت مجموعة من الصبية يتأملون السباق باهتمام . سألت أحدهم وهو في العاشرة من عمره : هل أنت مع القارب الأحمر أم الأصفر ؟ وأي قارب تظنه الرابح ؟ قال لي بعينين تتوهجان ببريق براءة شريرة مذهلة : أتمنى أن يصطدم أي قاربين منهما . أريد أن أراهما ينفجران أمام عيني . هذا ما أتفرج عليه !! . .

شهادة عفوية بريئة من طفل ، دونما كذب أو ادعاءات أو (تصعيدات) شعرية لحقيقة أرضية طينية . . هل الطفل (هكذا) لأننا نربيه على ذلك ، أم هو بغريزته كذلك ونحن نربي بذور الشر باتقان ؟

تأملت الزوارق الحديثة المدهشة التطور بحزن . . إذن الأدوات تتبدل والعدوانية باقية . . . وإذا لم يقتل الناس بعضهم بعضاً في حلبات المصارعة ، فهل سيخترعون حرباً عدوانية ؟ . . لا بد من العنف ، اذن فليتم تنسيق القنوات بحيث يقتل أقل عدد ممكن من الناس ؟ أهذا جوهر الحكاية ، مضافاً اليه في عصرنا لعبة التسويق الاستهلاكية للسيارات والقوارب وسواها ؟ . . . وهل هذا ما دفع ببطل سباق السيارات النمساوي لودا للاحتفاظ بوجهه المشوه أثر تدهور سيارته في سباق ، رافضاً عمليات التجميل كلها ، لأنه ببساطة وجد أخيراً وجهه الحقيقي . . . وجه عصرنا المرعب البشع ؟ . . .

* * *

ومتى ينتقل الانسان على الصعيد الرياضي من (المشاهدة) الى (المشاركة) ؟ . . .

أليست حضارتنا الحالية نقلة نوعية الى الوراء في هذا المجال ؟ . . . فبفضل الاختراعات الحديثة من راديو وتلفزيون ، أضحى المرء يكتفي من الرياضة بالجلوس أمام الشاشة في كرسيه الهزاز ، بدلاً من ممارسة رياضة المشي على الأقل وهو في طريقه مثلاً الى حلبة المصارعة . . .

لقد سقطت الرياضة في فخ «حضارة المشاهدة» بدلاً من «حضارة المشاركة» . .

* * *

وصلت الى تمثال الحرية الباريسي الذي يتوسط النهر ، والأقل شهـرة من شقيقه (النيويوركي) . . . شاهدت الدموع تنهمر من عيني التمثال ، أم أنها كانت تمطر ؟ لا أدري بالضبط . . . ولكن خيل الي أن صداقة ما تربط بيننا ، وأننـا نشـترك معـاً في حلم واحد : أن تغادر الانسانية سن المـراهقة الى سن الـرشد . . . فـما دامت غريـزة الافتراس الدموية العدوانية المتغطرسة تقطن دهاليز القلب ، لن تقوم للحرية الحقيقية قائمة . . فجوهر الحرية هو ببساطة ، الرقي الانساني الى حد اعتبار « الآخر هو أنا » ، وليس خصمي في حلبة التفوق . . . فهل نشهد سنة ٢٠٠٠ طلائع هذه الظاهرة ؟

لا . . سنة ٢٠٠٠ أضحت قريبة جداً، والانهيار مستمر ، أعتقد أن عبارة « سنة ٢٠٠٠» صارت كليشيه مستهلكة، وبات علينا أن نتحدث من الآن فصاعداً عن سنة ٣٠٠٠ في معرض الحلم بالتبديل . . الحلم المتفائل لانسانية ما . . .

أحلم بأن يدور هـذا المشهد في احـدى قاعـات الريـاضة سنـة ٣٠٠٠ ميلاديـة مثـلاً . . . رجلان يتـلاكمان . أحـدهما ينتصـر والآخر يسقط عـلى الأرض . المنتصر يعاقب لأنه أكثر عدوانية وقوة حيوانية،والمهزوم تعطى له الجائزة لأنه الأقل وحشية . . .

قارئي العزيز . . . للتو انتهى السباق وتوقف الزئير المعدني ، وصار في مقدوري أن أكتب لك هذه الصفحة !! . .

باريس ٧/ ١٠/ ١٩٨٤

عواطف غير منضبطة

هل يحزنـك أحيانـاً ما يبهـج بعض الناس ؟ هـل تجد نفسـك وحيداً في مغـاور الأسى ، والذين حولك يتبارزون بالنكات ، ونساء السهرة يتبارين في مسابقة غير معلنة للرقص الشرقي وهز البطن والأرداف ؟ هل تهب رياح قلبك صوب أراضي الحزن من آن الى آخر ، لأنك صرت عاجزاً عن تخدير نفسك بظاهر الأشياء ، رافضاً خبز الفرح على موائد مجتمعات لا تعي همومك ؟ . . هل تخترقك تلك الغصة الصامتة ، في لحظات يفترض فيها ان تطلق صيحات الاعجاب أو الفرح ؟ . . . هل عواطفـك عناصـر غير منضبطة احياناً على الايقاع الاجتماعي العـام ؟ . . اذا كنت كذلـك ، هات جـرحك واتبعني . . .

***

ضبطت نفسي متلبسة بحزن غامض أمام مشهد خارق الجمال يفتـرض ان يثير الفرح في النفوس . . ففي مـطلع هذا الشهـر ، زار باريس رئيس دولـة غير عـربية ، ورافقت زيارته تظاهرة جميلة من أقواس النصر الباهرة الأضواء ، وكوكبـة من الألعاب النارية اضاءت نافذتي كمجرة ملونة ، وسطعت فوق « نهر السين » بين « برج ايفـل » و « التروكاديرو » . . ثلاث ليال متعاقبة من الاناشيـد الصاعـدة من مركب يعبـر النهر شلالا من نور واغنيات ، فيما تنطلق منه قذائف الالعاب النارية لتتفتـح فوق صفحـة السماء زهوراً وحشية باهـرة الحمرة والخضـرة والصفرة ، ثم تنهمـر مطراً ملونـاً يخطف القلب . . .

وخـطف الحزن قلبي في الليلة الأولى ولم ادر لـماذا ، إلا حين أشـاح طفلي عنهـا بوجهه متضايقاً شبه مذعور ، وهمس : أصواتها تذكرني بالقصف في بيروت . . لم أعد احبها . . .

***

لم يعد الضوء قادراً على رشوتنا عن الصوت : صوت القصف . لم نعد نرى من الالعاب النارية غير صوت الدمار ، وقلبنا مركب مجنون يعود دوماً إلى جرح الوطن ، ويتذكره في كل ما يفترض ان يساعده على النسيان . . من تخرج من مدرسة الألم في بيروت يصير عاجزاً عن الرقص فوق ظاهر الأشياء . . . من عرف لذعات الجوع أيام حصار القتال لا يمكن الا ان يفكر : ثمن هذه الالعاب النارية سيدفعها الشعب الجائع لهذا الحاكم . ثمة عشرة آلاف مواطن إضافي سينامون الليلة في وطنه بدون عشاء كي يستمتع بعض المحظوظين من أهل هذا الكوكب بالمشهد الجميل . . . فهل هو جميل حقاً ؟ هل ثمة جمال بلا مشاركة ولا عدالة ولا سلام ؟ هل من حق اي حاكم ان يزرع ورود النار في الغيوم بدلاً من زراعة القمح لجياع بلده ، مهما كان جمال ورود النار ؟ أليست ابتسامة السعادة على وجه طفل ، أي طفل ، مهرجان العاب نارية من السعادة ؟

***

وصرت اراقب نفسي مثل موظف مخابرات ، وأرصد ردود فعلها في الأشهر الأخيرة . وكتبت التقارير عنها وعن سلوكها غير الاجتماعي واللائق ، وإليكم بعض حصيلة تجسسي على نفسي ، فهل لديكم تقارير مماثلة عن احزان روحكم ؟ وهل تحصون انفاس ذاتكم من آن إلى آخر ؟

ليلة الخميس ٢٥/٤/٨٥ مثلاً ، رصدت عواطف غير منضبطة في قاع روحي امام خبر جميل لا يفترض ان يثير غير اعجابي . ففي هذا اليوم صدرت جريدة « الليبراسيون » الفرنسية ، وفيها صفحة كاملة محجوزة لاعلان لا يضم غير اربع كلمات هي : ايزابيل . أحبك . التوقيع : علي .

وذكر مذيع اخبار قنال (TF1) ان ثمن الاعلان هو ٣١ الف فرنك . .

سر الجالسون بذلك ، وشعرت بكآبة خفية تخترقني ، لا لأن الاعلان ليس موجهاً إلي (!) ، ولكن . . . ثمة انسان انفق ٣١ الف فرنك هدراً ليقول كلمة كان بوسعه ان يهمسها على الهاتف ب ٢٠ سنتيماً ! . . وكان في مقدوره ان يصرخ بها ايضاً تحت شرفة جولييت (أقصد ايزابيل) أو في المترو مجاناً . . وكان في مقدوره ان ينفق هذا المال المهدور على ايزابيل أخرى على هذا الكوكب تفتقر الى التطعيم او العلاج أو أقساط المدرسة . . من يعيش عشرة اعوام في بيروت يخسر متعة طرافة الأشياء لكثرة ما شاهد من آلام . . . ويمتعض امام اي هدر او بذخ ، ويكاد صراخ الاطفال المعذبين يصم

أذنيه عن سماع صرخة عاشق ! فاعـذرنا ايها الكوكب ، أم اننـا نحن الذين يجب ان نعذرك ؟

***

وفي تقرير آخر ، ضبطت نفسي يوم ٨٥/٦/٤ متلبسة بحزن شرس ، لمجرد ان طائرات لطيفة ، ثلاث طائرات صغيرة دعائية ، طارت في سماء باريس وخلفت وراءها خيوطاً عريضة باهرة الحمرة على صفحة السماء الصافية الزرقة . . .

ولم اع ما الذي نكد عيشي امام هـذا المشهد الجميـل ، إلا حين همس طفـلي : كأنني جالس في الملجأ . . لا أسمع صوت الطائرات إلا واتذكر ممر البيت او ملجأه . . وتذكرت بعد ظهر الجمعة اللامنسي منذ حوالي ثلاثة أعـوام ، حين حلقت الـطائرات الاسرائيلية وقصفت جحيمها ممهدة لـلاجتياح الاسـرائيلي . . واحتـرقت يومئـذ سيارة مدرسية (باص) مليئة بالاطفال الصغار الى جانب ضحايا آخرين . . وبعدها تتابعت الغارات . فهل هـذا سبب ضيقي لطيـران تلك الدمى الفرنسية الاعلانية الجميلة التي تحاول زرع مشاتل الورود الحمر فوق صفحة السماء الباهرة الابعاد ؟

ام تراه اللون الأحمر ؟ . . . بدا لي مثل ثلاثة أنهار من الدم تزنر الغيوم ، وحملني نهر الدم الى بيروت حيث تتفجر ينابيعه من أجساد الاحباب في قتال الأخوة ـ الاعداء ؟

***

وضبطت نفسي متلبسة بالقهر ليلة ٨٥/٦/٢ ، ليلة عيد الأم في فرنسـا ، حين حمل اليَّ طفلي هدية أسوة برفاقه في المدرسة .

لـماذا الحزن ايتهـا الحمقـاء ؟ استجـوبت نفسي ، وسلطت عـلى وجههـا ضـوء التحقيق ، وهددتها بالجلد بسياط الذكرى اذا لم تعترف ، فأقرت بانها حزينة اذ لا ترى صـورة إلا والوجـه المقابـل لها . . وعيـد الأم هنا ذكـرها بـواحـدة من أشقى أمهـات الأرض ، هي الأم في لبنـان . . . هناك يحملون اليهـا جثـة ابنهـا الحبيب هـديـة ، أو يسوقونها الى حطام الرجال المتآكلة لتتعرف على اشلاء ابنها . . متى يرحم مجتمع الرجال قلب الأم في لبنان وغير لبنان ؟

وكان برنامج عيد الأم هنا جميلاً ، ولكن جماله لم يثر في قلبي الأرعن غير المنضبط إلا الغم ! . . .

وحكمت على نفسي بالنفي . . . الى . . الوطن !! . .

باريس ٨٥/٦/١٢

هــواجـــس

ذات ليلة ، ذات جرح ، ذات غربة باريسية جاءني صوتها ، صـديقة عـزيزة ، وقالت: نفكر بنشر اعلان مدفوع في جريدة «اللوموند» نعري فيه ما يقاسيـه السكان العزل في جنوب لبنان وراشيا والبقاع الغربي على ايدي جنود اسرائيل . ستوقـع البيان مجموعة من المثقفين العرب المتواجدين في باريس . ما رأيك ؟

فرحت لأن أحداً ما يسألني عن رأيي . منذ زمن بعيد وثمة دوماً ناطق باسم كل منا ، يسرق حنجرتنا بوقاً يذيع منه بلاغـاً باعـلان الحرب عـلى فئة اخـرى واختطافهـا ونسف اماكن عبادتها وقتل ابريائها ، او ما يناسب مصالحه من آراء تحت ستار الطائفة أو التنظيم او المجتمع أو الاخلاق او التاريخ أو الجغرافيا، وتحت طائلة التخوين المسبق اذا كان رأيك مغايراً ، أو إذا تجرأت على استعمال رأسك (الديكوري) لغـايات التفكـير ناهيك عن الرفض . . .

لطيف ان يسألك أحد عن رأيك في هذا الزمن التابوتي !

***

وكان رأيي ضد الفكـرة ، لا لسبب واحد بسيط ، بـل لمجموعـة من الهواجس المركبة التي تناسلت زمناً بعد آخر . . .

من المفروض مبدئياً ان ينقل اخبار مأسـاة الجنوب الصحـافيون ، أسـوة باخبـار المجازر في العالم كله . . .

فكيف نطالب الصحافيين الاجانب بنقل اخبارنـا ونحن نختطفهم ونقتلهم (أو ثمة من يفعل ذلك على ارض نحن المسؤول الأول عنها) ، ونعيق تحركهم من بيروت الغربية الى الجنوب بدلاً من تسهيله لهم كشهود ، ونساعد بذلك اسرائيل بصورة غـير مباشرة على تحقيق التعتيم الاعلامي على مذابحها في الجنوب بـدليل قتلهـا لصحافيـين آخرين هناك كجزء من خطتها (لتطفيش) وسـائل الاعـلام من المنطقـة ؟ أما سئمنـا

حماقاتنا ـ الحسنة النية !ـ في مجال التعاون واسرائيل ضد أنفسنا ومصالحنا ؟ . . . .

* * *

وكيف نتوجه إلى الرأي العام الفرنسي وهو الآن غير راض عن اللبنانيين بعد احترافنا اختطاف مواطنيهم ؟ (أو ثمة من يفعل ذلك لايذائنا والمحصلة واحدة ، فالمسؤولية في نظر الفرنسيين تقع علينا عما يدور في وطننا) . . وكيف نطالبه بدعمنا ونحن نختطف طائراته ونذل رعاياه ونعلن مسؤوليتنا عن أي تفجير عنصري يقع في بلده (حتى ولو كنا ابرياء) وننافس المؤسسات (النيونازية) في تبني تلك العمليات التدميرية التي يكره ؟

* * *

وكيف يحترمون الموت اللبناني ، ويدينون اسرائيل التي تمارسه في الجنوب ، ونحن نمارسه فيما بيننا ؟ وكيف نقنع العالم بعدالة قضية ما دمنا نتشاجر ونقتتل حولها ؟ أليس تشرذم الجبهة الداخلية هو نبع مآسينا ؟ وكيف يحترم العالم آلامنا ، ونحن نتنافس على قتل بعضنا بعضاً ، وقد سقط من الضحايا بيد اللبنانيين انفسهم أكثر مما سقط بيد العدو الاسرائيلي ؟

* * *

هل يعاملنا الاوروبيون بأسوأ مما نعامل بعضنا بعضاً كعرب ؟ وهذا الاعلان المنوي نشره في صحيفة فرنسية ، الا نشعر بحاجة ماسة إلى نشره في صحف عربية تصدر في غير قطر عربي ؟ . . .

الجنوب يخوض حربه (بالنيابة) عن العرب ، ويدفع بلحم ابنائه المعجون بجنازير اسرائيل ضريبة العروبة . . . لقد رفض وثار على كل صلح أو اتفاق مع اسرائيل حرصاً على تلك القيم ، فهل يحب اخواننا في بعض الأقطار الأخرى (العروبة) ويكرهون (العرب) ويعشقون (التغزل) بالوغى والقتال والوقوف على أطلال القرى الشهيدة ، ويتحاشون الوقوف الفعلي الى جانب الجنوبيين الذين يقاتلون بالنيابة عن ١٧٠ مليون عربي ؟

ولماذا يبالي الشعب الفرنسي بمأساة الجنوب أكثر مما تبالي بها (عملياً) بعض السلطات العربية التي اتقنت لجم رعاياها وتدجينهم ـ أو توهمت ذلك ـ ؟

* * *

هل مأساة الجنوب اللبناني ما تزال سراً ؟ أم ان الشعوب الأخرى تعرف ولا تبالي

أو تصدق ادعاء اسرائيل الحاجة إلى حماية نفسها من (المتوحشين) الذين يقتل بعضهم بعضاً منذ عشرة اعوام تحت شعارات تتبدل كل عدة أشهر ؟ . . . .

ان شهداء الجنوب هم شهداء أكثر من مرة ، فهم شهداء الوحشية الاسرائيلية ، وشهداء شعب لا يستحقهم وأمة لم تقدرهم حق قدرهم لكنها تطالب الأمم الأخرى بذلك !

شهداء الجنوب يقتلون مرة بيد اسرائيل ، ومرة بيد سوء تصرفنا وتفرق كلمتنا وتشتتنا مما يسهل على وسائل الاعلام المعادية تصويرهم في هيئة أدوات (روبوتس) دينية متزمتة ، لا في صورة (ابطال مقاومة) تدافع عن أرضها .

* * *

هل المطلوب نشر مجرد اعلان مدفوع في صحيفة (شتمت الصحافة العربية المهاجرة في الاسبوع الماضي وردت عليها مجلتان عربيتان) تعاني من متاعب مالية ، قد ترضى بنشر الاعلان لاستخدام بعض البجبوحة القادمة من تبرعاتنا لمزيد من شتمنا في المستقبل وقد لا ترضى ايضاً ؟ .

أم المطلوب نشر صرخة الحق عبر ١٧٠ مليون حنجرة عربية قولاً وفعلاً ، والفعل هو الأهم ؟ . . .

* * *

ام اننا نعرف ذلك كله ، لكننا سننشر الاعلان على اية حال لنشعر اننا فعلنا شيئاً ، أي شيء ، وسننشره لاجلنا نحن ككفارة ، لا من أجل أهل الجنوب الذين لن يفيدهم في كثير أو قليل ؟ . . .

وهل من المفيد اللجوء إلى كفارة ، أم من الأفضل عدم تحرير انفسنا من الشعور بالذنب ، وتركه ينمو ويترعرع ليتحول إلى فعل انفجار يطيح بمخدري الشعب العربي وجلاديه النائمين باسترخاء داخل جراحنا ، يفترشون رفضنا ويلتحفون قلقنا ويرون في هواجسنا كوابيس تقلق نومهم التاريخي السعيد . . .

آه متى ننفجر على أرض الوطن ؟ . . .

قلت ذلك كله لصديقتي فأجابت : حين تصير العودة الى الوطن (مغامرة) وطنية لا (هاراكيري) نبدأ هناك من جديد . . . .

باريس ١/ ٤/ ٨٥

يوميات مشردة (١)

في لارنكا ، كان السائق العجوز ينقلني من الفندق الى المطار .

دهمني فجأة حنين لـه طعم الحزن ، ولم ادر لماذا . اي سر خاص في هذا التاكسي العتيق حـرك فجأة الأبـواب المقفلة لدهـاليز اعمـاقي ؟ أهي تلك الموسيقى اليـونانيـة المنسكبة من المذياع ، الشبيهة بايقاع غناء أهل القرى في بلادي ؟ . . ام تراه ذلك البحر الممدد الى جانب الطريق وقد غفت امواجه ؟ .

هبت رائحـة أليفة دافئـة ، وتكاثـرت مناقـير الحنين عـلى قلبي المتـرع بغصـات سرية . . .

ووعيت في ومضـة برق ، مـا الذي رمى بصخـرة في بركـة هـدوئي : عقـد من الياسمين يتدلى من مرآة السائق الامامية . . .

* * *

عقـد الياسمـين يروح ويجيء امـام عينِي مثـل الكـرة الفضيـة لمنـوم مغنـاطيسي بارع . . . ورائحته الحارة الموجعة تحملني بعيداً إلى زمن الياسمين . . .

تذكرت ان البيت الأول الـذي فتحت عيني فيه ، كـانت له (مـدادة) ياسمـين شاسعة ، على عادة البيـوت الدمشقية في ذلك الزمان . . .

كان الياسمين يصعد الينا من حديقة الجيران بـالطابق الأرضي مثـل نافـورة من البياض والعطر والحنان . . . . تتكىء على نافذتنا . . . تفتح قلبي في ذلك الزمن الغابر على طقوس الياسمين الدمشقية . . . وحينها تشتعل المـدادة بياضـاً مورداً ، كنـا نلتقي حولها في مهرجان ، نجمع ما سقط منها على الأرض من ازهار ، ونقطف ما تطاله ايدينا الصغيرة ، المرتجفة حباً لذلك البهاء المتواضع لياسمينة . . . وكنا نضم الياسمين في عقد كهذا العقد الذي يتدلى مشنوقاً امامي على مرآة التاكسي .

* * *

صورتي الأولى في طفولتي الغابرة ، تمثلني ـ كأية طفلة دمشقية ـ وقد زين شعري ذلك العقد التقليدي من الياسمين متوجاً ابتسامة امل وعناد . . .

ولعل الطقوس التقليدية الوحيدة التي لم اتمرد عليها في دمشق ، كانت حضارة الياسمين المتوارثة . . . وفي الاسابيع التي تزدهر فيها (مدادة الياسمين) ويجن بياضها تفجراً وعبيراً ، ويجتمع الأهل والجيران حولها لشرب القهوة والثرثرة ، كنت اجلس بخشوع في ظلها صامتة وهادئة وغير مشاغبة على غير عادتي ، كأية مواطنة صالحة في جمهورية الياسمين .

***

اجتاحتني الذكرى واوجعتني طرباً ، فصرت ادندن مع اللحن الاسيان لمذياع سائق التاكسي . . والذكريات تتدفق من قلبي على حاجز الياسمين ومتراس العبير . . .

في بيروت ايضاً ، ظللت مواطنة صالحة في جمهورية الياسمين .

اتذكر بحنين موجع تلك الليالي البيروتية الدافئة ، حين يتنهد البحر نسيماً يقطر حناناً مالحاً كالدمع ، وتركض امواج الناس على شاطىء (الكورنيش) وانا منهم ، وحينما يوقفنا حاجز بائع الياسمين الطفل دونما رشاش ، كنا نمتثل بسعادة ، ونشتري عقداً يلخص اشواق الروح الى صفاء الياسمين وبهائه المتواضع ، وكوكب رائحته الآسرة . . .

وما اتعس زميلتنا التي كانت تعود الى المبنى الداخلي في الجامعة (بستاني هول) بعد سهرة السبت ، دون ان يشتري لها صديقها عقداً من الياسمين .

وما اتعس التي يشتريه لها مع كلمة وداع . . . ويخلفها وحيدة ، مشنوقة بحبل ياسمين مرمي على طرف ليل الفراق . . . كهذا الحبل الذي يتدلى من مرآة سائق التاكسي . . . لقد مرت اعوام ، وما زال قلبي مقيداً الى بيروت بسلاسل الياسمين .

***

ومرة شاهدت في مطار « ستوكهولم » ياسمينة صغيرة مرمية على الأرض وقد داستها الاقدامُ . . . وحزنت من اجلها ، انا التي اعرف عراقة اصلها وحكاية امجادها . . ترى أية ريح غادرة قذفت بها الى بلاد الصقيع والتشرد بعد عز الدفء والحنان ؟ أية اصابع حملتها من دمشق او بيروت وقذفت بها فوق ارض الغربة الموسخة ؟

رفعتها عن الأرض ، وكانت لها صفرة الموت ، ودفنتها في هبة ريح داهمتني على سلم الطائرة . . .

***

وقلت فجأة لسائق التاكسي القبرصي : هل تسمح لي بأن أشم عقد الياسمين هذا ؟ . . . الرجل لا يفهم الا اليونانية ، أما أنا فلا ، مع ذلك فهم قصدي ، واخبرني ان زوجته (تضم) له كل صباح عقداً من الياسمين كهذا ، وفهمت قصده ، ثم رفعه عن المرآة ، والتفت الي ليناولني إياه . . .

شممته بحنان من يعود الى صدر امه لضمة واحدة فقط . . فالمرعب في الياسمين العذب ، انك لا تستطيع ان تشمه مرات عديدة ، لان حاسة الشم يغمى عليها بعد التنهيدة الثالثة ، كما يحدث لك مع الفل . . وهكذا استنشقت العقد مرات ، واعدته الى السائق . . لكنه اصر على ان احتفظ به . . .

وأصررت على ان اعيده ، وقسرتُ يد السائق العجوز المرتجفة على احتضانه . . وبينما هو يلح علي باليونانية للاحتفاظ به ، وانا خجلة من لطفه ، دخلت السيارة في الجدار الحجري العتيق الملاصق للشاطىء ، وصحونا على صوت تحطم زجاج مصابيحها !

***

غمرني خجل شاسع كالبحر الذي كدنا نسقط فيه لولا الجدار .

توقعت ان يزجرني السائق لما تسببت به . تذكرت ان البلدان (المتحضرة) تفصل السائق عن الراكب بجدار زجاجي ، كي لا يحدث ما حدث الآن . . والبلدان الأخرى (المتحضرة) تضع لافتة تمنع الكلام مع السائق . . كي لا يتمرد قلب احد رعايا جمهورية الياسمين وتهب اشواقه وتجتاح السائق والسيارة والجدار والبحر .

قلت لنفسي : اياً كانت الشتائم التي سينهال بها عليك ، اصمتي ، فأنت المخطئة . . .

وما كاد المسكين يلتقط انفاسه ، حتى امسك بعقد الياسمين ، واحاط به عنقي مبتسماً . . .

لارنكا ١٦/ ٢/ ٨٥

ضحكـات سورياليـة مالحـة

ثمة نوع خاص من الضحك يعيشه المرء في بيروت . ضحك سوريالي واقف على حافة البكاء . قهقهة تتأرجح في المسافة بين الدمعة والذهول . فالحرب لا تلغي الحب ولا الابتسامة ولا النكتة ، لكنها تبدل لونها ومذاقها . . .

مع بيروت وأهوال سنواتها العشر « الحربية » ، يشعر المرء احياناً انه لا يريد ان يلامس ذاكرته ، كمن يخشى ان يمس جرحه . . . لكن وجوه الاحباء تحاصره بلحظات عاشها وإياهم ، كانت لا تخلو من الضحك البيروتي « السوريالي » اللامعقول ، كمولد دهشة .

* * *

ذات صيف لم نر خلاله غير عتمة الملاجىء ، توقف القصف . وكنا تعلمنـا ان ذلك يعني استراحة للمتقاتلين ، وجلباً للذخائر استعداداً لجولة اخرى . ماذا نفعل نحن بـين موت وآخـر ؟ نذهب الى الحيـاة ، الى الشمس والبحـر . . وهتفت الى صـديقتي العزيزة الصحافية فاطمة ناعورة السردوك ، واقترحت عليها ذلك ، فرحبت بالفكرة .

وحملت ولديها ، وحملت طفلي ، وخرجنا نفتش عن البحر . كانت المسابح كلها مغلقة . فقررنا السباحة أينما كان ، وتصادف ذلك مقابل فندق « الريفييرا » في طريق الكورنيش ، في وسط بيروت . أوقفنا السيارة . تسلقنا الحاجز الحديدي وقفزنـا الى الصخور ، فـالبحر . . . كانت المياه دافئة فـرح بهـا أولادنا ، وزقزقوا طرباً للضوء الذي يـلامس جلدهم ، بعدما كسانا العفن والغبار وطحالب الذعـر في عتمة الملاجىء . . .

وكما يحدث دوماً في بيروت ، تحول المكان بعد نصف ساعة إلى ما يشبـه المسبح الشعبي ، وتكاثر الناس وانتشرت الثياب فوق الصخور ورشاشات المقاتلين الذين راقت لهم فكرة السباحـة في « مسبحنا الخـاص » ، فاطمـة وانا واولادنـا . . . قلنا : البحـر

للجميع ، والمهم ان احداً لم يتحرش بنا او يضايقنا ونحن نحنو على اطفالنا الذين لم يروا من الدنيا غير الحرب والقنص والقصف . . ولكن سلامنا لم يطل ، اذ تقدم منا مسلح في ثياب الاستحمام ، لكنه يحمل رشاشه ، وقال لنا بلطف بالغ : الرجاء منكما الانسحاب والاولاد الى الشاطىء بضع دقائق فقط . ثمة رجل نريد ان نقتله ، ونخشى ان تصيبكم رصاصة طائشة !! . .

وشكرناه على « كرم اخلاقه » ، وانسحبنا بسرعة من الموجة الى الصخرة ، ونحن لا نصدق ان ذلك يحدث حقاً . لكنه كان ! . . .

***

ولم تكد اقدامنا تمس الشاطىء حتى انهمر الرصاص على بقعة بحرية خوت فجأة من الناس ، إلا من الهدف . شاهدناه رجلاً مستدير الرأس كث الشعر يعوم فوق الماء ، ثم اختفى . . قلنا : حسناً . انتهت مراسيم الاعدام ، فلنعد الى البحر! . . . وضحكنا بذهول امام ذلك الموت الغريب تحت تلك الشمس الساطعة البريئة ، لكن بيروت كانت قد علمتنا بقسوة ان لا نتدخل فيما لا يعنينا . .

وبعد قليل فوجئنا « بالقتيل » سابحاً الى جانبنا ! . . وشهقنا ذعراً ، وابتسم « المرحوم » ، وعرفنا انه « قبضاي » و « سمكة قرش » تتقن السباحة تحت الماء ، وانه لم يبال بالتهديد وها هو يسبح وقد جاء اتباعه خلال لحظات « مستنفرين » ، وانتشر المسلحون وتكهرب الجو، و « المرحوم » مصر على نزهته المائية بين اولادنا ! . . . وهو يثبت « على حساب حياتنا » وحياته ، شجاعته ولامبالاته بالتهديد . . . فأثبتنا خوفنا علناً ، ولملمنا اطفالنا من الماء فرخاً فرخاً ، وانسحبنا شاكرين للمسلحين هذه البادرة المسرحية المسلية لنزهتنا البحرية . . وكانوا يضحكون ! . . . ولم تكد السيارة تتحرك بنا ونحن نقطر ماء وفي ثياب الاستحمام ، حتى انهمر الرصاص وانفجرت المعركة . . . فانفجرنا نضحك بصوت مالح كالدمع ! . . .

***

وذات هدنة موجزة ، اقنعت صديقتي العزيزة الصحافية هدى المر بمرافقتي الى البحر ، فأنا كما يعرف اصدقائي اتحول في الصيف الى سمكة ، رغم اهوال الحرب (أو بسببها !) . وفعلت إكراماً لي ، فهي بيضاء البشرة وشمس آب (اغسطس) البيروتية تحرقها في دقائق . وكان المسبح خاوياً ، ومناخ المدينة مكهرباً ، وبركة السباحة خالية من الماء تماماً ، وقد قددتها الشمس . واقترحت هدى ان نعود فوراً . وتوسلت اليها ان

تنتظر ريثما اقوم بـ « غطسة » في البحر . ولم أكد ألامس الموج حتى نسيت نفسي وطالت ساعة السباحة وهدى تناديني . ولم اخرج من الماء إلا على صوت القصف المدوي حولنا . . اين نختبىء ؟ السماء شاسعة فوقنا ، واقرب بناء على الأرض يبعد مسيرة دقائق تبدو دهوراً حين ترى القنابل وهي تشعل المرئيات حولك دخاناً وزلزالاً . . واقترحت هدى ان نختبىء داخل بركة السباحة الخالية من الماء ! وكانت فكرة مدهشة ، فالبركة عميقة ستحمينا من الشظايا ، باستثناء قذيفة مباشرة تلحق بنا للسباحة ! . . . وهبطنا على السلم الحديدي حتى قاع البركة ، واختبأنا في اعجب « ملجأ » سوريالي تجلده الشمس . . وطال القصف . . . وبعد ساعات ، حين غادرنا « الملجأ » كانت هدى قد تحولت الى حبة بندورة مشوية محروقة الجلد . . . وكان الصداع يمزق رأسي . . وتأملت كل منا صاحبتها ، فالملجأ اياه ، وانفجرنا نضحك . . ونضحك حتى . . . البكاء ! . .

***

ومرة فاجأني القصف وانا في حالة « سمكية » على الشاطىء . فدفنت وجهي في الرمل وقررت البقاء حيث انا ممددة بين الموجة والصدفة .. وسمعت صراخ بعض المستحمين الراكضين للاحتماء بالمبنى ، ولم اتحرك ولم افتح عيني ، وتركت الشمس تحتويني بحنان الحرية ، بعيداً عن عفن الملاجىء . . وقررت : فلأمت هنا ، تحت الشمس ، على شاطىء البحر . سئمت مسرحية الجرذان والملاجىء . . . ودوت الانفجارات وكانت تزداد اقتراباً ، وسقطت قذيفة زلزلت الصخور ولم اتحرك وقررت : الشاطىء لا بد وانه قد خوى من الناس جميعاً . لكنني سأبقى هنا ، وسأموت هنا متأججة حياة لا ذعراً وقرفاً . . . وكانت القذائف تزداد اقتراباً وانا ازداد التصاقاً بالرمل الحار واشم رائحة البحر ملء مسامي ، وقد توهجت حواسي كلها واشتعلت شوقاً للفرح وعناق هذا الكون الجميل . . كأن حضور الموت عطر يلهب شهية حب الحياة . . .

ودوى انفجار دحرجني ، ففتحت عيني ، وفوجئت بعشرات المستحمين امثالي الذين لم يتحركوا من مواضعهم على الشاطىء . . وانفجرت اضحك . . وسرت عدوى الضحك ، ففعلوا مثلي ، وكنا شاطئاً مقهقهاً يواجه الموت الناري بابتسامة اكثر سخونة . . وهبطنا الى البحر نسبح ونتأمل الانفجارات المتلاحقة ، كأننا نراها ولا نراها . . . ونضحك منا ومنها . . . ومن زمننا السوريالي المالح .

باريس صيف ٨٥

ارجوك اسرقني !

لم تصبه في بيروت رصاصة طائشة . لم يـزره صاروخ . لم يمـر ببيته سـارق . لم يواجه كارثة مباشرة ، لكنه ببساطة يخاف ، ويؤكد ان اسمه ليس عنتـرة بن شداد . . وصـوت الرصـاصة وحـدها يكفي لقتله ، وعنـاوين الصحف المحليـة تصيبـه بنـوبـة قلبية . . . وهكذا كان . . اصيب بها ، وخـرج من المستشفى الى المطار ، فبـاريس . وودع الناقد العربي المعروف بيـروت وعنفها ومسلحيهـا . وقصفها الى الابـد ، او الى السلام .

***

في باريس ، اختار بيتاً هادئـاً في ضاحيـة وادعة لهـا بحيرة حنـون . الاولاد في المدرسة ، وهو غارق في امن عمله والجو الثقافي الراقي لسهرات الاصحـاب . . ومنذ اسابيع ، بينما كان الناقد الهادىء عائداً الى البيت بالمترو بعد سهرة أدبية طويلة ، هاجمه وزوجتـه سارق . كـانت المسكينـة تحيط عنقهـا بقـلادة (اصـطنـاعيـة) المجـوهـرات والذهب . . . لكن البريق المزور اطار صواب السارق ، فمد يده واختطفه بشـدة عن عنقها ، وانطلق راكضاً وسط الزحام .

الناقد كان يعرف ان ثمن العقد لا يزيد عن دريهمات معدودة ، وانه مزيـف . . . لكن ردة فعله كانت غريبة . . .

هاجم السارق بمظلته . . ضربه بها ضربة أوقعت العقد من يـده على الارض ، ووصل المترو وصعد الناس ومضوا ، فلم يلتفت اليه وانما تابع مطاردة السارق ، تاركاً زوجته وحيدة مذعورة على الرصيف الذي خوى كالعادة بين قطار وآخر . . .

انطلق خلفه في الدهاليز ، والركض يؤذي قلبه المريض . . . ولحسن الحظ (حظ الناقد) لم يستطع القاء القبض عليه ، ونجا صاحبنا من ضربة سكين ممكنة لو نجح في توريط نفسه بامساك السارق الهاوي الذي لا يميز بريق الذهب والنحاس .

***

ان يهاجم سارق سيدة في دهاليز مترو باريس امر عادي . ردة فعل الناقد (المسالم) هي المثيرة للالتفات . . . هل في اعماق كل مثقف طاقة من العنف المكبوت ، ينتظر الفرصة لتفجيره ؟ . . . ولماذا ضرب الناقد السارق وهو يعرف ان لا قيمة للعقد ؟ ردة فعل عفوية اسرع من المحاكمة العقلية ؟ ربما . . ولكن لماذا طارده فيما بعد طويلاً هكذا ؟ واذا كان قد فعل ذلك دفاعاً عن زوجته ، فقد عرض زوجته للخطر بتركها وحيدة في الدهاليز الليلية ، تندس خائفة الى جانب اسرة كما اخبرتنا فيما بعد ، كما عرض قلبه المعطوب للخطر . .

ام ان خزان العنف انفجر . . ووجد الناقد نفسه يلاحق شهيته السرية للافتراس ، وقد نسي كل شيء عن السبب الاصلي التافه الذي اطلق صاروخ الشراسة ؟ هل هذا هو التفسير ، ام ان القضية بالنسبة للاديب هي في النهاية قضية مبدأ . . . وثمة من اعتدى عليه ، ولا فرق بين سرقة مجوهرات التاج من عنق زوجته أو قلادتها العتيقة المزيفة ؟ وهل المظلة (مظلة اللغة) أو سواها في يد الفنان ، هي ذاتها العصا البدائية في يد انسان العصر الحجري ؟

***

لعل الوجه الضاحك للسرقات في الغربة يتجسد في ردود فعل المثقفين المفلسين عليها . . .

واذا كنت قد حدثتكم ذات مرة عن الوجه الحزين لسرقات الغربة ، فانني اكمل الصورة اليوم برسم طرافة المثقفين في مواجهة السارق الذي ينافسهم فقراً . . .

صديقتي فنانة ناعمة صوتها همس فراشة . رقيقة كريشة عصفور ، عادت الى بيتها في باريس بعد سهرة في احد المعارض . . السارق كان ينتظرها . ما كادت (تصف) سيارتها في المرآب ، حتى فتح الباب المجاور وجلس الى جانبها وعلى وجهه قناع وبيده مسدس . . . و بدلاً من ان تعطيه حقيبتها ومجوهراتها ، او تتوسل ، او تبكي ويغمى عليها ، صفعته فجأة وحاولت انتزاع المسدس منه بمهارة (ملائكة شارلي) وحذق (جيمس بوند) . اذهلته ردة فعلها فيما يبدو فانطلق هارباً . . اخبرتني فيما بعد ان حقيبة يدها كانت تحتوي عشرة فرنكات فقط لا غير . . ومجوهراتها مزيفة !! . . وانها لا تدري ماذا حدث لها . . ومن اين خرجت تلك النمرة المفترسة من اعماقها واين كانت تختبىء . . وانها آسفة على شيء واحد : هرب السارق !! . . . تمنت لو يفسح لها

المجال لمزيد من ضربه في تجربة لم يسبق لها ان مرت بها . . . ترى ، هل استعمال الفنان لأدوات راقية في تعامله والآخرين يصعد العنف في اعماقه ولا يلغيه ، وربما يخزنه تحت ضغط كبير ، فاذا انفجر كان اكثر عنفاً من سواه ؟ اليس في ذلك ، التفسير لجوهر بقية اعترافها تلك الفنانة الرقيقة ، وقولها لي : اتطلع بشوق الى سارق آخر يهاجمني ، لأعاركه كأي قط متوحش في الغابة اشتاقت مخالبه وانيابه الى العراك والانطلاق . . . امشي في دروب الليل ، ولسان حالي يقول : « أرجوك . . . اسرقني » ! . . .

***

اعترف لكم . . . لست بأفضل منها .

كنت اسير في حي التراستيفري بروما قرب (كنيسة سانتا ماريا) الاثرية وسط الازقة العتيقة . ارتدي ثياباً عادية (بنطلون جينز) ، وقد تدلت من كتفي حقيبة يدي .

فجأة ، سمعت في اعماقي صوتاً غامضاً يحذرني ، ولا أدري لماذا تمسكت بحقيبتي . . . في اللحظة نفسها ، احسست بيد تمتد من خلفي لتجذب (حمالة) الحقيبة بشدة قطعتها ، وظلت الحقيبة بين يدي . . .

وهاجمني السارق مواجهة محاولاً انتزاعها من يدي . . . وانا التي تبتعد من درب النملة الى الرصيف التالي ، وتخاف ايذاء الوردة بظلها ، صرت اعارك السارق العملاق . ثوان ام دهور انقضت ؟ لا أدري . . وانا اقاومه . . لمحت وجهه والدم يسيل منه تحت آثار اظافري التي تكسرت ، ولم اشعر بالوجع في قدمي المجروحة حين سقطت على الأرض . وحتى حين نجح في انتزاعها وركض بها ، ركضت خلفه في ازقة روما اصرخ كالقطار ، وفتحت النوافذ في الزواريب ، وكل جارة تشير الي وتنادي اخرى . . واستعدت حقيبتي وسط تجمع اهل الكنيسة الذين خرجوا لاستطلاع اسباب الصراخ . . .

***

في التاكسي لاحظت اظافري المكسرة ودمه ما يزال تحتها . . ونظرت الى حقيبتي بارتياح فقد كانت تضم جواز سفري وبطاقة الطائرة وكل ما احمل في غربتي . . . ومطار بيروت مغلق . . . لكنني فوجئت بشيء اضافي . . . بقبعة السارق الصوفية ، وكنت ما ازال اقبض عليها بيدي المتشنجة بشراسة . . .

وانفجرت فجأة اضحك قد وعيت : يا الهي . . . لقد سرقت السارق !! . . .

باريس ٧/ ١٢/ ٨٤

لا نسيان يا لبنان

قلبي تفاحة يقضمها الحزن ،
ومهنتي اختراع التفاؤ ل ! . .

فكيف أمتشق ابتسامتي ، وفي صدري مدينة تحترق ؟ وكيف ترشوني باريس بمباهجها ، وكل ما هو أنا ، باستثناء قشرتي ـ الجسد ، ما زال يتحرك هناك في بيروت تحت القصف ؟ . . . وكيف أغادر حقيقتي ، وأنا لا أكون إلا حيث أحبائي فوق فراش الأسفنج والغبار والجرذان في الملجأ ؟ وهل أتحدث حقاً عن نفسي ، أم عن كل لبناني مغترب أو مسافر ، وكل عربي ذاق عسل بيروت ، ويرى الآن نحل العالم يلسع عنقها الشامخ النازف ؟ أهذا صوتي أم صوتكم ؟ أهذه يدي التي تخط هذه السطور أم نزف أيامكم وأيامي على مرآة القلب ، الملقبة بالورق ؟

* * *

أهذا أول قصف عنيف يفوتني في بيروت ، بعد عشرة أعوام من معايشة (حفلات) القصف الموسمية ؟ وهل فاتتني هذه (الحفلة) حقاً ؟

كيف ، وأنا ما زلت هناك مع أحبائي في الملجأ ، وراجمات الصواريخ تصم أذني ، وهباب الحرائق يغطيني ، والانهيارات تطحن جمجمتي مثل جوزة تحت قدم عملاق مجنون ؟

. . . والسيارة تركض بنا في شارع « الشانزيليزيه » قرب « قوس النصر » الباريسي ، وقلبي يركض عارياً في شوارع بيروت ولانتحابه صوت سيارة اسعاف محملة بجثث القتلى . .

وهذه الزينات الجميلة هنا احتفالاً بانقضاء أربعين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، تذكرني بأننا نحتفل في بيروت منذ شهر بدخول السنة ما بعد العاشرة للحرب بمزيد من الدمار والخراب في النفوس والأرواح قبل الأبنية والممتلكات .

ومن قوس النصر الذي يعتلي جادة الشانزليزيه يتدلى العلم الفرنسي، كبيراً شاسعاً تنشره الريح على الأفق أميراً جميلاً ،

وفي بيروت يتدلى قلبي من شجرة محروقة الأغصان ، وقد ثقبه الرصاص وكتب فوقه أحد المقاتلين : أبو الموت مر هنا ، وسيعود بعد حين ! . . .

***

كيف لا ينتحب القلب مثل تلميذ رسب في امتحان الحياة ، حين يرى الشعوب الأخرى تحتفل بانقضاء زمن الحرب والرعب ، بينما يمعن بنو قومه في التنكيل بعضهم ببعض ليظل طاعون الحرب يلتهم الوطن ؟

تأتيني الزينات كصور مغسولة بمطر مالح كالدمع : الأضواء الكشافة الملونة التي تحمل ألوان علم وطنهم وترسم فوق السماء رسالة مقدسة . . . واغص بالصراخ الصامت الذي يحسه كل انسان مكسور ينتحر وطنه الى جانب أوطان تحتفل بميلاد فرحها . وأشعر بأنني انتقلت من تحت قصف الوطن الى تحت (دلف) أمطار الغربة وأحزانها . . . ببساطة : من تحت (القصف) الى تحت (الدلف) !

***

صديق يقول : يوم غادرت لبنان ، غادرت رجولتي . سأعود الى الوطن لأتزوج من رجولتي ، حتى إذا كان مهرها الموت .

صديقة تقول : ماذا ستفعل هناك ؟ هل ستقاتل أبناء وطنك لمجرد أنهم من غير دينك أو حزبك ، أو طائفتك ؟ أم ستقبع في الملاجىء ؟ ما جدوى العودة حين يموت معظمنا عبثاً ، ونتساقط هدراً هنا وهناك ، بعيداً عن المعركة الحقيقية والعدو الحقيقي ؟

يهمس وهو يتأمل جيشاً من النوافذ الباريسية المضيئة اللامبالية : أنا هنا رقم . مهما كان رقم حسابي المصرفي كبيراً فأنا هنا رقم صغير .

تقول له : هناك . . ستكون رقماً بين الأموات . .

ـ أنا هنا ميت على أية حال . . .

ـ لن أحمل أولادي من المدارس هنا ، الى الملاجىء هناك .

ـ صرت أكره الذهاب الى مكتبي . أشعر بالغربة في شوارع باريس . في الوطن ، كانت الدرب القصيرة الى المكتب تستغرق مني ساعتين ، أسلم فيها على

الأصحـاب والأحباب وأقضي حـاجات النـاس.. أنا هنـا لا أحد . . . ثمـة لحظات صغيرة رمزية في الوطن لا شيء يعوض عنها . . .

* * *

في وكرك الليلي تهرب من أفراح تلفيزيونهم الى جريدتك . تقرأ في « اللومـوند » صورة عن الصحيفة نفسهـا الصادرة يـوم ١٩٤٥/٥/٩ وتتحدث عن خـطاب ديغول الـذي بثه الـراديو يـوم ٤٥/٥/٨ الساعـة الثالثـة بعد الـظهر ، لحظة أعلن « ربحنـا الحرب . انه النصر » .

وتعرف أنها الآن الثالثة ليلاً في بيروت ، والقصف يزلـزل الدنيـا . . . والحرب ربحتنا ونكاد نخسر كل شيء . .

فمتى نسمع صوتاً يعلن انتصار لبنـان على الحـرب العبثية ؟ متى يـربح السـلام معركته في لبنان كي يلتفت الى أعدائه الحقيقيين ، ومن بينهم الطائفية والتخلف وتوجيه السلاح نحو الهدف الخاطىء ؟

ومتى يكف مجانين الحرب ولورداتها عن استعمال المدنيين العـزل كـأكياس رمل ومتاريس ؟

وهل سنظل نجد الجرأة لنؤكد باستمرار أننا لا نكره (المتجاوزين) من طـائفتنا بأقل ممـا نكره (متجـاوزي) الطوائف الأخـرى ؟ . . . وأننا سنـظل نحب (الأوادم) والطيبين أياً كان دينهم وحـزبهم ، وسنظل نكـره (الزعـران) والأشرار أيـاً كان دينهم وشعاراتهم ؟

* * *

أهبط لأسبح في نهر « السين » ، فأجد نفسي في مياه النيل وبردى ودجلة وأمواج المتوسط والبحر الأحمر وخليج العرب .

من يشتري بطاقة سفر لقلبي الى باريس ؟ . . . ومن ينقلني من (جبال القلب) الى (جبال الألب) ؟

باريس تحتفل لأنها ربحت الحرب . فمتى تحتفل بيروت بربح السلام ؟

وكيف نقنع مجانين العنف بأننا لن نربـح أية حـرب مع العـدو اذا لم نربـح أولاً السلام فيما بيننا ؟

باريس ٨/ ٥/ ٨٥

من يستفز أطفال القبيلة ؟

لأنني أعتقد أن « حرية المرأة » هي مسؤولية إضافية ، لا مجرد ترف إضافي ، قلت لزوجي أنني سأنجز عنه (معاملات) استئجار بيت في باريس ، بحيث ينصرف هو الى التحضير لرحلة عمل .

وهكذ أعددت (كفالة مصرفية) باسمي ، وذهبت بها الى وسيط البيوت (السمسار) ، السيد دال الفرنسي جدا .

* * *

كانت صلتي بـ « مسيو دال » وزوجته جيدة ، حتى لحظة توقيع العقد . فوجىء بأني أعددت الكفالة باسمي والتالي سيكون عقد الايجار باسمي . بدت عليه امارات الغضب ، ونبح في وجهي بصمت ، وسألني بنزق شديد : ولماذا لا يكون العقد باسم زوجك ؟

قلت ببساطة : ما شأنك بذلك ؟ أليس من حق المرأة أيضاً استئجار بيت بغض النظر عن كونها متزوجة أم لا ، كأي رجل ؟ ألا تضمن قوانينكم ذلك ؟ . . .

والمعروف أن المرأة في فرنسا تتمتع (رسمياً) بالحقوق كافة المتوافرة للرجل - تقريباً ! . . أقول رسمياً ، لا عملياً ، لأن ردة فعل السيد دال عبرت عن موقف مناهض ، هو موقف الشرائع غير المكتوبة ، والعادات التي تكتسب قوة أكبر من قوة المراسيم المخطوطة على ورق . . . فالعادات محفورة في القلب كالوشم ، لا يمكن تبديلها بممحاة المنطق أو البلاغ النسائي رقم ١ .

* * *

لقد تصادف أن رافقني يومها زوجي الى المسيو دال ، فقد ألغى أحد مواعيد عمله فجأة . . . وكان يرقب ما يدور صامتاً . حدق فينا « مسيو دال » بنزق وسألني : هل أنتما متزوجان أم لا ؟ . . .

سؤال لطيف بعد عقد ونصف من الزواج ! . . . وكان ابننا يتـابع مـا يدور في الغرفة كأي صبي فضولي صغير . قلت للرجل : إننا متزوجـان ، وهذا ابننـا ، لكنني مصرة على أن يكون عقد الايجار باسمي ! .

ونظر المسيو دال الى ابني متسائلاً . . . أما ابني الكريم فقد ظل صامتاً ، ورمقني ووالده كأنه يرانا للمرة الأولى في حياته ، وفي ركن عينيه خبث طفولي لا يصدق ، وكأنه ممثل رديء استأجرناه من ملجأ الأيتام لتمثيل دور الابن لكننا لم ندفع له أجره ! . . .

* * *

الفرنسي الأصيل مسيو دال ، لم يؤجرنا البيت إلا بعدما تحقق من جوازات سفرنا (الشرعية) وقال لي معتذراً : لم أفعل ذلك لأنك لست فرنسية . لدينا صديقة فرنسية عزيزة طلقت زوجها ، فطلقها المجتمع ، ورفضت أنا وسواي تأجيرها بيتاً ، وواجهت مقاطعة اجتماعية شبه صامتة حتى عادا معاً . نحن شعب محافظ ، ولا يهمنا حقاً كل ما تقـوله حـركات « الوومنز ليب » وتحـرير النسـاء في عصر الفضـاء . . هـذا هـو الأمـر الواقع ! . . .

وهزت زوجته رأسها بأسى مؤكدة أن هذا هو واقع الحال . . وأن زوجها فخور بالتخلي عن (الرفيقة المطلقة) كجزء من تطبيق الأعراف غير المكتوبة التي لا تميـل الى تشجيع استقلالية المرأة .

* * *

رويت لكم هذه الحكاية ، لا لأدافع عن حقوق المرأة في فرنسا ، فهـذا شأنها ، ولكن لأتحدث عن مسيرة المرأة العربية نحو انتزاع حقوقها . . .

ثمة حماس نسائي يتحول أحياناً الى موقف استفزازي . . . يستفز أي رجل على كوكبنا بوجه عام كالمسيو دال ، وبالطبع الرجل العربي بوجه خاص . . .

فقد ألف الرجل العربي رعايته للمرأة أما وأختاً وزوجة ، وهو يعتبر نفسه مسؤولاً عنها مادياً ومعنوياً ، ويربكه حله من هذه المسؤولية وما قد يترتب عـلى ذلك من آثـار خُلقية وأسروية لم يألفها . .

إنـه سلوك منطقي وواضـح ولا يخلو من النبل الحـائر ، ومـواجهته بـالاستفـزاز والتعنت غير مجدية . . .

* * *

أعتقد أن أختي العربية في بعض تجمعاتها (التحريرية) ، مشغولة « بالمثالي » أكثر من « الواقعي » . . . إنها تريد حريتها لتصنع بها انسانيتها وقدرها ، ولتشارك في بناء وطن عربي هو بحاجة الى طاقاتها .

ولكنها تنسى أحياناً سطوة الأعراف غير المكتوبة في المجتمعات كلها . . . . وتنسى معركتها الأخرى مع رؤيا اجتماعية لها جذور عمرها مئات السنين . . . وتتصرف مع الرجل العربي كما تصرفت أنا مع السيد دال . وهكذا ، وحتى لو فرضنا جدلاً أن المرأة العربية استطاعت تبديل القوانين المعلنة لصالحها ، فإن أشياء كثيرة جوهرية لن تتغير . . . فالقضية ليست بنداً يشطب وآخر يدون على ورقة ، بل هي أيضاً قضية التعامل مع حالة ذهنية قائمة ومتماسكة ومتحجرة وليست ـ غالباً ـ لصالح حريتها !! . . .

* * *

اقراراً بالأمر الواقع : حرية المرأة كالحب ، لا مفر من أن تطهى على نار هادئة . . . والخطوة الأولى تكون بتأدية الواجبات قبل المطالبة بالحقوق . . . وبدون تضحية جيل من النساء ، لن تنال المرأة العربية لقمة من رغيف المشاركة في الحرية والمسؤولية معاً . . .

بهذا المعنى ، أجد كل كتابة نسائية « استفزازية » ، خطوة بريئة ، ولكن الى الوراء ، لأنها تثير لدى المجتمع المزيد من المخاوف الغامضة . . .

بمرونة ، بطيبة ، بكرم ، بعطاء لامتناه ، علينا أن نتعامل وقضية المرأة . . . كما كانت جداتنا يتعاملن مع أطفال القبيلة .

باريس ٦/ ٢/ ١٩٨٥

يوميات مشردة (٢)

أتشرد في مدن العالم ، وأمشي على أرصفة الغربة الماطرة ، لكنني أسمع وقع خطواتي فوق أرصفة بيروت ودمشق . . .

أتشرد في القطارات الرمادية بين محطات الحزن وبحيرات النسيان ، لكنني حين أحدق من النافذة لا أرى غير بردى والبحر المتوسط . . .

أتأمل الفسيفساء الضوئية لمدينة تكاد طائرتي تحط فيها ، فلا أرى غير بريق عيني حبيبي ، وسوادهما الشاسع كليل صحراوي . . .

لماذا أيتها السماء كل شيء يعيدني الى هناك ؟

* * *

أهرب من « بوجنشتوك » ، تلك الجنة الأرضية السويسرية المعلقة في أقاصي الجبال ، كأن الهدوء فيها شاشة ملائمة لعرض شريط تشردي وتأمله وأنا أتعذب دون أن يقطع عليّ استغراقي في الألم أحد ! . . . وأركب « الفنيكولير » صوب بحيرة لوسرن ، وهناك أتمشى على الشاطىء مقابل مركز البريد ، بعدما أودع لهفتي في بطاقات بريدية الى الأحباب في الوطن ، لكنني ألتقي بما يثير المزيد من الغصة . . ألتقي ببطة وبجعة ، فأجلس على المقعد على رصيف الشارع وأتأمل حالهما (أم حالي) ؟ . . البطة غريبة الصورة ، لا تشبه بقية بط البحيرة ، وقرب بيتها الخشبي الصغير على الشاطىء لوحة تقول : هذه بطة تدعى « أنسر سينتريس» قادمة من شمال الصين . وأتأمل البطة « المغتربة » الآتية من أقاصي الدنيا ، وعلى رأسها ما يشبه القبعة الصينية ، أو التاج الحزين الريش ، وأكاد أسألها حكايتها كي أروي لها حكايتي . . . لكن البجعة السوداء تصيح بصوت أسيان كغريب ينادي رفيقه . . . والتفت صوبها . . .

* * *

وسط مئات من أسراب البجع الأبيض المهرول على صفحة الماء ، بدت تلك

البجعة السوداء المسورة بالغربة ، كئيبة مثل نقطة حبر اندلقت خطأ من دواة الزمن على ورقة بيضاء ، ولم تكتب سطور عمرها حكاية فرح . . بل مجرد لطخة سوداء على جدران التشرد . . .

اسم البجعة « سيجنوس اتراتوس » ، وهي آتية من أوستراليا . . . وقبل أن نتبادل التحية الدامعة ، جاء حارس الغربة حاملاً لها وللبطة الطعام ، فهربت قبل أن يراني خوفاً من « مصادرتي » ، واسكاني في بيت صغير ثالث الى جانبهما ، يكتب عليه لافتة تحمل اسمي ، واسم موطني الأصلي : الحرية .

***

أمشي على رمل شواطىء « باستيا » ، وكالأطفال أتخيل أن قدمي العاريتين تلامسان رمال بلادي في شطآن بيروت والبسيط والكويت ـ حيث سبحت ذات مرة ـ والاسكندرية وعدن وتونس و. . . وأستيقظ من سبات الحنين على صوت طائرة ، وأكاد ـ بحكم العادة ـ أفتش عن أول ملجأ لأحتمي من القصف ، ثم أتذكر أنني لست ـ للأسف ـ في بيروت ! أتأمل الطائرة ، وإذا بها اعلانية ، يتدلى من ذيلها شريط طويل يرقص في الريح ويحمل اسم شركة عقارية تبني البيوت على هذه الخلجان الفيروزية الوردية الغروب . . . هنا يبنون ، وهناك نهدم . . . قصف الطائرات الاسرائيلية لبيروت مدعاة لفخرنا ، وكنا نتمنى أن لا يكون خرابنا كله الا على يد عدوة هي اسرائيل ، ولكن ماذا عن بقية البيوت التي هدمناها نحن باقتتالنا الأرعن فيما بيننا ؟ ولماذا حاولنا أن نبز اسرائيل في مجال تهديمنا لمدننا ؟ . . .

***

عبثاً يجرني الأصحاب من بحار حزني الى بحيرة فرح في « كاب دانتيب » على شطآن «الكوت دازور». قالوا: ثمة سهرة لوداع الصيف، وستأتين معنا . . . وذهبت معهم إلى الحفل .

الموسيقى الصاخبة مطارق تقرع رأسي من داخل الجمجمة ، وحلبة الرقص كحلبة المصارعة ، كل يستعمل رفيقه ثور اختبار لعرض رشاقته الخاصة وبراعته في « الهز » ، وأنا عبثاً أحاول أن أذكر نفسي أن ذلك يحدث في لبنان نفسه في غير مكان ، فلماذا أشعر بالذنب إذا فكرت لثانية بخلع أحزان الوطن عن جسد أيامي كما يفعل سواي ؟

وأعلن المذيع عن انتخاب « مس نود » أي « ملكة العري » ، وفوجئت زوجات

الأصحاب بقوافل الجميلات العاريات « ربي كما خلقتني » يدرن على منصة المباراة ، وانسحبت بعضهن احتجاجاً على مفاجأة الأزواج (غير اللائقة !) ، ولم يلحظ الرجال ذلك فقد كانت المتباريات يمثلن خلاصة الجمال الجرماني الأشقر المراهق . . . ولم أشعر كعادتي بالغيظ لامتهان المرأة لكرامتها حين تتعرى هكذا كأي قط بري في الحقول ، وإنما تذكرت كلمات صديقتي ناديا : لا تحتجي على العري في شطآن الغرب . لقد تجاوزوا تماماً مشكلة الجسد ، ولم تعد القضية « قضية » بالنسبة إليهم ، وعليك أن تنظري الى سلوكهم من داخل حياتهم ككل ، لا بعين المتفرجة العربية . . .

وقلت لنفسي : ما شأني بهم على أية حال ؟ وطنهم لا يحترق ، وأسرتهم لا تحتج . . .

ولم يذكرني عريهم الا بجسد الأرض الممزق في لبنان . . بالجراح الكثيرة التي ما تزال تنزف . . فهل تندمل ؟ وكيف ، اذا لم يتوقف مجانين العنف عن حفلات القصف والنسف ؟ . . . وازدادت الموسيقى صخباً لحظة « تتويج » الملكة ، وغمرني حس بالاختناق . . آه ، ماذا نفعل هنا ؟ . . . ومتى يخرج السلاح المتوحش من بيروت لنعود الى الوطن ونرمم خراب المكان ، أملاً في ترميم خراب النفوس على مر الزمان ؟ . . .

***

أعود الى وكري الباريسي . أتحسس علبة بريدي بحثاً عن رسائل الأصدقاء والأحباب . . فأجد رسالة من « الكومبيوتر » يعتذر فيها عن غلطة حسابية تقاضى بموجبها مبلغاً أكثر مما كانت تستحق مؤسسته ، ويعيد اليَّ الـ « ٢٩٢ فرنكاً » مع رسالة اعتذار رقيقة ، من ادارة الفندق لخطأ الكومبيوتر . .

وأتذكر الذين سرقوا عشرة أعوام من عمري . . . وعمر سواي . . دونما « فواتير » وايصالات . . . أعرف أنهم عاجزون عن إعادتها إلينا ، ولكن هل يمكن أن يبعثوا الينا برسالة اعتذار عما كان ، كما فعل كومبيوتر الغربة على الأقل ؟ . . . .

وهل يصحو كل مواطن لبناني وعربي عايش أهوال الحرب ، فيجد في صندوقه رسالة اعتذار تتوج مغادرة السلاح غير الشرعي لبيروت ؟ . .

كم أحب أن أحلم . . . وأضحك من أحلامي الشبيهة بأحلام المشردين جميعاً ، الغارقين في الطين وأصابعهم الموسخة بهباب القطارات تقطف النجوم . . . و « فواتير حياتنا » المنهوبة والمخطوفة .

آه ، لا شفاء من الغربة إلا بالموت . . . وربما بالحب .

باريس ٢٠/ ١٠/ ٨٥

ماذا فعلنا بالمحبة ؟

. . وقرر سكان المبنى الباريسي بالاجماع طرد نبيل من مكتبه ، وأرغموا المالك على فسخ عقد الايجار معه . فماذا فعل نبيل ؟ وهل كان يخزن في مكتبه متفجرات أو مخدرات ؟ هل كان يتاجر بالنساء أو يبيع الأطفال ؟ ما الذنب الذي اقترفه نبيل حتى عوقب باصرار عقاباً قاسياً هو الرفض الجماعي وقطع الرزق ؟ . . .

ذنبه الوحيد هو أنه عربي .

عربي الوجه والسمات ، عربي الكبرياء والصمت ، لم تشفع له جنسيته الفرنسية التي يحملها بعد زواج من فرنسية واقامة طويلة في البلاد . .

انه ما زال عربي القلب ، وتلك جريمة لا تغتفر .

* * *

ما الذي حدث بالضبط ؟

لا شيء ، وكل شيء . نبيل قرر افتتاح مكتبة عربية في باريس . وجد أصدقاؤه الفكرة ممتازة ، بل وضرورية تسد حاجة قصوى (للقبيلة) العربية المتكاثرة في باريس . وشجعناه ، وكنت على رأس المحمسين له . فأنا أعرفه أكثر من سواي . وقد سبق لنبيل أن أقام في بيتي وأسرته في احدى فترات الحرب البيروتية الضارية وغادرت يومها البلاد للراحة قليلاً ، وحين تحول بيتي الى ساحة قتال واضطرت زوجته الفرنسية الرائعة اللطف والأخلاق للهرب وأولادها الى حي أكثر أماناً ، ظل نبيل مقيماً في بيتي معرضاً حياته للموت ، ريثما رد لي الأمانة يوم عودتي . . وهكذا فمعرفتي لأخلاق هذا الشاب عملية وليست من قبيل الأوهام .

* * *

واستأجر نبيل في باريس مكتباً ليدير منه شؤون المكتبة : المراسلات مع دور النشر ، استلام الكتب العربية المشحونة وتسديد الفواتير وغير ذلك من التفاصيل التي

يصعب تنفيذها داخل مكتبة صغيرة . وبحكم عمله كان معظم زواره يحملون الملامح (الشرق ـ أوسطية) ، وتلك فيما يبدو في زماننا تهمة في الغرب . وصار أهل المبنى يشاهدون زوار العمل ، كما يلتقون كل يوم بالملامح العربية المميزة لنبيل ، فأطلقوا صفارة الانذار و (استنفروا) ضد وجهه ، وحاكموه بتهمة (العيون السود) والبشرة السمراء الداكنة ، وأدين لأصله العربي وعلقوه على مشنقة المقاطعة وطردوه .

* * *

الطريف أن السيدة التي قادت الحملة ضده فرنسية متزوجة من لبناني ، وتقيم في المبنى واياه .

فما الذي شاهدته تلك السيدة المطلقة حتى اتخذت ذلك الموقف شبه الهستيري من نبيل ، وأصابت بالعدوى بقية الجيران الذين أبدوا استعداداً كبيراً لتصديق مخاوفها ؟

هل كان زوجها (قبضاياً) من الذين باعوا رفاقهم الثوار الانقياء وتستروا بشعارات نبيلة لتنفيذ أغراض دنيوية رخيصة (مذهبة) ؟

هل شاهدته يخزن السلاح؟ يخطف الناس على الهوية؟ يقنص الأبرياء من نافذة الحمام ؟ يفخخ السيارات ؟ يعذب العزل والمساكين ؟ يقتحم البيوت في غارات ليلية للسرقة تحت ستار تفتيش أهلها ويحتجزهم في الحمام ناهباً غلة العمر منهم ، وربما العمر كله بطلقة رعناء ؟ هل اشترك في مذبحة ما وعاد اليها وعلى شفتيه دماء شقيقه بعدما التهم لحمه حياً ؟ هل ارتكب إثماً من تلك الآثام الكثيرة التي تورط فيها بعض حملة السلاح اللبنانيين وغير اللبنانيين ، فصارت بعدها تكره كل لبناني ، بل كل عربي ، دونما تمييز بين مجرمهم وبريئهم ؟ تراها لم تعد ترى في العربي غير مشروع جلاد ؟ . . .

* * *

لقد كان ذلك ما حدث . . والجيران الفرنسيون ـ كبقية شعوب الأرض ـ الذين شاهدوا ما ارتكبناه من فظاعات مخجلة طوال عشرة أعوام ، صدقوا اتهاماتها الهستيرية تلقائياً بعدما صار عقلهم الباطن مستعداً لذلك . . .

وهكذا دفع الأبرياء ثمن جرائم القتلة داخل لبنان . . وخارجه أيضاً . .

فالبريء الذي يغادر لبنان حياً ، ساعياً وراء الرزق الحلال له ولأولاده ، يكتشف أن الرأي العام الغربي لم يعد (يرتاح) لوجوده ، بل ويتوهمه من فئة سفاكي الدماء ، ويعامله من هذا المنطلق . . .

وهكذا يدفع نبيل في باريس ثمن الجرائم التي ارتكبها سواه في بيروت ، وكانت

سبباً أساسياً لهجرته !! . . والناس جميعاً يعاقبون مرة ، إلا البريء اللبناني فيعاقب مرتين ، مرة داخل الوطن لأنه (آدمي) مسالم ولا يعاقر السلاح ، ومرة خارج الوطن لأنه قادم من هناك ، بلد الآثام ، ولأن أحداً لم يعد يثق بنا ـ بوجه عام ـ .

* * *

نبيل نموذج لمعاناة اللبناني والعربي الشريف في العالم بعدما ساءت سمعتنا ، وصارت صورتنا في وسائل الأعلام غير مشرفة ـ الا فيما ندر ـ ، وساهمت الأجهزة الصهيونية في الترويج لهذه الصورة البشعة ، وفي تكبيرها وتعميمها ، وصرنا نراها بحالة (ستيريو تايبد) في الأفلام التلفيزيونية والسينمائية حيث الملامح (الشرق ـ أوسطية) تنفذ عمليات الاغتيال والقتل وسفك الدماء في الغرب (الآمن) . ونحن بسلوك بعضنا لا نقصر ـ للأسف ـ عن مدهم بالوحي ، وبالأحداث التي تؤكد قدرتنا على اغتيال الأطفال أيضاً دون أن يرف لنا جفن . . .

* * *

تذهب الى سفارة ، وحين تشهر جواز سفرك اللبناني ، يشهرون مسدسهم ! . . . لقد ذهبت الى احدى السفارات الغربية في باريس لطلب تأشيرة ، وسألني الموظف سؤالاً واحداً : ما هو جواز سفرك ؟ قلت : لبناني . فقال : عودي بعد شهر . هكذا ببساطة ، لا أحد يريد (كارثة) دخول لبناني الى بلده ، وهو يؤجل (المصيبة) شهراً بعد آخر فقد أقتل في هذه الأثناء ، ويتخلصون مني ، وترتاح بلادهم من (ارهابية) اضافية ! .

* * *

أتساءل: الى أي مدى نحن مسؤولون عن سوء سمعتنا في العالم ؟ ما دورنا في الاساءة الى ذاتنا ؟ لماذا لا أحد يريد تأجيرنا بيتاً ، ولا توجد سفارة تمنحنا تأشيرة دخول إلا على مضض ؟ لماذا نحن مشبوهون في الفنادق ؟ لماذا يكره (الأجانب) أن يصادق أولادنا أولادهم ، كأن أطفالنا سيعلمونهم بالتأكيد تفخيخ السيارات وصنع قنابل مولوتوف على سبيل المزاح ؟ لماذا يدهشون ـ حين يعاشروننا أحياناً ـ لأننا غير متوحشين بقدر ما كانوا يتوقعون ؟ . . . ولماذا يعبرون عن اعجابهم بنا أحياناً بصورة مهينة لا يلحظونها ، كقولهم (لا تبدون عرباً) أو تأكيدهم (أنتم على جانب كبير من الأخلاق كأنكم لستم من لبنان !) . . الى أي مدى شاركنا في تدمير سمعتنا واستدرار الاهانات لنا في العالم ؟ وهل نعاقب ذات يوم أولئك الذين سببوا لنا ذلك الذل كله ؟

باريس ١٧/ ٧/ ٨٥

أميري سلمان

أخجل من الاعتراف لكم ، منذ متى لم أره ! . . .

أخجل أمام حبي له من فراقنا الذي طال . . ولكن ، هذا ما تفعله بيروت بالناس . تسرق منهم الحس بالزمن ، والشوق ، واللهفة . والقذائف التي لم تمزق منا الأجساد ، مزقت فينا وعي الحب وشهية اللقاء . . . فأضحى الشوق يمضي في درب مغايرة لدرب القلب . . من عايش حرب بيروت وزمنها المتوحش يفهم بالضبط ما أعنيه . . . وكم من وجه حبيب شهرناه رمحاً في وجه الألم ، ثم طويناه مع أشيائنا الغالية الأخرى في ليالي القصف والخطف ، وأخفيناه داخل آبار الذاكرة ودهاليزها التي تلاحقت فيها الانهيارات ، ولم تترك غير صرخة : أين أضعت يدك يا سلمان ؟ . . .

***

في مطار شارل ديغول ، وقفت أمام الباب رقم ٦ أرتجف وأنتظر وصول أخي سلمان ، وبحزن عميق أحصي أعوام فراقنا وأغص : كيف استطعت أن أعيش بعيداً عنه طويلاً هكذا ؟ . . كيف تحولت بيروت الى ابرة مسمومة تحت الجلد ، تخدرنا عن أحبابنا الحقيقيين ؟ .

هذا ما تفعله الحروب المتوحشة بالناس . تجعل الأخت ترتعد شوقاً للقاء شقيقها ، وهي تتساءل بغصة : هل سأعرفه بعد هذه الأعوام الطويلة من غيبة الوعي ؟ وهل سيعرفني أميري الدمشقي الجميل سلمان ؟

وما كاد وجهه يشرق بين المسافرين ، حتى صرخنا معاً في وقت واحد ، وقفزنا ، وطرنا في رقصة الشوق .

***

لم يتبدل أميري سلمان من الخارج . عيناه الطفوليتان السوداوان حملتا الي ليالي دمشق وبردى وقرية الشامية ، وقامته الفارعة ذكرتني بزمن تسلق الأشجار والسباحة

ومطاردة الأفاعي المائية وبهوايتنا المشتركة القديمة : الصيد . وتذكرت يوم أخطأ طائراً وأصابني بطلقته ، فأخفيت الأمر عن أبي وهرولت نازفة الى مستشفى عمي حيدر ، سراً أداوي جرحي خوفاً على سلمان من العقاب . تذكرت صوته الجميل وهو يغني لي ليلاً كي أنام . . وكان الصوت هو ذاته ، لكنه الآن ينطق بالانكليزية بعدما نسي العربية . . . وكان سلمان هو ذاته ، لكنهم ينادونه (هناك) باسم « سام » ، كأي دماغ عربي مهاجر ، مهنته الآن الهندسة الالكترونية وبناء (الكومبيوترات) .

* * *

كم حياتنا الداخلية صارت مختلفة ، أو هكذا خيل الي للوهلة الأولى ، بينما سلمان يحدثني عن كلبه الحبيب « البارون ايجورفون تراب » ، وقاربه البخاري السريع الذي يقضي اجازاته فيه ، مستمتعاً بالصيد وبصحبة كلبه ، وابنه عمر . وخجلت من أن أقول له أنني قضيت اجازاتي في السنوات الأخيرة تحت القصف ، في الملجأ أو الدهليز أو داخل كوابيس الذعر والقهر . . . وحدثني عن سياراته وأحصنته العربية ، وأخرج من جيبه ١٥ بطاقة من تلك التي يستعملونها بدلاً من المال ، مثل « الأميريكان اكسبريس » وسواها ، واكتشفت أنه نسي استعمال النقود ، لا كأخته البدائية . . . وحدثني عن « كومبيوتره » الخاص في بيته الجميل الهادىء في أميركا . . . ولم أحدثه عن همومي فقد نسيتها معه . . . ميزة أميري سلمان منذ طفولتنا أنه قادر على إضحاكي . معه يبدو العالم نكتة كبيرة ممتعة ، والابتسامة مهنة ، والكتابة حماقة ! . . .

* * *

أميري الدمشقي سلمان يمتاز علي في المجالات كلها ، بما في ذلك الجنون والتشرد . لقد وصل البارحة من أميركا الى اسكوتلندا ، حيث يملك قصراً مسكوناً بالاشباح ، اشتراه لأنه كذلك ، وقاد سيارته ليلاً حتى مطار لندن وطار الى باريس حيث لقيته ، وسيغادرني بعد ساعات الى اليابان ! . . . وحين ذكرته بذلك اليوم الطريف في القرية ، يوم اصطادني بدلاً من الطائر ضحكنا طويلاً ونحن نتفقد آثار (الخرطوش) وتذكاراته على ظهري ، وتلك « الخردقة » التي أصررت على ابقائها في ذراعي تذكاراً لطفولتنا المشتركة المجنونة ! . . . وقال سلمان أنه ما زال يتابع هوايته هذه ولديه مجموعة كبيرة من بنادق الصيد ، سنستمتع معا بتجريبها مع ماكينته الخاصة باطلاق الأهداف المتحركة لصيدها .

* * *

وأخيراً سألته عن بناته ، فخرج اليَّ (سلمان) الحقيقي العتيق لا (سام) . . . ابنته الكبرى في الرابعة عشرة من عمرها . سألته ببساطة : هل لـديها صـديق « بوي فرند » كأية فتاة أميركية أخرى ؟ . . .

وارتجف أخي غضبـاً وشاهـدت في وجهه أرواح أجـدادي وهبت أصـواتهم من حنجـرته وهـو يقول بحـزم : اذا تجرأ أحـدهم على الاقتـراب من ابنتي فسأريـه كيف أستعمل بنادقي ، ولن أدعه حياً .

واختفى سام ، ووجدتني مع سلمان بن أحمد بن عبد العزيز السمان، الدمشقي العتيق القادم من حي الشاغور المحافظ . . .

وانفجرت أضحك طويلاً وأنا أضمه الى قلبي : أيها الشرقي العتيق . . . إذن لم تتبـدل . . . وما تـزال تتكلم اللغة العـربية داخـل قشرة انكليـزيتك الشكسبيـرية . . والدماغ العلمي الكبير الذي رشح لجائزة نوبل في الرياضيات وأُهديَ عدة جنسيات ، يفتل شاربيه مستعداً للقتـل من أجل خلخـال ابنته التي لم تـر سوريـا طوال حيـاتها في الغرب ! . .

انها ردة الفعل نفسها التي واجهني بها أميري سلمانُ يوم بدأت الكتابة .

حين شاهد صورتي في الصحيفة الدمشقية للمرة الأولى ، جن صوت الأجداد في دمه ، ولولا سطوة الوالد وانحيازه اليّ لهدد باستعمال بنادقه ، كما سيفعل الآن مع أي شاب عاثر الحظ يتوهم ابنته « أميركية » ويحاول التودد اليها . . .

***

أميري سلمان ، لم تبدل الغربة جوهره ، وما زال محافظاً على مساوئه كلها ! . . . قلت له ذلك وضحكنا طويـلاً . . . وحين رحـل ، غاصت الضحكـة عن شفتي ، اذ وعيت كم درب تحرر المرأة العربية طويلة ، وكم ستكون شاقة . . . وكم عليها أن تميز بين تحررها للخروج الى نزهة حمقاء ، وبين امتلاك حريتهـا للخروج الى معـركة عمـر جادة . . .

وكم استفزاز الرجل العربي استراتيجية خاطئة . . ومحاولة فهم مشاعره والتعامل معها باحترام وحذر ، ولكن بحزم هي بداية الطريق .

وكم من السنـوات الضوئيـة من العمل الجـاد تنتظر المـرأة العربيـة ، لا لتبـدل « سلمان » الى « سام » ، فهذا ما لا نريده ، ولكن لتقنعـه بأنها هي أيضـاً تعرف متى تستعمل بندقيتها . . .

باريس ٢٦/ ٦/ ٨٥

حرية ام فضيحة ؟

لا ريب وان كل عربي مر بالشواطىء الأوروبية هذا الصيف دهش قليلاً أو كثيراً ـ أو صعق ـ أمام ظاهرة السابحات العاريات حقاً إلا من ورقة توت مختزلة . . فهو لن يجد نفسه أمام عدد محدود من الصبايا الجميلات اللواتي يحاولن لفت انظار مخرجي السينما والمصورين مثلاً ، وانما أمام ظاهرة عامة وممارسة واسعة النطاق . . ففي شواطىء (الكوت دازور) الفرنسية يفوق عدد العاريات الصدر بقية السابحات . وفي كورسيكا ، الجزيرة المتدينة المحافظة ، نجد سابحات « ربي كما خلقتني » يعادل من حيث العدد نصيرات المايوه (المحتشم) . . . ولأن تقاليدنا وتربيتنا كعرب ـ مهما عشنا طويلاً في الغرب ـ لا تألف بسهولة مشاهد كهذه ، فإننا سنجلس تحت الشمس المحرقة نتأمل في أحوالنا ، وأحوال عالم لا ننتمي اليه ، ويتعمق شعورنا بالغربة .

* * *

ستلحظ معي ، أخي القارىء أن عدد العجائز من العاريات يعادل عدد الصبايا . كأننا امام ظاهرة لا ترتبط بالجنس والاغراء فحسب ، بل بأمور أخرى كثيرة ، منها مفهوم المرأة الغربية عن المساواة بالرجل . . فما دام هو يرتدي زي سباحة من قطعة واحدة ، سترتدي هي ايضاً الزي ذاته . . كأننا أمام مسرحية غبية للمساواة ، يحاكي فيها القرد قرداً آخر ببغائية « صورية المنطق » وتتساءل : كيف تكون المرأة ضد الاغتصاب ، ومع خلع الثياب ؟

* * *

ستحدق في الشاطىء الشاسع ، وآلاف النساء العاريات يهرولن امام عينيك أو ينمن او يطعمن أطفالهن ، وستتعلق نظراتك بتلك المرأة التي ترتدي على الشاطىء ثياب الحداد السود من رأسها حتى أخمص قدميها مروراً بغطاء الرأس والجوارب . . ستراها اكثر من أية امرأة سواها ، وسيبدو لك سوادها كثيفاً ومشعاً كأنها امرأة رمزية ، حضورها حداد على نساء الشاطىء المعاصر ومفهومهنّ الهزلي للتحرر . . ولن تدهش

كبقية رواد الشاطىء من مظهرها وحضورها البحري كعلم مكسور فالسبب واضح في ذهنك : الحداد على من ضيع الخيط بين التهتك والمساواة في أحد مآتم (التحرر) . . .

***

في البداية ، ستقول لنفسك : لماذا أتحرش بهم فكرياً ؟ هذا وطنهم ، وعاداتهم تنبثق من حياتهم التي ألفوها بعد تطور خاص بهم . . .

وستلحظ ان احداً في الشاطىء لا يتحرش بالعاريات ، ولا احد يعتبر خلع الجزء الأعلى من (المايوه) مزية او عيباً . . وكل مشغول بنفسه وشمسه . . وقيمهم الاجتماعية مختلفة عن قيمك وكذلك مفهومهم للحلال والعيب . . وحين بدأت هذه الظاهرة منذ أعوام اهتمت بها صحفهم واستجوبوا العاريات ، ثم انتشرت الظاهرة ونسيها الجميع واعتادوها ، وانصب اعتراضهم في العام الماضي على عاريات الصدور في الحدائق العامة وملاعب التنس وكرة السلة فقط ، وهذا العام غطى رمل النسيان واللامبالاة النهود كلها ، ولم يعد ثمة من يلتفت الى هذه الظاهرة إلا الغريب مثلك ! . .

***

ستكرر لنفسك ما شأني بهم ؟ ولماذا لا ألملم جسدي عن بحرهم الى بحار ألفتها وانتمي الى ممارساتها ؟ ولكنك ستتذكر انهم لا يغرقون حقاً في السلام ، وهذه اللامبالاة البحرية تكاد تكون مزورة . . . والاحصاءات في الجريدة التي تدفن فيها وجهك تؤكد ذلك . . ارتفاع نسبة الطلاق بصورة لم يسبق لها مثيل . . ازدياد عدد الذين يقيمون معاً دونما زواج ، وبالتالي نسبة الأطفال اللقطاء والمشردين بين أم بلا زوج ، وأب غير مؤكد . انهم يقرعون بأنفسهم ناقوس الخطر ، فلماذا تشارك المرأة في تدمير حياتها ، واهمة انها تحقق المساواة بينها وبين الرجل ، وتخلط بين حقها في تقاضي أجور متساوية في العمل وبين رغبتها في تعرية اجزاء متساوية من جسدها والرجل ؟ ألا تلحظ انها تنشط بذلك النزوات المنحرفة ، وتخدر الرغبات السوية الجادة ؟ وبماذا تفسر السلوك المخدر لذلك الشاب الجالس الى جانبك ، والذي وقعت نظراته على صبية بلورية امامكما لا ترتدي غير طابع بريد ، فتثاءب طويلاً ، ونام ؟

ستحدق من جديد في امرأة الحداد على الشاطىء ، وستراها غامضة وشهية ربما اكثر من اية امرأة اخرى في هذا الخواء الخُلقي والنفساني .

***

ما يدور على اي شاطىء في الدنيا يخصك . وكما انك ضد الظلم في اي مكان ،

انت ضد التهتك في اي مكان . فالسلوك البشري كالزكام ، يصيب الآخرين بالعدوى ، وتتذكر ان بعض نساء العالم يجدن في حرية الغربية نموذجاً وحلماً ، فتشعر بالحاجة ـ اكثر من اي وقت مضى ـ الى التوكيد بأن المرأة العربية بحاجة الى حرية من صنعها هي ، تأتي امتداداً لنسيج مجتمعها وحصيلة لتطوره ، تستلهم تجارب الشعوب الأخرى ولا تستوردها بحيث تنبذ ما لا يتلاءم وجوهر تحررها ، وتتجنب عثرات نساء الغرب في دروب الحرية . . .

تلك الحانات و (الكاباريهات) الخاصة بالنساء ، التي يلعب فيها الرجال دور (الغواني) والسيدات دور الزبائن ، لا تشعر بأنها مظهر أصيل من مظاهر تحرر المرأة ، وانما مجرد تقليد غبي لعبودية الرجل للجنس البهيمي . . والمطلوب تحرير المجتمع من ظاهرة (الكاباريه) ككل عن طريق إزالة مسبباتها ، وليس محاكاة المرأة للرجل في مباذله ، حيث يقدم لها الرجل (وصلة) التعرية (الستربتيز) بعدما قدمتها له عصوراً .

امام مظاهر كعري نساء الشواطىء ، وانتشار (كاباريهات) المتعة المضادة مع تحطم مؤسسة الاسرة وتشرد الاطفال ، ستشعر بالحاجة الى تحرير المرأة من حريتها اذا اساءت استعمالها وحولتها من سلاح لتقوية المجتمع الى اداة اضافية لتدميره . . .

* * *

واذا عدت من الشواطىء الى وكرك في الغربة مثلي ، وخرجت ذات يوم مشمس تتمشى على شاطىء السين قرب تمثال الحرية الذي يتوسط النهر مقابل مبنى الاذاعة الفرنسية ، واذا فوجئت مثلي بعشرات العاريات النهود ممددات على الأرض حول التمثال يستجدين شمس باريس ، فسترفع نظراتك عنهن الى تمثال الحرية ، وستلحظ ان « السيدة ـ التمثال » ترتدي ثيابها وهن عاريات بحجة الحرية ! . . . وسيخيل إليك انك ترى « امرأة الحداد » تهرول بثيابها السود المشعة حضوراً كالرؤ يا . . ولكن عيونهن لا تلمحها . . وحدها امرأة تمثال الحرية تتبادل واياها نظرات غير حجرية . . . كلها حزن لضياع الخيط الفاصل بين التحرر ، والعبودية لحرية وهمية .

باريس ٢٢/ ٨/ ٨٥

الـزفّـة

رافقت صـديقـاً الى مستشفـاه في بـاريس ، وكـان بحـاجـة الى اجـراء بعض الفحوصات الطبية العـاديَّة ، ولكن عاداتنا العـربية تـأبى علينا تـرك المريض ـ او حتى الموسوس ـ يذهب وحيداً الى عيادة الطبيب ناهيك عن المستشفى . « والعين العربية » لا تملك إلا ان تلحظ مجيء الاوروبيـين العجائـز المـرضى وحيـدين الى مـوتهم في غـرف العمليات واروقة الوحشة المزرقة في المستشفيات .

ففي قـاعة الانتـظار كنت الوحيـدة التي تؤدي دور (المرافقـة) والمؤانسة ، وفي رواق التصوير بالأشعة ، طردتني الممرضة وشاباً عربياً كان يرافق أمه . . .

وفي الـطابق الأعلى كـان روك هدسـون يرقـد وحيـداً لا يسـامـره غـير مـرضـه (الايدز) . وقرب الباب شاهدت النجم السينمائي الفرنسي ميشيل جالابرو يدخل الى طبيبه وحيداً الا من شحوبه وذبوله ، وفي الليلة السابقة كنت قد شاهدته على الشاشـة ضاحكاً في دوره الشهير كدركي رفيق لـ « لـوي دي فينيس » في أفلام « شـرطة سـان تروبيز » .

***

ثمـة عادات عـربية متـوارثة جميلة احـرص عليها ، واتمنى ان تستمـر كجزء من تقاليدنـا الانسانيـة ، ومنها عـادة مرافقـة المريض والمتـألم الى الطبيب حتى ولـو كرهت الممرضات الاوروبيات حضورنا . . . إنه عطاء حنون . . . واعرف اننا كعرب ، نبالغ احياناً في (حجم) هذا العطاء ، فيذهب المريض الى المستشفى الأوروبي في « زفة » كأنه ذاهب الى عرسه ، ترافقه قبيلتـه التي تضيق بها دهـاليز الممـرضات ، ولكن المـطلوب (عقلنة) هذا العطاء لا الالغاء التام له . . .

واصرارنا على احاطة المريض بالمحبة لا يخلو احيـاناً من الـطرافة المحببـة ، حتى

ليكاد الرفيق يذهب الى غرفة العمليات بدلاً عن صاحبه المريض ، كما حدث لصديقتي العزيزة هديل ذات يوم !

* * *

كان ذلك في بيروت ، ارتفعت حرارتي فجأة وشعرت بأوجاع غامضة في نفسي امتدت الى كل موضع في جسدي . ولأن الله منَّ عليَّ بنعمة العافية ولم اعرف بعد غصات المرض ، هرولت الى المستشفى مذعورة ترافقني « زفة » الأهل والاصحاب والجيران وصديقتي هديل التي اتفق ان جاءت تزورني ذلك اليوم .

وقرر طالب الطب في غرفة الطوارىء : التهاب في الزائدة الدودية . لا بد من اجراء العملية في اسرع وقت . وأيده في ذلك استاذه الجراح ، وتقرر (شحني) الى غرفة العمليات فجر اليوم التالي بعد ليلة اقضيها في المستشفى . . .

* * *

وبعد طقوس طرد الممرضات للأهل من غرفتي والصالة واروقة المستشفى ، قررت هديل انها لن تتركني وحيدة وملتهبة بالحمى هكذا ، وستقضي ليلتها على المقعد المجاور . واختبأت في الحمام ريثما انتهت (دورية) التفتيش، وحمل لها الاصحاب طعاماً لتأكل اذا جاعت ليلاً او فجراً . . . ونمنا ، انا في فراش الحمى ، وهديل على المقعد غير المريح . . وصوت في اعماقي كان يصرخ : اني مصابة بالتهاب في الزائدة النفسية والقلبية لا الجسدية ، فأطلقوا سراحي . لكن احداً لم يسمع هذا الصوت ولم يوقظ هديل من نومها القلق المعذب في المقعد الضيق . وغلبني دوار الحمى فنمت نوماً عميقاً وكان الصوت الأخير الذي سمعته صوتي وانا اهمس : لست مريضة . اني مكسورة الروح . . لست مريضة بـ (الزائدة) بل بـ (الناقصة) من بقية حاجات النفس !

* * *

عند الصباح الباكر استيقظت مبللة بعرق العافية ، وجوع عظيم يستولي علي وقد فارقتني الحمى والاوجاع . . شاهدت هديل نائمة وعلى وجهها امارات المرض بعد ليلة مسهدة غير مريحة. سرقت طعامها ومضيت الى الحمام ألتهمه ـ فقد كان من الممنوع ان اتناول لقمة قبل اجراء العملية ، ولم يحملوا لي الافطار ولم يقرع بابنا احد! ـ وبدأت ألتهم الخبز ، والعافية تدب في جسدي . سمعت قرعاً على الباب ، فأحكمت اغلاق الحمام وتابعت الأكل بشهية . سمعت الممرض يتناقش وهديل . ألصقت أذني بالباب وصعقت .

لقد ظنها المريضة ، وهو يحاول ارغامها على ارتداء قميص العمليات وتناول جرعة الدواء المخدر والتمدد فوق السرير المتحرك . . . كدت انفجر ضاحكة ثم ادركت انه سيرغمني على ذلك اذا خرجت اليهما . . وقررت البقاء حيث انا . .

* * *

لا أدري كيف لم انفجر ضاحكة بصوت عال وانا اسمع هديل تصرخ بينما الممرض يحاول غرس ابرة (حقنة) التخدير التمهيدية في جسدها ، كان مقتنعاً بأنها المريضة المذعورة ، وواجبه يقضي بحملها الى غرفة العمليات نصف مخدرة ، ولو كرهت . . .

ولا أدري كيف لم اخجل واعترف بالحقيقة حين تدفقت الاصوات الأخرى في الغرفة بعدما اجتذب الممرضات صراخها وهي تناديني وتطلب النجدة وانا اتابع التهام طعامها . . . ولا اجيب . . وحتى حينما اضطررت لفتح الباب اثر قرع الممرضات له ، خرجت اليهن بوجه كله عافية وشبع وقلت لها وكأنني انا هديل : لماذا تخافين من العملية هكذا يا استاذة غادة ؟ . . .

ووصل الطبيب ، وانقذنا معاً . . . وغادرنا المستشفى الى المقهى . .

* * *

بعد فراق اعوام، باعدت ظروف الحرب والحياة فيها بيني وهديل ، تابعنا حوارنا الضاحك حول ذلك اليوم . . حين كادت تجرى لها عملية جراحية ـ لم اكن بحاجة اليها ـ بالنيابة عني . . وفوجئت بها تقول : ولكنني كنت انا بحاجة اليها . ما كدت تسافرين حتى اصبت بالتهاب في الزائدة وأجريت لي العملية بسرعة . . قلت لها : لو رضيت يومها بالذهاب مع الممرض لأجريت لك العملية . . على حسابي بدلاً من ان يدفع زوجك النفقات . . . لقد كنت انت يومئذ بحاجة الى استئصال « الزائدة » ، والدليل انني ما زلت احملها معي !

* * *

تأملت ذلك الشريط الطريف القادم من الماضي وانا انتظر صديقي المريض ـ مع وقف التنفيذ ـ والموسوس ، وارقب النجم السينمائي الفرنسي ميشيل جالابرو خارجاً من غرفة التصوير بالأشعة وقد ازداد شحوباً . . . وحيداً بلا صديق ، ولا اولاد ، ولا انسان من ملايين المعجبين يؤنس وحدته . . .

بعض تقاليدنا العربية التي يضيق الغرب بها ، وبممارساتنا المضحكة المبالغ فيها

احياناً ، تزخر اعماقها بلمسات انسانية ، ويضيء جوهرها وحشة الروح امـام المرض والغربة . . .

والمهم ان نحافظ على أصالتها من التشويه، فـلا نحول مستشفيـات الغرب الى صـالات طعام ومنـامة لأهـل المريض في « الـزفة » ، ولا نبعث بـأصدقـائنا الى غـرفة العمليات بالنيابة عنا ! . . .

باريس ١٨/ ٩/ ٨٥

لماذا التهمت جدتك يا ليلى ؟

انه اسبوع قتل العجائز في باريس . سفاح متخصص في خنق النساء المسنات الوحيدات ، يطاردهن الى أوكارهن حيث يعشن مع الوحشة والبرد والسعال ، وصرة نقود صغيرة تحت الوسادة ، فيخنقهن ويمضي بالمال . . .

عشرات منهن وجدن مقتولات في بيوتهن ، فهن الهدف المثالي لسارق متعب . . . ومفاصلهن التي أكلها الزمن والروماتيزم لا تسمح بالدفاع عن النفس ، ورئاتهن المسكونة بشهقات العزلة ، والاحزان المخنوقة ، لا تقوى على صراخ يوقظ الجيران ، وهم حتى لو سمعوا استغاثة لما فعلوا شيئاً غير حشو آذانهم وضمائرهم بالقطن ، والقسم لرجال الصحافة والبوليس بأنهم لم يسمعوا ، لم يروا ، لم يقولوا ، ولن . . .

***

كل اسبوع هو اسبوع قتل العجائز في المدن الكبرى ، في زمن حضارة اواخر القرن العشرين .

والسفاح ليس فقط ذلك السارق الذي ينتقي ضحيته المثالية مسنة ووحيدة ، لكنه ايضاً ذلك الابن او الابنة او الاولاد الذين اسلموا أمهم لبراثن الاقامة وحيدة . . .

بل ان الجريمة بدأت قبل ذلك بزمن بعيد ، حين رضيت العجوز القتيل ذات يوم بأن تتخلى عن أولادها المراهقين ، ليقطنوا وحدهم ، وكانت يومئذ شابة ، ولم تلحظ انها تربيهم على الجفاء ، وتشارك منذ ذلك اليوم في جريمة اغتيالها لذاتها . . . كأنها بدأت منذ ذلك اليوم بجدل الحبل الذي سيخنقها به قاتلها ذات ليلة : حبل العزلة والوحشة وتدمير مؤسسة الأسرة . . .

***

بعض العادات العصرية في المدن الكبيرة « المتمدنة » لا علاقة لها بالحضارة وجوهر « التمدن » .

وانكسار الصلة الحميمة بين افراد الاسرة هو القاتل الحقيقي ، أما السفاح الذي يخنق العجائز فليس اكثر من اعلان عن بشاعة ما يدور . . .

ستقولون لي : ما شأننا نحن بجريمة قتل العجائز في باريس وبقية المدن الكبرى المعاصرة ، وهمومنا العربية لم تترك في القلب موضعاً لحزن مستورد على عجوز اوروبية او اميركية ؟

وبالتأكيد فالأمر لا يهمنا إلاّ من زاوية واحدة : هي الحفاظ على عـزيز نملكـه ، ويفتقرون اليه في مدنهم « المتحضرة » ، رغم اننا من بلدان « العالم الثالث» . . .

* * *

وسط الرياح التي تهب على حياتنا الاجتماعية العربية المعاصرة ، يشعر المرء اكثر من اي وقت مضى بضرورة التمسك بكل ما هو جميل ونبيل في عالمنا الخاص .

وسط قحط القيم الذي تعاني منه بعض البلدان المتحضرة ، نشعر اننا اغنياء في بوادينا ومدننا المتواضعة وخيامنا . . .

ثمة اشياء ما زلنا نمتلكهـا ، وتتدفق من اعمـاقنا ، ولا نـريد ان ننسـاها ، ولن نسمح لروح العصر بسرقتها منا . . . ولن نكون كمن يمتلك كنزاً ، فيزهد فيه لمجرد انه امتلكه . . ونريد ان نظل نعي أهمية الروابط الأسروية العربية التقليدية، ونحافظ عليها كأحد الاشياء المتوارثة الثمينة التي لن نحطمها يوماً بفعل وهم « المعاصرة » والتطور .

ليـلى العصريـة لم تعد تـزور جـدتهـا في غـابـة الحجـارة والمعـامـل والـوحـوش البشرية . . . الـذئب لم يلتهم جدة ليـلى ذات الرداء الاحمـر . . ليلى هي التي التهمت جدتها بنفسها يوم انكسرت علاقتها بها . . . وحين تصير ليلى بدورها جدة ، ستلتهمها حفيدتها اهمالاً ، والسفاح ليس اكثر من أداة الجـريمة . . . او الاعلان العملي عن جريمة اجتماعية حدثت منذ زمن بعيد والاطراف المعنية جميعاً متواطئة . فلماذا يدهش الناس لذلك في الغرب ، وتهب الصحافة ويهرول البوليس . . . وكل منهم تقطن جدته وحيدة في وكر مشبابه منذ عشرات السنين وثمة سفاح مـا يخطط لقتلهـا ؟ . . ألا يلحظون ان القاتل الحقيقي هو هذا المناخ من اللامبالاة بالأرحام ؟

* * *

ليلى العامرية ما زالت تحرص على جدتها ، كأبيها وامها . . . . والذئب لا يحب

بيـوت الجدات المسكـونة بضحكـات الاحفاد ودفء محبتهم . . . . وهـذا تقليد نتمنى استمراره لحياتنا العربية . . .

وانا شخصياً أرى في الجد او الجدة رمـزاً للتواصـل الصحي مع التـراث، ورمزاً للعلاقات الانسانية المزدهـرة ، ورمزاً للقيم الاجتماعية العربيـة المتوارثـة التي لا نريـد تدميرها ، وحين نغربل تـراثنا ونحـرق اللاعقـلاني منه ، نكتشف ان مؤسسـة الاسرة بالمعنى الكبير للكلمة ما تزال أجمل ما في حياتنا العربية العريقة ، وأنبل قيمنا الانسانية التقليدية .

فالجد او الجدة هما رمـز حضور الاسـلاف في حياتنـا ، ورمز التـواصل الايجـابي وجذورنا وماضينا ، كل ذلك في اطار انساني غير مصطنع الكيان . . .

الجدة ليست « الطبيب النفساني » للأسرة بالمعنى العصري للكلمة فحسب ، بل هي رمز استمرارية الحياة النفسية المعافاة لابنائه . . .

* * *

لا أملك قلباً مترعاً بالأوهـام . وأعرف ان الصـورة الرومـانسية للجـد او الجدة ليست صورة دقيقة ولا واقعية دائماً . واعرف قول شكسبير المطلع عـلى طبائـع النفس البشرية في قصيدته : « الشيخوخة والشباب ، لا يتعايشان . / الشباب مليء بالبهجـة والحبور ، والشيخوخة كلها حرص / الشباب صباح يوم صيفي ، والشيخوخة كطقس شتـائي » . والمطلوب ليس خنق الجيـل الطالـع بأنفـاس الشيـوخ . انني اتحـدث عن (منـاخ) من التواصـل المتبادل والمحبـة والاهتمام دون تحـديـد (مكـان) ذلـك . . . فالبعض يفضل ان يقيم بعيداً بعض الشيء عن اولاده واحفاده ، ويتـرك مسافـة تنمو المحبة فيها اكثر . . . وهذه تفاصيل فردية تحددها الظروف المادية والنفسية لافـراد كل اسرة . . .

والمهم ان لا ينكســر الجسـر . . . وان يـظل ممـدوداً بـين القلوب ، طـال ام قصر . . . وكل اسرة تحدد مواصفا ، جسر المحبة واللقاء الدائم . . . والمهم ان لا نفقد ذلـك الجسر المضيء ، سـواء تحـول الى « شعـرة معـاويـة » النحيلة كخيط ، او صـار قارة . . .

* * *

خـارج ظلمات المستنقعـات النفسية ، خـارج العزلـة والهواء السـام وكـائنـات

العتمة ، وداخل مساحات مضيئة من المحبة يمكن ان ينمو الفرد السوي ، العاشق الصالح والمواطن الصالح والمقاتل الصالح . . . ولأن الجد رمز لذلك كله ، لمناخ انساني صحي ، نصر عليه كجزء من اصرارنا على عتيقنا المجيد « غير العصري» . . .

فنحن لا نريد ان ننسى « مؤسسة الاسرة » في غمرة انشغالنا بمحاكاة كل عصري ، وتقليده تقليداً ببغائياً أعمى كي لا نجد انفسنا ذات يوم ودم الأجداد يلطخ شفاهنا . . .

باريس ١٧/ ١/ ٨٦

يوميات مشردة (٣)

ركبت قطارات النسيان المهرولة على السكك الشفافة للذاكرة .

كنت قادمة من حيث لا اريد ان اذكر ، وذاهبة الى حيث لا ادري .

هبطت في « محطة المطر » ، واسمها هذه المرة مدينة «برن». احسستني متخمة بالحزن ، وجائعة . . .

فدخلت الى مطعم « الموفنبيك » المقابل لرصيف المحطة ، وجلست في المقعد الاول الخاوي ، وفي المقعد الملاصق لي جلست ذاكرتي تدخن سيجارتها وتؤنبني على هربي منها في القطارات المسائية ، وتؤكد لي : لن يكون فراق .

فأشعلت لفافتي مثلها ، وصرت ادخن وانا اتأملها واخطط لقتلها . . .

***

ولم اكد اشعل لفافتي حتى حدث شيء غريب في المطعم ـ المقهى .

شهق الناس من حولي وغطى الذعر وجوههم ، كأنني ادخن اصبع ديناميت لا سيجارة مسكينة نصف مكسورة ، فتابعت نفخ الدخان وتحول الذعر الى همهمات غضب ونظرات تحاصرني مستنكرة . هل وجهي قنبلة يدوية ؟ أخرجت مرآتي وحدقت ، فوجدته كعادته . . ولكن غضبهم تحول الى كلام مباشر يوجهونه لي باللغة الألمانية التي اجهلها ، نبرته غاضبة ومستنكرة كما لو كنت كريمة هتلر . فتابعت تدخين لفافتي وقلت لنفسي : لعلهم لا يحبون الشعر الاسود هنا ، والعنصرية التي ترفض البشرة السوداء في بعض المطاعم امتدت لتشمل الشعر . . .

واخيراً تقدم مندوب عنهم مشيراً الى لافتة بالالمانية (ظننتها اعلاناً عن اصناف الطعام الشهية) وقال باللغات الاوروبية كلها : ممنوع التدخين في هذا الجزء من المطعم . الرجاء ان تنتقلي بسرعة الى الجانب الآخر الخاص بأمثالك . . . .

***

لا أدري لماذا انفجرت اضحك واتابع التدخين . ولم اتحرك من موضعي . يبدو انـه كان من المفتـرض أن أرتبك عـلى الأقل واخجـل وانسحب معتـذرة . لكن الأمـر تبدى لي هزلياً .

قلت للرجـل بالانكليـزية : ارجـوك ان تترجم لهم كـلامي . لماذا يخـافـون من سيجارتي ، وعلى بعد أميال يوجد مفاعل نووي يمكن ان ينفجر في اية لحظة ، ويـطيح بهم في ومضة عين ؟

وترجم الـرجـل عبارتي ، فبـدا على الـوجوه السـويسرية القلق ، وتابعت وابن الحلال يترجم لهم : ألا ترون انهم يجذبون انتباهكم إلى أمور تافهة تلهيكم عن الموت المحيط بنا جميعاً ، وتمنحكم وهم الأمان المزور ؟

* * *

ونهضت الى قسم المدخنين بعد هذه المحاضرة ، ولحق بي من هنـاك رجل طلب مني لفـافة لأنـه قرر العـودة الى التدخـين ، وكان قـد توقف عن ذلـك ثلاثـة ايام من العـذاب كما شـرح لي . . . وتجمـع قسم « الـلامـدخنـين » حـول مـائـدة ، وصـاروا يتحـدثون بصـوت مرتفـع كأنهم في مؤتمـر وطني . . . وبعـد قليـل خـرج بعضهم الى الشارع وانضم اليَّ رجل آخر يريد سيجارة !! . . .

وسألناه : ماذا حدث هناك في « منطقتهم » ؟

قال : قرر البعض التمهيد لتظاهرة ضد المفاعلات النووية قرب برن . . .

قلت : لا توجد مفاعلات كهـذه . . كنت اكذب واداعبهم ، والفت انـظارهم الى مخاطر اخرى تتهدد الانسان الساقط في وهم الامان . . .

قال الرجـل مذعـوراً : ولكنها مـوجودة في المـانيا بـالقرب منـا . . هل تعـرفين مساحة الدمار التي يمكن ان يسببها انفجار من النـوع الذي تحـدثت عنه ، ونبهتنـا الى مخاطره ؟ . . .

وغادرت المقهى ضاحكـة . . . ووعيت ان الحياة في اهـوال بيروت تـدرب المرء على الاستمتاع بالدنيا اينما كان وكيفما كان . . كأن معايشة الموت وحدهـا تجعل مـذاق الاشياء اكثر حدة ، ومواجهة المخاطر شبه نكتة .

* * *

الدب رمز المـدينة . وفي الحـديقة العامة شـاهدت نصباً جميلاً للدببـة في اوضاع مختلفة . . وكان أحد الدببة الحجرية قد فتح فمه صارخاً ـ ربمـا من الالم ـ كأن مغصـا

ما قد داهمه . . وجاء احد الشبان (الملاعين) ، فدس بين يديه الصخريتين بربطة من المحارم الورقية . . وبدا المشهد مضحكاً . . . هل يمكن ان نعتبر سلوك هذا الشاب نوعاً من النقد الفني ، يعبر عن رأيه بالنصب ؟

***

اتشرد في الشوارع . . لا متعة تشبه اكتشاف مدينة جديدة . . الساعات الجميلة تزين ابراج المدينة ، فتتذكر الوقت وتنسى الزمن . واهل البلد يرسمون على الساحات رقعة شطرنج . ويلعبون فوقها ببيادق خشبية لها قامة إنسان ، وملونة بالاصباغ على يد فنان رسم لها ثياباً . . .

ويتجمع الناس حول اللاعبين محيطين برقعة الشطرنج الشاسعة كملعب تنس . ويبدأ « التدخل الخارجي » . هذا يحرض اللاعب الهادىء على شريكه في اللعب ، وآخر يدعوه بـ « خصمه » ، وهذا يهمس في اذنه بعبارة فيتشاجر وشريكه وحين يصرع احد جنوده ، يضرب البيدق الخشبي بعنف ، حتى ليكاد يكسره . ويتكهرب الجو . ويكاد اللاعبان يتضاربان فيفرق بينهما الجمهور الذي سبق ان حرض كلاً منهما على الآخر . . ثم يتدخل الناس في اللعب، ولا تعود تميز بينهم وبين الدمى، ويتساقط الجنود والاحصنة والناس على الأرض ، والهمسات الخارجية تتحول الى نصائح فإلى مساعدات عملية . . . وشظايا الخشب تتطاير واهرب لأختبىء خلف متراس المقهى واتساءل : اهذه لعبة شطرنج في برن ، أم هذا تاريخ بيروت ؟ . . .

وجاء البوليس تتقدمه صفارته . دقائق وعاد السلام والهدوء الى ساحة الشطرنج وبدأت اللعبة بشريكين جديدين كأن شيئاً لم يكن . . .

« هل يحدث ذلك في بيروت ايضاً ؟ » همست السيدة التي ترافقني الملقبة بذاكرتي متسائلة . . قلت لها : حسناً . ها انت تنتصرين من جديد . . . وها انا ساقطة في فخك ، اتأمل « برن » ، وارى بيروت . . .

***

وحملني قطار التشرد الى باريس من جديد ، وفي احد دهاليز المترو ، شاهدت شاباً جلس على الأرض ووضع قبعته الى جانبه لجمع النقود ، بعدما كتب بالطباشير فوق الجدار : اريد ان اعود الى وطني . . .

فجلست الى جانبه . . .

برن ـ باريس ١٩/ ٩/ ٨٥

انت قتلته . . فلماذا تنوحين ؟

ليلة الاربعاء ١٠/ ٤/ ١٩٨٥ احتلت شاشة التلفزيون الفرنسي صورة سناء المحيدلي، البطلة اللبنانية، وهي تقرأ رسالتها الوداعية قبل استشهادها. . صبية ذاهبة لتموت كي يخرج المحتل من ارضها . والشعب الفرنسي الذي تعني له الكثير ذكريات (المقاومة) ضد المحتل النازي ، لا يملك الا التعاطف العميق مع تجربة انسانية مشابهة عايشها . .

وما تكاد سناء تغيب عن الشاشة ، حتى تحتلها مباشرة صورة اخرى مؤثرة : امهات ينتحبن على تابوتيْ الضابطين الاسرائيليين اللذين (قتلتهما) سناء ، واطفال يشهقون بدموع اليتم . . .

فهل هي مصادفة ان نشهد على شاشات التلفزيون الغربية صورة الفدائي او الفدائية والعملية البطولية المقاومة التي قامت بها متبوعة مباشرة بجنازة القتلى وبكاء الامهات ؟

***

لنفترض حسن النية حتى ولو لم يكن من (حسن الفطن) . . .

ولنقل ان التلفزيون لم يقصد الغاء مفعول البطولة ، بابراز مرارة الامهات الثكالى . . . ولو وجد شريطاً مصوراً لما ارتكبه اولئك الجنود من تنكيل في عُزّل القرى الجنوبية لبثه . . ولنقل ان التلفزيونات الغربية تتمنى بث افلام عن الجرائم التي سبق ان ارتكبها كل جندي اسرائيلي من الجنود الذين قتلتهم المقاومة ، اذا وجدت تسجيلات كهذه . . .

ولنقل انها مجرد مصادفة لا أكثر ، ان نرى جنازات عشرات القتلى الاسرائيليين ولا نرى جنازات آلاف القتلى اللبنانيين على ايديهم . . .

ولنعد الى صور امهات الجنود الاسرائيليين الباكيات .

***

صورة ام تبكي مصرع ولدها ، هي بالتأكيد مشهد يؤلم قلب اي انسان . .
ولكن احداً لم ير صورة ام الشهيدة سناء وهي تبكي ابنتها . .
ولم تبث التلفزيونات صور امهات المعتقلين في معسكر انصار الذين تم نقلهم الى سجون اسرائيل برسم الموت البطيء . . .
المتفرج الأوروبي يرى وجهاً واحداً للصورة في لمحة سريعة : ام الاسرائيلي القتيل تنوح ، فيدمع معها قلب كل ام غربية . . .
فكيف نقول لأمهات الغرب ان هذه الأم الاسرائيلية التي تندب الآن ابنها هي التي سبق ان وجهت بطاقة دعوة الى قتله ، وانها هي المسؤولة الحقيقية عن مقتله ؟

***

تلك المرأة التي رضيت منذ اكثر من ثلث قرن باغتصاب بيت امرأة اخرى وارضها ووطنها ، ورضيت بأن تضع مولودها في ارض احتلتها بقوة السلاح ، أليست هي المسؤولة الأولى عن موت هذا المولود حين يكبر على أيدي اصحاب البيت الاصليين المطرودين ؟ . . .
واذا كان الجنود الاسرائيليون يموتون على يد الفلسطيني واللبناني ، فإن ذلك يحدث لهم لأنهم طردوا الأول من ارضه ويحاولون الآن احتلال ارض الثاني .
ألا تعرف الأم الاسرائيلية انها تصدر بنفسها حكم الاعدام على كل ولد تنجبه في فلسطين ، لأنها سرقت له سرير طفل آخر يولد في اللحظة نفسها في مخيم فلسطيني بين احضان الرياح ومطر الخيام والتشرد ؟

***

الا تعرف الأم الاسرائيلية ان الشعوب كلها ـ بما في ذلك العربية ـ تلتهب مقاومة حين يحاول أحد سرقة ارضها ؟ . . .
الا يوجد اوروبي واحد يرى هذه الأشرطة المسجلة لبكاء الامهات الاسرائيليات فيقول لها : ايتها الأم ، انت قتلته يوم قتلت حق انسان آخر في الحياة على ارضه ، فلماذا تنوحين ؟
ألا تعرف كل ام اسرائيلية تنجب في هذه اللحظة ولداً فوق تلك الأرض المسروقة فلسطين واسمها المستعار ـ اسرائيل ـ انها ترشح وليدها للاعدام بيد صاحب الحق بتلك السماء والأرض والاشجار والأنهار والمفتاح ؟ . . .

***

وإذا كان انتحاب الامهات الاسرائيليات وحدهن (لا الفلسطينيات واللبنانيات والعربيات على طول حوالي نصف قرن من الزمن) يقطع نياط العقل والقلب الأوروبيّيْن، فلماذا لا يمن عليهن أحدهم بنصيحة هي من صلب التجربة الأوروبية: الأرض التي يوجد عليها محتل ستوجد فيها أيضاً مقاومة . والذي يجتاح القرى برصاص دباباته وغطرسته لا بد من ان يلقى مقاومة بشر لما تمت فيهم مشاعر الاباء والكرامة ولم تتخدر ؟

***

لماذا لا يقول الرأي العام الغربي للأم الاسرائيلية : ايتها المرأة ، انت القاتلة الحقيقية حين انجبت طفلك فوق ارض مغتصبة ، وتبعثين به الآن لاغتصاب مزيد من الأرض ؟ . .

ومتى يقولها العالم ببساطة : ان الولادة فوق الجرح العربي كالولادة فوق فوهة بركان . . . . ورغم محاولات التخدير كلها للجرح العربي ، وعمليات (التقطيب) ومحاولات رتقه وترقيعه وتلوينه بشعارات لطيفة ، فإنه ما زال ينزف غضباً وقهراً ورفضاً لمن توهموا طيبته غباء ؟ . .

من يقول للأم الاسرائيلية : كفي عن قتل اولادك بدفعهم الى الانتحار في ارض ليست لهم بعدما انجبتهم في ارض ليست لك ؟

باريس ١١/ ٤/ ١٩٨٥

كيف ألامس قلبك يا برونو ؟

شاب في التاسعة عشرة من عمره ، قتل في بلدة « كان » جارته العجوز ، لا لغرض السرقة ، وانما لمجرد انها « يهودية». في الصفحة الاولى نشر الخبر في جريدة (لوموند) الواسعة الانتشار ـ العدد ١٢٢٩٧ ـ وكتبه بشكل مؤثر السيد « برونو فرابات » الذي تساءل : متى تذوي « ازهار الكراهية » العنصرية ؟

الشاب القاتل من هواة جمع الاسلحة (النازية) ، وقد احيل الى لجنة اطباء نفسانيين ليقرروا مدى توازنه العقلي ، وبالتالي مسؤوليته عن هذا الجرم البشع .

ونحن كعرب نتفق والسيد « برونو فرابات » على رفض العنصرية والاجرام ، ونصر على التمييز بين « اليهودي » و « الصهيوني » ، ولكننا ايضاً نسأله : ماذا عن الموت العربي اليومي في جنوب لبنان ؟ . . .

***

لماذا مصرع هذه العجوز اليهودية البريئة ، يستطيع ان يجد لقبره نافذة في الصفحة الأولى من «اللوموند» ، بينما يموت عشرات اللبنانيين من المدنيين الابرياء في جنوب لبنان ، دون ان نجد « برونو فرنسياً » يكتب عن موتهم بالحنان نفسه الذي كتب به السيد « برونو فرابات » عن موتها ؟ . . .

ان تقتل طفلاً فلسطينياً او لبنانياً لمجرد انه قد يكبر ويصير مقاتلاً ، اليس جوهر ذلك السلوك هو « العنصرية الصهيونية » التي تشابه في معدنها « العنصرية النازية » ؟ . . .

لماذا موت عجوز يهودية يثير شفقة القلب الأوروبي ، وموت مئات العجائز والاطفال كل يوم تحت جزمات عساكر العنصرية الصهيونية الحديثة وجنازير دباباتهم وجرافاتهم لا يحرك اسى القلب الاوروبي المتحضر ؟ لماذا هو مصفح ضد عذابنا ، وهش و «vulnerable» امام عذابات اليهود ؟

***

من السهل ان نكرر الاتهام التقليدي الخاطىء غالباً ، والقول : لأن « برونو الاوروبي » من عملاء (الاستعمار) كتب ما كتب . ربما كان ذلك من الممكن احياناً ، لكنه ليس بالتفسير الشامل المطلق .

« برونو الاوروبي » ما يزال ينوء تحت « عقدة الذنب » التي تحرص اسرائيل على تغذيتها ومن خلفها معظم يهود العالم . . . ونحن ندفع الثمن . . .

« برونو الاوروبي » لا يبكي موت هذه العجوز وحدها ، بل يبكي موت مئات الآلاف من اليهود الذين ظلمتهم (النازية) - والدليل اشارته الى ان زوج العجوز سبق له ان مات في معسكرات الاعتقال اياها - ويبكي حسه بالذنب كوريث لتلك الجريمة الانسانية الجماعية . . .

وبينما هو مشغول بأحزانه (التاريخية) ، تدور الآن على كوكبنا مذبحة مماثلة ، الجلاد فيها هذه المرة هو الضحية السابقة ، والضحية الجديدة هي الانسان العربي من لبناني وفلسطيني و (من حضر) او تواجد على تلك الاراضي التي قررت اسرائيل التهامها بموجب قرارات حكماء صهيون المدونة على جدران الكنيست علناً (من النيل الى الفرات ارضك يا اسرائيل) . . .

* * *

« ازهار الكراهية » العنصرية التي يتمنى « السيد برونو » ان تذوي ، يقوم الاسرائيليون بشتلها كل يوم « من النيل الى الفرات » بدءاً بفلسطين وغيرها من الأراضي العربية ، ومروراً بجنوب لبنان وراشيا والبقاع الغربي بعد اقتلاع اشجار الليمون ، واحراق حقول التبغ وبقية محاصيل الاهالي المدنيين العزل . . .

فلماذا يحرك موت عجوز « كان » قلب « برونو الاوروبي» ، ويصم اذنيه عن موت مدن وقرى آهلة بالعجائز الابرياء والاطفال والنساء ؟ . . ولماذا يقلقه الشاب الذي زرع وردة حقد في بستان « كان » ، ولا يحرك ساكناً أمام غابات الكراهية التي تشتلها العنصرية الاسرائيلية في قلوب اللبنانيين والعرب ؟

* * *

هل « برونو الأوروبي » يرفض قتل عجوز لمجرد انها يهودية ، ويرحب او لا يبالي بموت عجائز العرب ؟ أليست تلك عنصرية اخرى ولدها رفض العنصرية في معادلة طفولية لامنطقية جوهرها شعور غير مبرر بالذنب ؟ . . .

ام ان « برونو الأوروبي » يرفض حقاً « المبدأ » ، مبدأ الابادة العنصرية ،

وبالتالي لماذا لا يشمل رفضه ببركته الانسانية شعوب الأرض كلها ، والبشر المظلومين اينما كانوا ـ حتى في جنوب لبنان ـ ، والجلاد اياً كان ، حتى ولو تصادف انه يهودي الدين ، ما دام صهيوني الممارسة ؟ . . .

***

وهل الشاب القاتل وحده بحاجة الى طبيب نفساني ، بسبب مشاعره العدوانية نحو جارته اليهودية ، ام ان « برونو الاوروبي » ايضاً بحاجة الى طبيب نفساني بسبب « شعوره بالذنب » الذي يؤدي به الى اقتراف « ذنب التستر » على « ذنوب اسرائيل » وعدوانيتها وعنصريتها ؟

***

كيف نلامس قلب « برونو » ونبلغه وندخل اليه مأساتنا ، بعدما اوصد ابوابه على مأساة اليهود منذ نصف قرن واعتبرها « خاتمة الأحزان » ؟ . . .

كيف نقول « للعزيز برونو » ان موت مسنة يهودية = موت مسنة لبنانية مسلمة او مسيحية = موت مسنة فلسطينية مسلمة او مسيحية = موت عربي اياً كان دينه = موت اوروبي اياً كان دينه ، الى آخر هذه البدهيات الطفولية التي اغلق مصراعي قلبه الكبير ـ الذي يتسع للقطط والكلاب ـ دونها . . .

***

كيف نطلع العزيز « برونو الأوروبي » على مزارع الظلم الشاسعة فوق انقاض بيوتنا المجروفة بالبولدوزر الصهيونية العنصرية الحقود ؟ . . .

وكيف نريه ورود الكراهية التي تربيها اسرائيل بإتقان داخل جماجم اطفالنا القتلى ، وتتدلى عبر ثقوب كانت يوماً عيونهم الطفلة البريئة ؟ . . .

بوردو ١٠/ ٣/ ٨٥

حب يغازل النسيان

. . . لأن مذاق الحرية كمذاق الحب ، لا يمكن تزوير نكهته ،

. . . ولأن الحرية كالخطيئة ، لا تنسى ،

. . . ولأن بيروت كانت مربط خيل حرياتنا الفكرية ، تستعصي هذه المدينة على الهجر والنسيان !! ولأن لبنان ، كان ذلك الوطن الصغير الذي ذاق ابناؤه ينابيع الحرية ، ولم يبخلوا بها على العرب القادمين اليه ، سعياً وراء (حرية ما) ، فكرية ، دينية ، اقتصادية ، نسائية ، ستظل جثة هذا الوطن تتدلى من أعناق بعض العرب الذين ساهموا في قتله مثل ميدالية اللعنة ، أو طائر الاسطورة (الألباتروس) الذي قتله (الملاح العجوز) في قصيدة « كولريدج » الشهيرة ، فعاقبته الأرباب بحمل جثته بقية عمره متدلية من رقبته ، وهو يهيم في بحار جفت مياهها ، ونبتت مخالب شمسها ، وعامت جثث أسماكها وهو يصرخ ! « ماء . . ماء . . في كل مكان حولي ماء . . وما من قطرة أشربها » . . .

***

ذكرني بهذه الخواطر الحزينة برنامج تليفزيوني ضاحك جداً اسمه «كوكوريكو كوبوي » يقدمه التليفزيون الفرنسي TF1 كل امسية لمدة ربع ساعة قبل موعد نشرة الاخبار . . فهل يمكن لمدمن نشرات الاخبار أن يفوته ؟ . . .

للبرنامج شعبية كبيرة لدى الفرنسيين والمهاجرين والمقيمين مؤقتاً في فرنسا ، لأنه يسخر من حياتهم كلها ، السياسية والاجتماعية والاعلامية والتاريخية والفنية والطبية وكل ما لا يخطر بالبال ، ويقدم ذلك بأسلوب ذكي وخفيف الظل . . . وكل ليلة ، نلتقي بدمى السياسة ، ونضحك من ميتران (الضفدعة) رئيس جمهوريتهم ، ومارشيه (الخنزيرة بيغي) زعيم حزبهم الشيوعي ، وريمون بار (الدب) الطامح للرئاسة ورئيس الوزراء السابق ، وجيسكار ديستان وعمدة مرسيليا وغيرهم ، كالناطق الرسمي باسم قصر الاليزيه مثلاً . . .

فتخيلوا معي لو أن بعض الأقطار العربية ، قدمت زعماءها في برامج مماثلة . . .
وتخيلوا مصير المخرج والممثلين ومدير التليفزيون والاعلام بعد الدقائق الخمس الأولى لبثه . . .

وتخيلوا أيضاً كم هي شاسعة مساحة السخرية والضحك لو تركونا (نقترف) ذلك ! . . . وكم هي شاسعة مساحة الحزن إذا أرغموا حبنا للحرية على ان يغازل النسيان : نسيانه لها . .

***

البرنامج لا يوفر أحداً في لحظة الحرية تلك ، بل في ربع الساعة اليومية من حرية السخرية . . . ويضحك من : انسان العصر الحجري والحديث . تاريخ فرنسا والعالم . نابليون وجوزفين وجنكيز خان . الساموراي . أهل الهند والسند . بريجيت باردو . السينما الايطالية والاميركية . جيمس بوند . البوليس الفرنسي . الزوجات . الاغنياء . الفقراء . العشاق . السوبرمان . زوار القصر الجمهوري وغيرها من شؤون كوكبنا التي تغري بالتحديق إليها من زاوية ساخرة . . .

وباختصار ، لا أحد مقدساً في البرنامج ، ولا (تابو) فرنسياً أو عالمياً بمعاني الكلمة كلها ، بما في ذلك السخرية احياناً من نموذج الثري العربي المتعطش الى الانفاق في الغرب .

***

ولأن روح البرنامج ليست عدوانية ، ولأنه ليس لدينا ذلك الشعور المتورم بـ (التفوق) ، ولا ذلك الاحساس المضخم بـ (الذنب) كعرب ، فإن سخريتهم منا تبدو أحياناً شبه مقبولة ضمن إطارها ، و (من ساواك بنفسه ما ظلمك) كما تقول امثالنا الشعبية العربية . . . ونحن نقهقه معهم حين نرى (الثري العربي) الخفيف الظل مصمماً على شراء ٣٠٠ ثوب لزوجاته الثلاثمائة ، في عرض لأزياء كوكو شانيل ، أو على شراء مغنية الأوبرا الكبيرة التي أعجبته لسمنتها ، ومدير دار الاوبرا الذي يعترض ، ووزير الثقافة حين يحتج ، ويرقص وإياهم فوق قمة الكرة الأرضية الهاذية زمناً بعد آخر . . .

وما نكاد نضحك حتى نغص . . .

اذ نتذكر ان حرية كهذه كانت ذات يوم ممكنة على رقعة عربية صغيرة كحجم القلب ، كان اسمها لبنان .

* * *

منذ أقل من عشرة أعوام ، كانت بيروت تضحك بحرية لمسارح تسخر من كل شيء ، ويضحك معها رئيس الجمهورية وهو يتفرج على ممثل يشبهه ويقلده . . .

واليوم ، من يجرؤ على تقديم لوردات الحرب والسياسة وكهنة التعصب الديني وشيوخ التزمت في حلقات تليفزيونية يومية ، ناهيك عن نكتة تدور همساً ؟ . . .

كم السخرية منهم ممكنة ، بل واجبة ، وكم الحرية مستحيلة في ظل تزمت ينمو ، وحساسيات عدوانية تتورم ، وكم الابتسامة مستحيلة امام بشاعة قمع شاسع متعدد الوجوه يجتاح لبنان الى المدى الذي لا اجرؤ معه على تعداد اسماء الذين أرشحهم كنجوم لبرنامج ساخر مماثل !! . . .

* * *

هذه هي الغصة الأولى التي يحسها عربي مثلي ، ذاق طعم الحرية على تراب أرضه ، قبل أن تقذف به رياح العنف الى أوطان ليست له ، يتأمل حريات كانت له يوماً وفقدها . . .

صحيح ان الحرية كالحب ، نبتة شيطانية يمكن احراقها ويستحيل إبادة جذورها ، لكننا لا نملك إلا لحظة أسى ونحن نشهد كل شيء في لبنان يمضي نحو المزيد من التزمت والقمع والقسوة ورفض الحوار الفكري واستبدال الكلمة بالكمامة ، أي استبدال الحرية الوردة ، بأقنعة الزيف الشمطاء . . .

* * *

غصة أخرى يحسها العربي مثلي أمام هذا البرنامج :

لماذا كل شيء مباح ، السخرية من ميتران وبريجيت باردو وشيراك والسوبرمان والعرب والفايكنغ والنازي والاميركي والبلجيكي وشعوب الأرض قاطبة وفعالياتهم كلها وأديانهم ورموزهم ، باستثناء اليهود أو حتى الاسرائيليين ؟

وهل اليهودية ، بل وحتى الصهيونية ، هي « التابو » والمحرم الوحيد الذي لا يمس ولا يجوز تناوله حتى بنكتة بريئة ؟ . .

وهل اسرائيل مصفحة بعقدة « الشعور بالذنب الاوروبية » التي نجحت في تنميتها عبر القنوات كلها : الفن . السياسة . الذلة والمسكنة الظاهرية في الغرب ،

والسادية العملية في بلادنا ؟ . .

وهل تم إعدام مخرجي مسرحية شكسبير (تاجر البندقية) حرصاً على المشاعر المرهفة لـ (شايلوك) المرابي اليهودي ؟

أم انها مجرد مصادفة ، وثمة حلقات فاتتني مشاهدتها في البرنامج ، سخرت من اليهود والاسرائيليين سخريتها من الاسلام والعرب ، والمسيحيين والفرنسيين ، وشعوب الأرض قاطبة في ماضيهم وحاضرهم ؟ . .

ليون ١٥/ ٣/ ٨٥

أين خبـز العـرب ؟

داخل عربة « التلفريك » المهرولة بين قمتـين شاهقتـين في جبال « الألب »، بدا القلق على وجوه ركاب الحافلة . قلق شبيه بالخوف ، وحياتنا جميعاً معلقة بذلك السلك الفولاذي الممدود فوق الهوة . . ولعلي كنت أقلهم شعوراً بالخوف ، بعد عشرة أعوام من التـدريب في بيروت ، ومـواجهة المـوت يومياً وكأنـه وجه الجـارة ، والتمشي معـه في الشوارع المفخخة بالسيارات والمتفجرات والقصف « الأليف » . . .

ولكن ، حين هبطنا من التلفريـك ودخلنا لـزيارة حـديقة الحيـوانات في « بحـر الجليد » ، بدا الارتياح على وجوههم جميعاً . . . باستثنائي . . . .

* * *

دوماً يداهمني حس عميق بالاختناق في حدائق الحيوانات ، سواء كانت في ذرى الألب قرب « شامونيكس » كما هي حالي اليوم ، أو في احضان القاهرة الحبيبة ، أو في لندن أو في حديقة التماسيح والحيوانات المائية في بانكوك (تايلاند) أو في « اكواريوم » فرانكفورت ، وغيرها من عشرات الأماكن المشابهة التي مررت بها في تشردي الطويل .

وسـواء كان اسم المكـان حديقـة زيولـوجية (بـارك زيولـوجيك) أو أيـة تسمية اخرى ، مهذبة حريصة على شعور الحيوانات الحبيسة ، فإن الاختناق ذاته يداهمني . . . وهكـذا تنفس ركاب عـربة التلفـريك الصعـداء حين لامست أقـدامهم أرض « بارك زيولوجيك » .

وانتقلت مشـاعر الضيق الخـائف القلق الى نفسي ، وأنـا أمشي معهم وأحسني معلقة فوق هوة سحيقة قاتلة لامرئية اسمها العبودية . . .

* * *

ملامسة الذل في أي مكان توجع قلبي . . . ومشهد استلاب الحرية يخنقني . . . والمشي على حافة الاقفاص الحديدية للسجون يرمي بي إلى حافـة الاختناق والبكـاء ،

حتى ولو كان سكان الاقفاص من الحيوانات . . .

فمشهدهم يذكرني بما يحدث للانسان في غير مكان . . . وفي غير قطر من وطني العربي الكبير الشاسع . . . القيود ! . .

أمام الأقفاص ، يشهق السواح الاميركيون مستثارين : هذا نمر . . هذا دب ثلجي شاهق . . هذا ذئب . . . هذا ضبع . . هذه بومة . . . .

ويشهق قلبي أسىً : هذا لم يعد نمراً . والآخر لم يعد ذئباً ، ولا ضبعاً ، ولا بومة . . داخل القفص ، لا يعود أحد حقاً كما كان . . .

* * *

الذين داروا نصف حدائق الحيوانات على هذا الكوكب يتوهمون انهم شاهدوا مخلوقات الله . . . ولكن ، ماذا يتبقى حقاً من النمر حين يسرقون منه خطوات الريح وقفزة الاشجار ؟ وماذا يتبقى من الليث بعد تدجين صرخته ، ومن الفهود بعد تقليم أظافرها ، ومن الأحصنة الوحشية بعد سرقة الركض من حوافرها ؟ . . . ماذا يتبقى من الذئب حين نسرق الصيد الليلي من صدره ، والوعل حين نغتال فرحة الانطلاق من قرنيه ، والغزال حين نصادر الصحاري والحقول من تحت قوائمه ؟ ماذا يتبقى من كائنات الله حين نسرق منها الحرية ؟

* * *

يتبقى لدينا حيوان واحد ، له مظهر نمر أو ثعلب أو ضبع ، أو ابن آوى ، أو قرد ، ولكنه كائن واحد في ذله وانكساره وموته اليومي المكرر بين جدران القفص . . . .

هل تأمل احدكم عيون الحيوانات المسجونة ؟ كلها تبدو بلا بريق ، بلا عنفوان ، فيها دمعة سرية ، متأرجحة بين الضجر والحيرة . . .

يصير سلوك النمر السجين أكثر استسلاماً من سلوك الكلب الحر . . . ويبدو الذئب أقل شراسة من قطة . . . وحيوانات المناطق الحارة تقاسي برد سجون البلدان الباردة ، وتبدو كائنات افريقيا في حديقة حيوانات لندن بائسة ومعذبة ، حتى حينما لا تتعطل اجهزة التدفئة . . . .

* * *

كل من يزعم أنه شاهد لبوة أو نمراً أو ثعلباً أو افعى في حديقة حيوانات ، هو واهم . . . لقد شاهد مخلوقاً محنطاً له الهيئة الخارجية من دون الروح والنبض والسلوك الحقيقي والحركة وعنفوان الصيد وحرارة الانطلاق . . . فالحيوان كالانسان ، يفرغ من

مضمـونه الحي حـين يستلب حريتـه . . . بل ان الانسـان اكثر قـدرة على الاحتفـاظ بحقيقته الداخلية الصلبة في السجن بصورة خاصة حين يكـون سجنه محـاولة لتـركيعه وتطويعه ، وليس عقاباً عـادلاً على ذنب اقتـرفه . والـذين يسجنون ابـرياء ، أو لأنهم اقترفوا جرم التفكير الحر ، ينمون داخل السجن عمالقة للتبشير بعظمة الحرية . . . هذا يحدث فقط في بعض السجون البشرية . . .

* * *

ولأن الحيوانات كلها في « حدائقها » وبالأحرى سجونها متشابهة ، ولأن سلوكها كلها يصير واحداً خلف القضبان الحديدية ، ولأن أحداً لم ير حقاً نمراً أو ثعلباً أو وحشاً حقيقيـاً في تلك الامكنة ـ رغم توهم ذلك ـ ، نجد عصـرنا يبتكـر حدائق الحيـوانات المفتوحة ، حيث ندور نحن داخل قفص زجاجي هو السيارة ، وتترك الحيوانات مطلقة السراح في ارض شاسعة مسورة .

ولكن القناصين يعتلون رؤ وس الاشجار في ابراج المراقبة ، والطعام يكوم امام العـائلات المتـوحشة ، والحيـاة داخل « الغـابة » الاصـطناعيـة تقلد مـظاهـر الحـريـة تقليداً . . .

وحتى الحيوان يشعر بذلك ، فنجد سلوكه في هذه الحقول شبيهاً بسلوكه داخـل الأقفـاص . . . انه يـأكل بـلا شهية ، ولا يهـاجم السيارات ، ولا يـداعب الاشجـار والجداول . . . وغريزة غامضة تملي عليه سلوكاً داجناً حتى ولو لم يشهد بنادق القناصين وهي تجندل رفيقاً له تجرأ على ان يكون حراً حقاً ، وخالف قواعد اللعبة . . .

* * *

مـع الحريـة ، الخداع مستحيـل . . . وحتى الحيوانـات تعي جـدران السجـون اللامرئية ، والجلاد المختبىء في عتمة الاجمات . . . .

الحرية وحدها لا يمكن تزويرها ، ولا تقليد مظاهرها . . انها تكون أو لا تكون . ومخلوقات الله كلها تستطيع ان تحدس حضور السجان ، وتعي حالة السجن حتى ولو كانت القضبان لامـرئية . . . فكيف يحـاول البعض تحويـل حدود اوطـان بأكملهـا الى قضبان ؟ واذا كانت اكذوبة « الحدائق المفتوحة » لا تنطلي على الحيوان نفسـه ، فكيف تنـطلي على الانسـان ؟ . . . . وكيف لا نصرخ : الحـرية قبـل الرغيف ، فخبـز الـذل مر . . . اكثر مرارة من عضات الجوع ؟ . . الحرية كانت دوماً خبز العـرب الأول . . فمتى نأكل ؟ . . .

شامونيكس ٢٥/ ١٠/ ٨٥

هل شاهدتم « مرسيدس ٥٠٠ » خضراء ؟

تحدث العالم طويلاً عما اسماه « لعنة الفراعنة » ، فهل سمعتم شيئاً عن « لعنة البيارتة » ؟ ولا اعني بـ « البيارتة » أهل بيروت و « هنودها الحمر » الأصليين فحسب ، بل كل من عاش فيها واحبها وعانى سنوات طويلة فنون عذاباتها مثلي .

وكما كانت لعنة الفراعنة تطارد صاحبها حتى اقاصي الأرض ، فـ « اللعنة البيروتية » لا تقل فعالية فيما يبدو . وهي لا تصيب صاحبها بالأسى وجنون البحث عن اخبار بيروت في ترحاله فحسب ، بل تكاد تتدخل بشكل غامض في مجرى الأحداث ، بحيث يعيش المرء لحظات بيروتية المذاق حتى في قلب باريس مثلاً .

***

ودعت بيروت في اجازة ، وقلت : مساء الخير يا باريس . خذيني الى شلال حنانك . فأخذتني غجرية المدن الى شقة مفروشة في شارع « بري » بالقرب من الشانزيليزيه .

وصبيحة يومي الأول ، فتحت النافذة وانا امني النفس بمشهد باريسي يغسل احزان القلب بأمطار الرقة ، وفوجئت بمشهد عمال البلدية بكامل سياراتهم وحفاراتهم وعدتهم مثل (ميليشيا) قادمة خصيصاً (لخلق جو) بيروتي في الشارع . . . وبدأت الحفّارة عملها ، لتذكرني بحفارات القلب اللبنانية كلها . . . وهربت الى الأرصفة البعيدة اتسكع نهاراً ريثما ينتهي دوام (الورشة) ، ولم اجد في باريس كلها حفارات واصلاحات إلا تحت نافذتي !

ومرت ايام ، تم خلالها حفر شارع بري «Berri» طولانياً واعصابي عرضانياً ، وكان عزائي خلالها ذلك الهدوء الليلي بعد دوام الغبار والضوضاء . وذات ليلة ، استيقظت مذعورة على صوت قصف قريب ، هدأ برهة ثم عاد الانفجار الزلزالي المكتوم حاملاً طعم الملاجىء وصراخ الأطفال الدامي . هرعت اطل من النافذة . فوجئت

بجسر موقت من الخشب تفضل العمال ببنائه بين رصيفي والرصيف المقابل لمرور المشاة فوق الحفر ، وهو يصدر صوتاً كالقصف حين تمر السيارات فوقه في هـدأة الليل . . اكان لا بد من اختيار موقع الجسر عند الرقم ٣٠ شارع بـري اي تحت سريـري بالـذات ؟ وعادت الكوابيس القصفية تحتل نومي البائس ، والحفارات تلتهم نهاري .

ويوم وجدت شقة اخرى ، وحملت حقيبتي لمغادرة هذا الشارع الذي اصابته لعنة بيروت ، لمحت العمال يفككون الجسر ويجمعون عدتهم وينسحبون معي بعدما انجزوا مهمتهم ! . . .

***

الشقة الجديدة . لافتة في المصعد تستقبلني : « المياه الساخنة مقطوعة لمدة خمسة أيام » ! . . . ولم أكد انجز قراءة اللافتة ، حتى تعطل بي المصعد . . فهل حملت معي الى العمارة لعنة ما ؟ لا ماء ولا مصعد صالحاً ؟ .

***

تلفون ، وصديقتي القديمة الحميمة تقول لي : في صـوتك حـزن بيروتي مقيم . سأمر بك من (كان) وانا في دربي الى لندن للاطمئنان الى ان كآبتك سحابة عابرة .

وحين وصلت الى باريس ، اختارت لاقامتهـا فندقـاً هادئـاً اكرامـاً لمزاجي الفني المـولع بـالاماكن (الهمشـرية الاوريجينال) . وجاءني صـوتها من الفنـدق ليـلاً : لقـد احضرت معي السيارة المرسيدس ٥٠٠ الخضراء . . . والسائق ايضاً . . .

قلت لها : عظيم . سأودع ازقة المترو ، واعيش يوماً فقط كمليونيرة ، فقد يسري عني ذلك . سآتيك غداً لنستعرض (وجاهتنا) في السيارة . قالت : ولكن السيارة اكبـر حجماً من الفندق الصغير الذي اقطنه . في السيارة تلفزيـون وتلفون مبـاشر ، وليس في غرفتي اشياء كهذه . . . ولا (صالون) لاستقبال الضيوف .

سألتها : وماذا نفعل ؟

قـالت : لا يهم . سنقيم في السيـارة ، ونستقبــل الضيـوف فيهــا ، ونجـري المخـابـرات الهـاتفيـة منهـا ، ونـربي الأزهـار والكـلاب والـطيـور فيهـا . . . ونـرسم اللوحات . . و . .

ونمت على كلماتها احلم بيوم ضاحك ، وفي الصباح ذهبت اليها ، وفوجئت بأن

السيارة قد سرقت ليلاً من أمام باب الفندق الباريسي ، على الطريقة البيروتية ! . . هل نقلت اليها لعنتي ؟ .

***

قلنا السيارة سرقت لكن السائق موجود ! والفندق ضيق لكن الصدر واسع . . وصالون الفندق معتم وخانق لكن زيت المحبة يضيء . وجلسنا وبعض الاصدقاء في متر مربع يفترض انه حديقة ، تحف بها اكياس القمامة التي تزين شوارع حبيبتنا بيروت ، و (نربيش) اخضر طويل مرمي إلى جانبها كتلك التي كنا نملأ بها (جالونات) الماء أيام الحصار التمويني هناك . . . ودخلت ابنة الصديقة متثائبة ، وقالت ببراءة سنواتها الخمس عشرة ممتدحة الفندق : لقد مر قبل قليل رجل ، وطلب غرفة لمدة ساعتين ، واعتذرت صاحبته لأن الغرف كلها مشغولة الآن بالنزلاء . . . غرفة لساعتين ؟ اذن الفندق (مخردق) ! . .

وشبت النار في شاربي صديق الاسرة الطرابلسي العريق ، وفار الدم العربي في ارتجافة عروقه ، والتهبت مروءته ، وابت عليه شهامته تجاهل الحال رغم مشاغله ، وصدرت الأوامر الى (الحريم): هيا غادرن الفندق حالاً الى سيارتي . . . سأجد لكن فندقاً محترماً . . .

قالت صديقتي : مجوهراتي في الغرفة وامتعتي . . .

اجاب غاضباً : التفاهات (أي مجوهراتها) سيهتم سائقي بها ! . . .

***

طردتنا الفنادق كلها . . الأخ الطرابلسي دس في يد موظف الاستقبال في افخم الفنادق بورقة نقدية كبيرة ، فقال : لا غرف ، لكنني سأحاول .

دس في يده بالورقة الأخرى فقال : يا الهي . . كيف نسيت تلك الغرفة التي يمكن ان تكون فارغة ؟ . . دعوني أتأكد . . .

ودس في يده بالورقة النقدية الثالثة ، فتأكد وقال : اين الحقائب ؟ الغرفة جاهزة منذ الصباح يا سيدي . لماذا تأخرتم ؟ اين الحقائب ؟ . .

كأننا في بيروت ، لا رحنا ولا جئنا !! . . .

***

السيارة اولاً ، فالفندق ، والآن ، اين الحقائب ؟ حقيبة المجوهرات تاهت طويلاً ومعها اعصاب الصديقة ، وشعوري بالذنب لغلطة اجهلها ولعنة احملها . . وحين

ضمنا هدوء الغرفة ، قلت لصديقتي : ما رأيك بصورة تذكارية معاً (تخليداً) لهذا النهار ؟ قالت ابنتها : الكاميرا مسروقة . كنت قد نسيتها في المرسيدس ٥٠٠ الخضراء !! . . قالت هي : اني جائعة . لم آكل منذ الصباح ، منذ طارت السيارة . . .

***

وخرجنا للتفتيش عن مطعم فلمحنا مرسيدس خضراء طاردناها طويلاً متوهمين انها السيارة المسروقة . . . ثم لمحنا اخرى مثلها ولحقنا بها . . . وبعد مطاردة كل ما في باريس من سيارات المرسيدس الخضر تذكرنا اننا خرجنا للتفتيش عن مطعم . . . وكان الليل قد تجاوز منتصفه ، فطردتنا المطاعم كلها . . . وحدث ذلك كله وسط عاصفة من ضحكاتنا ، بدءاً بسرقة السيارة وانتهاء بالجرسون الاخير الذي طردنا . . انفجرت احزاننا جداول من الضحك المكبوت ، والشوق الى لحظة فرح رغم اللعنة المجهولة التي تطاردنا . . . وأطل القمر المكسور على حافة جرح قلبي ، وتوج برج ايفل كابتسامة . . . وانتشر الليل المسحور في مسامات الذاكرة وختمها بالشمع الأحمر والأخضر ايضاً كلون السيارة اياها . . . وبدا كل شيء هزلياً . . السيارات الضالة والمجوهرات التائهة والفنادق الفخمة والحقيرة . . وضحكنا ساعات ، وادهشني صوت ضحكتي الذي لم اسمعه منذ زمن بعيد . . . وكانت لعنة بيروت تتربص بضحكتي فيما يبدو .

***

صباح اليوم التالي ، كان الوجع يشل حنجرتي المزروعة بالشوك والالم لانها لم تألف الضحك منذ دهر بيروتي . وقال الطبيب : التهاب . سكوت . ممنوع الكلام والضحك طبعاً . . .

ولكنني ادخن النارجيلة الطرابلسية وانا اخط هذه السطور ، وقرقرتها لغة سرية تقول لي بصوت مرتفع : لا مفر . . لا مفر من بيروت . . وطرابلس . . . والجنوب . . . ولبنان . . والعرب . . لا مناص . . . . ولا لحظة ضحك في باريس ! . .

باريس ٣/ ٩/ ١٩٨٤

حبك غلطة مطبعية

كانت تنتحب في الحمام بحرقة . . دموعها تسيل على رخام وجهها الجميل ، ومرمر كتفيها والأرض والجدران ، وكحلها يلطخ المرايا ومقابض الأبواب المذهبة ، وقد جلست على المقعد المخملي الأرجواني في « غرفة السيدات » ، بمطعم (روف الهيلتون) في باريس .

شاهدتها ابنة الصديقة التي دعتني الى العشاء هناك ، فعادت من الحمام مثقلة بالاضطراب والدهشة البريئة ، كأية صبية في الخامسة عشرة من عمرها لم تكتشف من قبل ان حمامات الفنادق الفاخرة مخصصة للبكاء ايضاً ، ولشكوى الحبيب الى القريبات والغريبات باللغة البرازيلية ـ كما خيل اليها ـ والله اعلم .

***

وكنت وصديقتي نتحدث بصوت هامس ، فالطاولة المجاورة الشاسعة يحتلها لبنانيون ، وما تبقى من طاولتنا تحتلها (قبيلة) الأهل والاصدقاء . وصحيح اننا لم نكن نروي اسراراً ، لكننا ورثنا هذه العادة بعد عمر من الصداقة . فاذا سألتها مثلاً « كم الساعة » ، وسألتني « ما تاريخ اليوم » قلناها همساً .

وحين اخبرتنا الابنة بصوت متهدج عن (مشاهداتها) في الحمام ، لم نمنح (القضية) اهتماماً كبيراً ، وانما التحقنا بحوار (القبيلة) عن الحالة الامنية والوطن وعن آلام احد المدعوين وقد لقبنا اوجاع معدته باسم « قرحة العروبة » .

انتهينا من تناول العشاء . نهضت وصديقتي الى « غرفة النساء » لنصلح هندامنا ، ففوجئنا بالمرأة « اياها » ، وكانت ما تزال تنتحب بصوت عال ، وتروي حكايتها هذه المرة لفرنسيتين وهي تؤكد بلوعة : انه مذنب . . جلاد . . (كوبابل ، بوروه) . . . وعيناها الدامعتان علينا لتروي لنا الحكاية وقت يجين دورنا ! . . .

***

وغسلنا ايدينا والدهشة تعقد لساننا . . لقد جئنا من بلاد بعيدة حزينة ، يبكي الناس فيها بحرقة لأسباب تدمي قلب الصخر ، وتستحق عمراً من الانتحاب ، لكننا لم نر من قبل امرأة تجهش بهذه الحرقة ، وتتمسك بكل واردة الى الحمام و (شاردة) لتروي لها قصتها نواحاً مكسور الخاطر . . .

ورق قلب صديقتي لها ، وتقدمت منها (بصورة عفوية) لتواسيها . . وغلبني حذري ، فجررت صديقتي بعيداً وانا اهمس : ارجوك . . دعينا لا نتورط فيما نجهله . . الا ترين انها على وشك الاغماء ؟ . .

وتركنا الجميلة الباكية تروح في شبه اغماءة بين يدي موظفة الاستقبال بـ« المطعم » وعدنا الى قواعدنا نتساءل : ما الذي فعله بها جلادها اللطيف المحبب الى القلب ؟ ولماذا لا تكتفي بهمسة ناعمة في اذنه « حبك غلطة مطبعية » ، ثم تمضي في دربها محتضنة جرحها بكل صمت وكبرياء ؟ . . .

وماذا سيحدث لها الآن ؟ هل ستنتحر ؟ هل اخطأت حين منعت صديقتي من مواساتها ؟ هل سيأتي رجال الاسعاف والشرطة ، ويتم استجواب كل من مرت الليلة بـ « غرفة النساء » ؟ هل سيؤنبنا ضميرنا بصفتنا آخر من شاهدها حية ؟

***

وروينا لأصدقاء السهرة ما شاهدناه في الحمام ، فتبرع « اهل النخوة » لنجدة الجميلة الحزينة ، ثم نسينا الحكاية بعد ثوان ، وعدنا للحديث طويلاً عن همومنا ، حتى قاطعتنا ابنة الصديقة وهي تقول بصوت يقطر دهشة وهي تفرك عينيها : انظروا من يرقص ويغني في الحلبة (البيست) . . .

فوجئنا بأنها المرأة ذاتها ، تلك التي انتحبت ساعتين في الحمام ! وجهها متألق بالسعادة ، كأنها لم تبك يوماً ، وكحل عينيها اعيد رسمه ، وفي حنجرتها افراح عشاق العالم ، وفي رقصتها الفصول الأربعة ، بل اللامتناهية لمسرحيات الحب . . . وعقد الذهول السنتنا امام قصة كتبها القدر ورماها في وجوهنا . . .

***

حكاية اخرى من دفتر القدر . . .

نزلت من المترو في محطة « بلاس دولالما » . مشيت قليلاً صوب الميناء النهري ، وصعدت الى القارب (الباتوموش) الذي يطوف بركابه على المعالم السياحية لباريس جيئة وذهاباً في نهر السين . الطقس بديع . الغروب ينزف على طول الأفق حمرته

المضيئة ، واحدب نوتردام يطل على سطح الكاتدرائية الشهيرة حاملاً حبيبته الغجرية بين يديه ، وانا اتأمل باريس بعيني الخيال والقلب لولا ازعاج صوت (الدليل السياحي) ، المصر على فتح دفاتر التاريخ والجغرافيا بلغات أربع ، بمناسبة وبلا مناسبة غالباً .

شابان في العشرين يجلسان الى جانبي وحيوية خارقة تتدفق منهما ، فهما يلوحان بأذرعهما للواقفات على الجسور أو الشرفات أو النوافذ ، وللعابرات في الشوارع والمراكب التي تمر بنا . . . ولا يفعلان شيئاً آخر . . لا يحدقان في المعالم الطبيعية أو السياحية ولا يكفان لحظة عن التلويح بأيديهما كأنهما في سفينة تغرق .

ادهشني ذلك . . هل لديهما « عقدة الوداع » ؟ هل يعقل ان يركب احد سفينة كي يلوح بيديه طوال الوقت لكل ما يمر به ؟ ام ان سفينتنا تغرق وانا لم الحظ ذلك ؟

***

ونسيت الرحلة ، وانشغلت بغرابة سلوكهما . . . ثم لاحظت انه كلما لوحت حسناء لهما وردت التحية بأحسن منها ، تابع احدهما التلويح بينما التقط الآخر صورة لها . . وحين انتهت الرحلة ، كانا قد التقطا عشرات الصور لحسناوات مختلفات يلوحن بأيديهن وداعاً . . .

وومض التفسير في رأسي : سيتباهيان بهذه الصور . . . سيقول كل لحبيبته : انظري الجميلات اللواتي عشقنني وودعنني في الموانىء والشوارع والنوافذ والشرفات !! . .

فهل ستبكي حبيبة « الخبيث » الطريف والغيرة تأكلها ، أم ستقول له : « حبك غلطة مطبعية » وتمضي ؟

مجموعة من صور جميلات يلوحن بأيديهن . . . معقول ؟ من يمكن ان يخطر بباله كتابة شيء بسيط كهذا ، خارق كهذا غير القدر ؟ وهل كانت جميلة السهرة تبكي مثلاً لأن جلادها المحبب الى القلب قال لها كذبة (حمراء) مشابهة خصيصاً لايلامها ؟ . . . وهل . . .

***

والقدر ككاتب قصة يأتي بتفاصيل لا تخطر ببال . . .

كنت وبعض الأصحاب نمر بشارع الشانزيليزيه في سيارة يقودها صديق عربي

الملامح والشاربين ، عريض المنكبين .

حاذتنا سيارة اخرى ، وفتحت الراكبة الشقراء نافذتها وسألت الصديق وضحكتها الجميلة تجتاح الليل : ما اسم هذا الاصبع ؟ (واشارت الى البنصر) . . . فالتفت بدوره الي بدهشة وسألني : ما اسمه بالفرنسية ؟ قلت له : لا يهم . قل لها بالعربية اسمه البنصر . ففعل . وكأنه روى لها نكتة خارقة ، اذ انفجرت تضحك ، وقد سرت عدوى (مرحها) الينا . . ثم مالت على صديقها بغنج شهي ، وهمست في اذنه . . .

وعادت إلينا تسألنا من جديد السؤال الغريب ذاته عند كل اشارة مرور حمراء نتوقف امامها مرغمين ، وتسأل كل سيارة اخرى تحاذيها ، وتمطر سحب الضحك الملون على الأرصفة . . وصديقها يطاردنا كلما سنحت الفرصة لنا للافلات ، وهي لا تسألنا شيئاً آخر . . معقول ؟

وحاولنا التفسير . . . هل تجرب افهام صديقها انها تريد الزواج ما دام خاتم الخطوبة يخص ذلك الاصبع ؟ ام انها سألت من باب الفضول والعلم بالشيء ، معرفة اسم هذا الاصبع بالذات ؟ أم معرفة اسم صديقنا ؟ أم اغاظة صديقها ؟ هل هذه طريقتها الخاصة في القول « حبك غلطة مطبعية » بالضحكات بدل الدموع ؟ لن ندري يوماً . .

فالقدر يحب ايضاً الخاتمة الغامضة . . .

وكتبه المدهشة لا تباع في المكتبات ولا تقدر بثمن ، لكنها مرمية على رمل العمر مجاناً ، لمن يهوى قراءتها . . .

ولعل الوحيد الذي يستحق جائزة نوبل للقصة هو القدر ، والدليل ، انه ترك الجائزة ، وقطف رأس نوبل !! . . .

باريس ١٧/ ٩/ ٨٤

العــرس !

في لارنكا ، وقفت في المطار أحدق حولي بذهول . . وثمة مهرجان من العواطف الدافئة يدور حولي . . هذا تقبله أسرته مودعة ، وتلك يودعها الجيران . . وثالث يلتف حوله صحبه ويتحدثون بلغة القلب التي أفهمها حتى باللغة القبرصية التي لا أفهمها . . حلقات من الود الانساني والمشاعر العذبة . . . وذهلت . . اذن ما زال ذلك يحدث في عـالمنا ؟ مـا زال النـاس يلتقـون ويفتـرقـون ويحبـون ويـودعون. بعضهم في المـطارات أيضاً ؟ . .

قادمة أنا من مدينة متوحشـة . منذ أعـوام لم يطأ مـطارها غـير المسافـر والطيـار والخاطف والرصاصة والقـذيفة والـرعب . . همنا الـوحيد أن نصـل الى مطارهـا أحياء ونغادره أحياء .

***

في أثينا ، أعيش الدهشة ذاتها وأنا أهبط من الطائـرة . . ثمة شـرفة يلوح منهـا المستقبلون لأحبـائهم الواصلين . . والـذين حـولي يـردون التحيـة . . وتبـدو الأيـدي كأجنحة طائر المحبة وهي تطير في الفضاء . . منذ متى لم تلوح يد على شرفة مطار بيروت بغير تلويحة استغاثة ؟ . . .

***

في روما ، أسير في الدروب مذهولة . .

يجلس الناس على الشرفات دونما خوف من قـذيفة . يمشـون في الشارع لا عـلى رؤوس أصابعهم خوفاً من ازعاج بندقية (قبضاي) . يضحكون بصـوت مرتفـع دونما احساس بالذنب ! . . لا متاريس . لا حواجز توقف السيارات والقلب . يجلسون في مقاهي الأرصفة دونما خوف من رصاصة قنص . .

أتدفق قطرة صغيرة داخل مهرجان الحياة هذا ، وأستعيد ذاكرة الطيران والدفء

والفـرح والضحك البـريء . وأصـل الى قلب رومـا القـديمـة حيث تضيق الأزقـة في (التـراستيفري) كـما الشرايـين النابضـة ، وتتسارع ضـربات قلب البسـاطـة والأنس والمباهج العلنية . . .

هذا عرس في مقهى الـرصيف . . . والكل سعيـد ومرح ، والبهجـة تتدفق نهر الوان . .

* * *

صحيـح أنني لا أعرف العـروس ولا العريس ولا (المعـازيم) ، ولكنني أعرف السعادة حين أراها . . . وقد اشتقت الى ملامستها . .

وهكذا وجدتني أدخل الى الفرح الذي لا أعرف فيـه أحداً . . . ولم أكـد أتحرك اليهم حتى أحـاط بي « أهـل العـروس » يـدللونني وقـد ظنـوني من معــارف « أهـل العريس »، هذا يقدم لي مقعداً فأفرح به بعد طول تسكع ، وهذا يناولني قطعة حلوى ألتهمها لأنني سعيدة ، وجـائعة ، وأشـرب معهم نخب العـروسين ، وأفهـم جيداً ما يقولونه لي مع أنني لا أفهم اللغة الايطالية لكنني أتقن « لغة الكهارب » والمناخات . .

وبعـد قليل التف حـولي أهل العـريس بـدورهم وهم يـظنـونني ضيفـة « أهـل العروس » المدللة !! ترحاب وقبلات وتحيات ، ورقص عائلي شبيه « بالدبكة اللبنانية » شاركتهم فيه ووجدت نفسي بعد قليل أتوسط حلقته وأنا لا أعرف أحداً في العرس . . غير « السيد البهجة » ! . .

وقبلت العروس والعريس مهنئة ، وحاولت الانسحاب قبل (كشف) سـري ، أنا الغريبة عابرة الفرح ، ولكن جرتني العمة العجوز من جديد الى حلقة الرقص . . .

* * *

حاولت أن أبوح بسري لأم العريس بصـوت لاهث ، بعد سـاعتين من الغنـاء والرقص ، والموسيقى تـزداد جنونـاً ، والضحكات والشهقـات وزقزقـة الأطفال تـزداد ارتفاعاً . . . وكانت تهز برأسها لكل حرف أقوله بالانكليزية موافقـة وهي بالتـأكيد لا تسمعه ولا تفهمه ، ثم قبلتني بحرارة وجرتني من جديد الى حلبة الرقص . . .

* * *

عند مطلع الفجر ، تسلل العريس بعروسه الى دنيا المباهج ، وبكت أم العروس فوق كتفي وابتل شارباها ، وشاركتها بدمعة تهطل دومـاً الى داخلي لا الى الخـارج على خدي . . .

وطلعت شمس جديدة على يوم جديد في كوكب يتأهب لمزيد من المذابح وأفعال الكراهية والقتل . . . وغادرت العرس الكوني المجهول وأنا أتساءل : كما عشت فرحة أشخاص أجهلهم سأعيش غصّات آخرين أجهلهم، اذ، كم من الناس سيقتلون اليوم أشخاصاً آخرين ربما يجهلونهم ؟ . . . وحتام نظل نمارس غريزة الافتراس على هذا الكوكب البائس بشرورنا ؟ . . .

***

وهل سأعيش حتى أرقص ذات ليلة كهذه في عرس بيروت ، أم أن الدنيا كلها قررت ذبح التعايش والمحبة والديمقراطية وحرية الكلمة في شوارعنا وعى عتبات بيوتنا ، وخشب فراش العرس في وطننا لن يصنع منه بعد اليوم غير التوابيت ؟ . . .

روما ٢٥/ ١/ ٨٥

لماذا يتشاءم البوم منا ؟

في عطلة كل أسبوع ، أهرب من باريس وبعض الأصدقاء اللبنانيين الى بيت ريفي جميل المزرعة ، تملكه أسرة عربية صديقة .

وما نكاد نصل الى ذلك المكان الخلاب ، حتى تغادره عشرات البوم الى الغابة المجاورة ، ولا تعود الا بعد ذهابنا الى أعمالنا وبيوتنا فجر الاثنين ! . .

ظاهرة غريبة لاحظتها الأسرة العربية ولم تجد لها تفسيراً . . فهي كمعظم جيرانها من المزارعين الأوروبيين تحرص على اقامة البوم عندها في أقفاص خاصة مفتوحة لفوائده في مكافحة الأفاعي والجرذان والحشرات الضارة بالنبات والانسان .

قلت لأصدقائي اللبنانيين : لعل البوم صار يتشاءم منا . . ولا يطيق رؤية وجوهنا المشؤومة ، نحن الذين أحرقنا بلدنا ودمرناه وخلفناه خراباً ، أين منه الخراب المنسوب الى البوم زوراً وظلماً ؟ . . .

***

لا أذيع سراً اذا قلت أنني لا أكره البوم ، لا أتشاءم منه ولا أتفاءل به ، وأجده طائراً جذاباً بعينيه الواسعتين اللامتزلفتين ، وأحبه كما أحب بقية مخلوقات الله . وصحيح أن بعض الناس تعارف على بغضه لأسباب غيبية غامضة ، لكن ذلك زادني حباً له وشفقة عليه من كرهنا وتحاملنا الغيبي السلفي المتوارث المتجسد في مظاهر كثيرة أبسطها البوم .

ويوم تزوجت ، حملت معي الى بيت زوجي أربعين بومة على الأقل كنت قد اشتريتها أيام الدراسة والتشرد في أوروبا . . لوحات وتماثيل صغيرة ومتوسطة ، من العاج والرخام والخشب والسيراميك . . وحرصاً على مشاعر أسرة زوجي ، سجنتها في غرفة نومي بعدما استشرت زوجي بخصوص عواطفه نحوها وقبوله بها وصمت ، فاعتبرت الصمت علامة الرضى . . !

***

واستراحت بوماتي من التشرد بعد زواجي ، وعشنا في سلام ، زوجي وأنا والبوم . . ورغم اخفائي لها في غرفة نومي كالعشاق في السينما ، شاع وذاع وملأ أسماع العائلة خبر وجودها . . . ولم يفاتحني أحد بأمرها بعدما أنجبت صبياً بالرغم من وجود (النحس) في مخدع الزوجية ! . .

وفي الحرب ، زارنا صاروخ أحرق الجناح الأيمن من البيت وأتى عليه . وجاء أعمام زوجي يتفقدوننا ، وقال لي أحدهم بلهجة نصف مازحة : بومك أحرق القصر ! وكم كانت دهشتهم كبيرة حين فوجئوا بأن النار توقفت عند حدود غرفتي المسكونة بالبوم رغم الستائر السريعة الالتهاب ، « والخيمة الديكور » التي نصبتها في السقف العالي للغرفة لأنني لم أكن قد ألفت الاستقرار في البيوت بعد ، فوجدت في الخيمة ما يشبه الحل الوسط . .

ومما زاد في دهشتهم أن دخان الحريق الذي لمس بأصابعه الرمادية كل ما في البيت من سجاد وتحف ، لم يترك حتى بصماته على بياض الستائر والخيمة وبعض البوم . .

لقد احترقت مكتبتي ، وغرفة المطبخ ، وجناح العاملات المنزليات وتحجر الدخان والنار عند عتبتي . .

وقلت للعم الحبيب : لو كنت أتفاءل بالبوم لقلت لك أنها هي التي حمت بقية البيت من الحريق !! . .

***

أعلنوا الحرب فأعلنت الحب . وقلت لناشري السابق : أريد أن أضع على غلاف كتابي « أعلنت عليك الحب » صورة بومة . قال « ستنحسين » الكتاب والقراء والحب . قلت له : الحب لا ينقصه النحس ، أما القراء فلا تتدخل بيني وبينهم .

وهكذا كان ، وطارت الطبعة الأولى في أشهر مثل بومة ليلية ، وطارت الطبعة الثانية رغم غلاف البوم الذي تابعت اصراري عليه ، وطرت أنا من ناشري وأسست داراً للنشر وجعلت شعارها البوم ، فتكاثرت كتبي وطبعاتها وتناسلت ، وكانت سبعة كتب ، فصارت عشرين كتاباً باستثناء ـ ليلة المليار ـ وأربع مخطوطات في خزانة بنك تنتظر دورها للنشر وعشرة كتب داخل رأسي و (نوطاتي) . . ولو كنت أتفاءل بالبوم لقلت أن « وجهها خير » ، لكنني لن أسقط في فخ التفاؤل أو التشاؤم . . بل التحدي للأفكار البالية المتوارثة . . .

وبعدما حملت منشوراتي البومة كشعار ، انهال البوم علي من كل حدب وصوب . كل صديق يرحل الى أوروبا ويرى بومة يتذكرني ويهديني إياها . كل صديقة تطالعها لوحة بومة لا تبخل بها علي . ولحسن الحظ أن أحداً لم يفكر بأن يحمل الي بومة حية، والا لكان علي أن أعيل جيشاً من البوم . . (باستثناء صديق أتى بها من البقاع حية ، وتوسلت اليه أن يعيدها الى أهلها ويجنبها شؤم الغربة !) . . وصديق آخر أهداني ثلاث بومات محنطات بصورة متقنة ، حتى ليخيل الي أنهن يطرن بعد أن أنام ليتابعن حياتهن السرية الليلية مع كائنات أشعة القمر . .

* * *

وصرت أقطن بيتاً مع حوالي ٢٧٥ بومة ، آخرها من الكريستال الشفاف حملتها من روما ابنة عم زوجي كرمز لعدم اضطهاد (الأسرة) لمزاجي . لكنني واجهت مشكلة جديدة : الأطفال يرثون عن الكبار مخاوفهم ونزعاتهم التشاؤمية ، ورفاق ابني يخافون من البوم ، ويحدقون فيه بعيونهم الطفلة بذعر .

وأعلنت حالة الطوارىء ، وتم (تهجير) البوم كله الى غرفة المكتبة ، بعد منع التجول فيها . . مع الصغار لا نقاش . . وإنما أوامر تنفذ . . (هم بالطبع يصدرون الأوامر) . .

وفي مرحلة الحصار الاسرائيلي لبيروت والقصف البحري ، دمرت المنطقة المحيطة ببيتي تقريباً لأنها تشرف على البحر . وأصابت الصواريخ كل مبنى يحيط بي باستثناء بيتي ، وتحطم الزجاج في غرفي كلها باستثناء غرفة المكتبة التي يقطنها بومي المهجر المشرد . .

ورغم ذلك لم أسقط هذه المرة أيضاً في فخ التفاؤل بالبوم الذي يرادف التشاؤم به . . وإنما حمدت الله الذي حماني من ألسنة بعض الأصحاب فيما لو أصابت البيت قذيفة . . هل كان ثمة (متهم) غير البوم ؟.

هل كان أحد سينحي باللائمة على سواه ، كاسرائيل مثلاً ؟

* * *

صحيح أن أحداً لم ير بومة تقف على حاجز ، وتمتشق السلاح ، وتختطف الأبرياء ، وتذبحهم على الهوية، لكن الناس ما زالوا يتشاءمون بالبوم بدلاً من التشاؤم ببعض زعمائهم الذين قادوهم الى الخراب . .

صحيح أن أحداً لم ير بومة تحمل بندقية « إم ١٦ » وتقنص الناس من على

السطوح ، ولا بومة تدلي ببيان وتأتي بعكسه ، وتنهى عن خلق وتأتي مثله . . ولكن الأكثرية ما تزال تتشاءم من البوم بدلاً من التشاؤم من الطائفية وحب السيطرة وشهية الافتراس والعنف والتدمير العبثي . . وإذا كان البوم رمزاً للخراب فقد سرقنا اللقب منه بجدارة فخرية . .

***

هذه السطور أخطها لكم في البيت الريفي إياه . الليلة أيضاً ما كدت أصل الى المزرعة وأصحابي اللبنانيين الأحباء ، حتى غادرها البوم هارباً لا يلوي على شيء . .

ترى هل انقلبت الآية ، وصار حتى البوم يتشاءم منا ؟ . . وهل نلومه ؟ . . .

انفلور ٢٤/ ١١/ ٨٤

الحفّارة

هذه صفحتي . . وهذا جرحي . .

فهل تسمحون لي بأن أتوجع دون أن أقول لكم لماذا ؟ ألا يحدث ذلك لكم ؟ حين يتحول الحزن حفارة سرية في القلب ، ويتحول القلب الى كرة أرضية مدفونة في الظلام ، والحفارة تثقب مغاور الآلام وتفتح مناجم الدموع الدفينة وكهوف الغصات المكتومة ؟ . . وتدور الحفارة بلا توقف ولا رحمة ، والقلب يكتب « شيفرة » الوجع دونما تفاصيل ، وأحياناً يعلن عليكم جرحه ، بوضوح حقول تغسل الشمس طوفانها ، ودموع أشجارها المحروقة الخدود . . .

فهل تسمحون لي بأن أمشي اليوم على سطور صفحتي بصمت ، وحفارتي الداخلية تمعن ايغالاً في جرحي ، ولا أقول لقارئي غير : هات جرحك واتبعني ؟ . .

* * *

ولكن ، هل هذه حقاً صفحتي وحدي أم صفحتكم قبلي ؟ أهذا جرحي أم جرحكم ؟ أهذه السطور التي تخطها يدي هي الخط البياني لنزف أيامي أم أيامنا معاً ؟ ألا يبدأ جرحي من قلوبكم ممتداً على خارطة الوطن ، حفارة أثر أخرى ، حتى طرف قلمي ؟

هذه صفحتكم . وهذا جرحكم .

وأنا لا أملك الا أن أصارحكم بسرنا المشترك . . . وأحزاننا الواقفة على حافة الغضب والانفجار . . . فأنا اليوم لا أتحدث عن حفارات حياتي اليومية الهزلية التي تثير الضحك . . .

بل عن حفارة عربية عمرها يكاد يقارب نصف القرن ، ورثتها عن أبي وأخشى أن أورثها لابني ، حفارة جهنمية تثقب القلب المشرد بين منارات الطمأنينة الزائفة ، ومرافىء الحلول الوهمية . .

* * *

لا أتحدث عن الحفارات الصغيرة لتشردي . . . وعن تلك المصادفة التي تجعلني التقي بحفارة عند « آخر الخط » لأي قطار أستقله . . فالحفارات قدري منذ طفولتي . . والأمر صار يثير ضحكي على الصعيد الشخصي . . .

أركب قطاراً الى غشتاد مثلاً ، وأهبط في المحطة ، فأكتشف أن علي أن أحمل حقائبي حتى قمة الجبل لاختفاء التاكسي ، وحين أصل ، أجد حفارة عمال البناء في انتظاري ، واهرب . . . اركب قطاراً الى لوسرن ، وأقرر الاقامة في الفندق الملاصق للمحطة كي لا أحمل حقائبي بعيداً هكذا ، وأحجز في فندق « متروبوليتان » المجاور وحين أصل فرحة لأنني لن أتعب بحمل حقيبتي ، أفاجأ بالحفارة الشاهقة في انتظاري وهي تتوسط المدينة وتتربع على شرفة غرفتي في الفندق ! . . . أهرب الى برن ، الى فندق هادىء في مرتفع بعيد ، فأجد الحفارة نفسها وقد سبقتني بالطائرة ! . . .

أعود الى المحطة لأحجز في فندق آخر ، فيرفض سائق التاكسي نقلي اليه لأنه قريب ، وحين أصل مثقلة بحقيبة أوراقي ، أجد الحفارة في انتظاري تحت الشرفة ! . . ويحدث ذلك كله لي في يوم واحد .

***

أتحدث عن حفارة عمرنا الكبيرة . . .

كأن أركب التاكسي في احدى مدن الغربة مثقلة بالوحشة ، فاستمع الى موسيقى جميلة أليفة ، وأقول للسائق : حلوة هذه الأغنية ، هل هي يونانية ؟

ويرد بشماتة : لا ، بل هي اسرائيلية . . .

ولأن المطار بعيد عن زوريخ ، أجدني مرغمة على الاستماع الى الأغاني الاسرائيلية كلها التي يلقمها السائق الصهيوني لآلة التسجيل ، شريطاً بعد آخر . . . وتدور الحفارات في قلبي موجعة وأنا أرى اسرائيل تلعب ببساطة دور الوارث الموسيقي لحضارة شعوب حوض المتوسط في هذا المجال ! . .

***

هذا لحن فولكلوري شامي قديم كانت تغنيه جدتي ، وقد تحول الى أغنية اسرائيلية ، فمن يسرق وطناً بأكمله ، لا يتورع عن سرقة أغنية . . وهذا لحن عراقي وآخر يمني . . والكلمات عبرية اسرائيلية والتوزيع الموسيقي شرقي منهوب من ايقاع الضوء فوق أشجار بلادي . . . منهوب من نكهة برتقالها وشطآنها وحقولها ، منهوب من جرح قلبي الذي تأكله الحفارة . . .

وتتوالى الأغنيات ، وكلهـا مسروق من الفـولكلور العربي قـديمه وحـديثه . . لم يوفروا قطراً ، ولا أغنية ! . . ونحن مشغولون بالشجار فيما بيننا والبكاء أمام كوارث في مقدورنا ردها لو اتحدنا وصحونا و . . . و . . .

***

وفي « انترلاكن » اكتشفت أنني نسيت ساعتي في فنـدق «الحفارات» بلوجـانو ، فذهبت أشتري أخـرى أنسى بمواعيـدي فيها زمني ! . . وقـالت لي البائعـة أنها معجبة بأسلوبي المباشر في الشراء دونما هدر للوقت ، وقبل أن أستمتع بهذه المجاملة عـاجلتني بقولها : أنت من اسرائيل ، أليس كذلك ؟ أنتم لطفاء في اسرائيل ! . .

وهكـذا مرة واحـدة ، غاصت الحفـارة في قلبي . . . فكـل مـلامـح « شـرق ـ أوسطية » تخلو من العدوانية تأتي بنظرهـم من اسرائيل !

***

هذه صفحتكم ، وهذا جرحي ، فهل هو جرحكم أيضاً ؟ وهل حفـارة روحي هي ذاتها التي تؤرقكم ؟ . . . نصف قرن من المآتم والشهداء ، والدجالين ، والأبرياء الذين يضحون للقضية ، وسارقي القضية ، والأناشيد الحماسية ، و (ثوار) الحانات ، والحفارة ذاتها تمعن دخولاً حتى مركز القلب . . .

وها هي موسيقانا الفولكلورية تنهب بعد أرضنا وكرامتنا ، والأغاني الاسرائيليـة ليست أكثر من حفارة اضافية تذكر ببقية المنهوب من الكنز الحضاري العربي السائب . . وبائعة الساعات ليست أكثر من حفارة صغيرة تذكر بالجرح الكبير لسمعتنا التي ساءت في العالم ، حتى صار الاسرائيلي هو بالتأكيد « اللطيف المهذب ! » ونحن أهل الارهاب والتخلف . . .

فكيف ، كيف انتقل القاتل الى منصة الشاهد فالقاضي ؟ وكيف نـورث أولادنا هذا العار ، ونتعايش مع حفاراتنا هذه السنوات الطويلة من السقوط ؟

لحظات ذل صغيرة أعيشهـا في تشردي الإرغـامي عن وطن تحـول الى جمعيات خطف وسادية قصفية ، تؤكد لي أن الحفارة الكبيرة ما تزال تدمي القلب العربي ، رغم المحاولات كلها لالهائنا وتشريدنا عنها ، فهل تشاركونني حفارتي ؟

أليست هذه صفحتكم ، وهذا جرحكم ؟

باريس ١٣/ ١٠/ ٨٥

متى العيد ؟

في أقاصي ويلز ، غادرت قرية « بنتلاخ » على شاطىء شبه جزيرة « انجلسي » وسرت صوب البحر وصوت االأمواج يناديني ، وشوقي الى ذلك العميق الأزرق الشاسع رياح تسري بي نحو الصخور .

منذ غادرت بيروت بحراً ، لم أر البحر في لحظة وعي متأمل . هل كان ذلك منذ عام ، أم منذ دهور ؟

لم أعد أدري وسياط الشوق تلسعني وتقودني شبه مهرولة صوب الأطلسي بعد المحيط الهادىء . .

وحين بلغت حافة الصخور، ألقيت نظرة على ذلك الخواء المتجهم الرمادي النائي الملقب بالبحر هناك ، وامتلأ فمي بمرارة مالحة . هذا ليس بحراً . هذا ليس بحري الذي ألفته وأحببته .

ووعيت بعمق معنى « الغربة » . . ذلك العربي الذي أطلق اسم « بحر الظلمات » على المحيط الأطلسي ، هل عانى الاحساس الكاوي المعتم ذاته ؟

* * *

سألني أصدقائي في « بنتلاخ » : هل سعدت بنزهتك البحرية ؟

وصمت . لم أقل لهم أن البحر في بلادي مهرجان ضوء ودفء وأنس وحنان ، فبحارهم كذلك في نظرهم أيضاً . كأن الخطأ ليس في البحر ، وإنما في الغربة . وعين المشرد تحاول أن تفصل كل شيء على مقاس ما ألفته وأحبته ، وترى في كل ما يغايره تذكيراً بآلام الفراق .

أمام المحيط الأطلسي الذي سماه جدي العربي القديم « بحر الظلمات » ، تذكرت البحر الأول الذي تفتحت عيناي عليه : بحر اللاذقية ، مسقط رأس أمي في شمال سوريا . . . وشاطىء « الطابيات » بالذات هناك حيث يقطن القمر داخل

الصدفةالأولى التي ألصقتها الى أذني في طفولتي لأستمع الى أساطير شطآن بلادي . . . وتاريخها . .

وتذكرت بحر بيروت اللامنسي . . . والاسكندرية . . وتونس . . . ووعيت أن البحار كلها التي سبق وأحببتها كانت بحراً واحداً من شمس الالفة وحرارة الناس ودفء التواصل الانساني . .

وغادرت « بنتلاخ » . ومع أول محطة حزن ركبت قطار الذاكرة هاربة من بحر الظلمات .

***

في شاطىء « ريكانتو » الشاسع لامست البحر المتوسط الذي عرفت . . الضوء الخاص القادم من عيون السماء الباهرة الزرقة ، ومن انعكاس الشمس الشرسة على بشرة القلب . . .

فوق الرمال اللامتناهية مشيت عند الفجر وحيدة مع السلاطعين والقواقع ومياه البحر ـ الذي طالما ألفت ـ تصافح قدميَّ الحافيتين . . . وصرت أتأمل الرمال شاردة . .

ثم فوجئت أمامي بوقع خطى على الرمل لقدم كبيرة لا بد وأنها لرجل فارع القامة وقوي البنية . . هذا على الأقل ما تنم عنه خطواته المغروسة في الرمال أعمق من خطواتي . . حسناً . انه أثقل وزناً مني على الأقل ، وليس بالضرورة عريض المنكبين ووسيماً كما يحلو للخيال أن يرسم .

***

ولا أدري لماذا حاولت أن أمشي فوق وقع خطاه على الرمال ، بحيث أضع قدمي اليمنى حيث آثار يمناه ، واليسرى حيث يسراه . . وصرت أتسلى بذلك ، أنا المشردة وحيدة على الشاطىء الآخر للبحر الذي أحب . وفي البداية كان الأمر مسلياً ، ثم صار مرهقاً . . فالسير على خطى شخص آخر أمر لا يطاق ، ولكل انسان أسلوبه في اختيار موقع قدميه ومدى خطواته وتواترها . . وبعد قليل نقمت على ذلك المجهول الذي خلف لي رسوم خطاه ، وتساءلت : هل الحب محاولة للمشي في درب واحدة ، بل وفي خطى واحدة ؟ ولأن ذلك غير ممكن دونما تزوير لحقيقة النفس البشرية يتحطم هذا النمط من الحب ؟ (وهل ينطبق ذلك أيضاً على الجماعات البشرية ، بل والدول ؟) : وهل الحب هو السير في خطين متوازيين ، كل على طريقته ؟ أليس ذلك أكثر واقعية واستمرارية ؟

وصرت أمشي كما أشاء الى جانب خطى « الرجل » المجهول ، وبدا الأمر مريحاً ولا يخلو من الأنس في الوقت ذاته ، حتى جاءت اللحظة التي كان لا مفر فيها من أن تفترق خطانا ، أو أبدل درب سيري !

***

فقد كنت أنوي متابعة المشي على الشاطىء الرملي لصق الموج ، وها هي خطاه تستدير فجأة لتتوغل يمنة في الشاطىء نحو اجمة من الأشجار الكثة . . .

وقلت لنفسي : وهكذا الحب أيضاً. تأتي لحظات يكتشف المرء فيها أن الحب ليس سيراً على خطى الآخر ، ولا حتى مسيرة في خطين متوازيين ، وأنه لا بد من أن نفترق بين وقت وآخر ليحيا كل حياته ويتابع خططه،ثم يلتقيان من جديد أو لا يلتقيان. كأن الحب خطي تلتقي لتفترق كي يكون اللقاء الآخر ممكناً . . واللقاء الأهم ـ مع الذات ـ مستمراً . .

وقررت متابعة دربي على الرمل كما أشاء . وهجر تلك الخطى المجهولة التي ذكرتني بأبيات الشاعرة العربيةالمبدعة والخالدة فدوى طوقان حين تقول :

هناك على شاطىء كم حواك
وكم ضم من ذكريات هواك
تململ قلبي فوق الرمال
يعانق ذراتها في ابتهال
ويلثم فيها رسوم خطاك .

ولكن غلبني فضولي ، فتحسست آثار الخطى بأصابعي على طريقة « اغاتا كريستي » ، وحين وجدتها ما تزال رطبة قدرت أن صاحبها قد مر قبلي بدقائق ولم تجف آثاره ، وإذا هرولت قليلاً فقد ألمحه وسط الأشجار . . . .

وغادرت دربي لاطارد حلمي مسرعة كأي تمساح صغير ألف فضوله على الرمال الدافئة ، وقادتني آثار الخطى الى مدخل كوخ صغير ، وشاهدت صاحب الخطوات ، وكان امرأة حاملاً (!) قوية البنية تنزل عن رأسها قفة من القش وتتدلى منها قصبة لصيد الأسماك ! . .

وشهقت مثل سردينة صغيرة أخطأت الطعم !! . .

***

لقد رسم المبدع تيرنر « بحر الظلمات » فأحببت لوحاته وكرهت بحره حين تأملته بعين الغربة الكليلة عن كل .. حسن ، والتي لا تبدي غير .. المساوىء !.. وفي شاطىء « ريكانتو » المتوسطي جلست فوق الرمال الأليفة أتأمل الأشياء بعين الرضا ... الطفل الذي جر خلفه ـ بكل فخر ـ على الرمال خيطاً كما لو كان جيشاً جراراً ... والطفل الآخر الذي يسبح رغم الجبيرة التي تلف يده المكسورة ... والطفل الثالث الذي اصطاد سمكة للمرة الأولى في حياته فيما يبدو ، فركض مذعوراً لا يلوي على شيء حائراً بين الفرح والخوف ، مثل عاشق يجد حبيبته بين ذراعيه للمرة الأولى ...

***

الأمواج كلها تتكلم لغة واحدة. الرياح . الأسماك . الطيور . الرمال . الخلجان . النجوم .. كلها تنطق لغة كونية واحدة ، باستثناء البشر . وهكذا ، حين دنت ساعة المغيب ، تعالى هدير الناطقين حولي بغير « الضاد » ، واشتعلت شوقاً الى زمن البحار الأليفة والنبرة العربية القادمة مع النسمة مثل خلفية أنس تشد القلب الى المرئيات .. داهمني شعور مفاجىء بالغربة : لهم بحرهم ولي بحري .. فمتى أعود الى أمواجي الام ؟ متى العيد يا بيروت ؟ متى تعود بيروت الى بيروت ؟

كورسيكا ١٥/ ٨/ ٨٥

من يعيد توابيتنا الى الوطن ؟

وتقول لها « وداعاً » بنبرة من يقول « احبك » . . .

وفي المسافة بين ليالي جـرحها ، ونهارات انهيـارها. ، تتسلل هـارباً منهـا ، اميرة الحزن تلك ، بيروت . تستقبلك الغربة بحرارة صفعة ، وتضمك الى صدرها المفروش بالمسامير ، وتطوف بك بين المباهج المفخخة ، ثم تدعك تستقر في وكرك الهادىء بـين اسنان منشار التشرد . . .

فتتساءل بحسرة : من يعيد تابوتي الى بيروت ؟

* * *

تغادرها ، فتطاردها ! . . .

الذين عاقروا بيروت وحبها ، يعرفـون انها ستقطنهم لحظة يكفون عن الاقـامة فيها . . .

استيقظ صباحاً في محطة النسيان ورأسي سبورة ممسوحة ، فيمر بي قطار اميرة الحزن مغسولاً بأمطار دامعة ، وعبـر النوافـذ تحدق بي وجـوه الذين احببتهم هنـاك ، والذين كرهتهم او توهمت ذلك . . امد يدي لألامس ملامحهم نصف المنسية ، الأموات منهم والاحياء ، لكن القطار يتابع مسيرته الشبحية دونما صوت كما في الكوابيس ، وقبل ان انادي احد احبائي المقتولين ، او ارد على تلويحة آخر بيده المقطوعة في انفجار ، يمضي القطار . . . يذوب في الضباب الاوروبي االصباحي . . .

* * *

امشي في الطرقات ، فتطلع علي بيروت من المفارق . . ويقصني الشوق كالسنبلة على حد منجل الذكريات . . .

حينما تعشق حبيباً فاتكاً ، تهرب بما تبقى منك وتستبدله بآخر . . .

وحينما تعشق الذهب ويهجرك ، تستبدل به الماس . . . .

ولكن، ماذا تفعل حين تعشق وطناً؟ ماذا تستبدل به وليس ثمة ما يدعى بـ «وطن اخر» ؟ . . وللانسان الف حبيبة ، ووطن واحد . .

مع اميرة الحزن عبثاً ننسى . . . نسقط في المسافة بين مرمى قصف الذاكرة والذهول . . .

وتلوكنا الغربة بأسنانها الجهنمية ثم تبصقنا على عتبة التاريخ . . مع حب اميرة الحزن تقول لناصحك : ارجوك ألا تحاول إصلاحي ! . . .

أحب ! . . .

* * *

كل ما يحدث هنا ، يردنا الى هناك . . .

في المترو يرفض احدهم اخراج بطاقته الشخصية لأحد رجال البوليس . في التلفزيون وعلى صفحات الصحف يدور نقاش طويل : هل يحق للبوليس الاطلاع على البطاقة الشخصية لأي راكب في المترو لضرورات اعتقال بعض الملاحقين ؟

الشعب الفرنسي يرفض . يجد في ذلك اعتداء غير مبرر على حريته وحياته الخاصة . . ولا بد من قرار يصدر عن مجلس الوزراء حتى يحق لرجل البوليس طلب (تذكرة هوية) ركاب المترو ! ! . .

تتذكر معي بأسى كم وكم من الحواجز المعلومة والمجهولة اوقفتك في بيروت ، وطلبت (بطاقتك الشخصية) وشجرة العائلة ودفتر مذكراتك واشرطة تسجيل دماغك ، والتفاصيل السرية لحياتك الفكرية والجنسية ، وكم كنت سعيداً لأنها اكتفت بذلك وافرجت عنك ولم تقص رأسك لسبب مبني للمجهول كما يحدث غالباً . . . تتذكر ذلك الشعور بالذل ، وانت تهرول خلف لقمتك بين حاجز وآخر ، وجزمة مسلح وآخر ، ولا تدري ايهما يريد ، التحقق من (جرمك) ليطلق سراحك ، او من براءتك ! . . . تتذكر كم من الحواجز تتابعت على جثة عشرة اعوام من عمرك ، وانت مذل ومهان ، والكل يدعي انه يفعل ذلك لاجل كرامتك ورخائك ! . . .

ما جدوى ان تتحرك في مترو باريس ، وقلبك ما زال معلقاً ينزف على شجرة في (حرش) بيروت ؟ . . .

* * *

كل ممارسة يومية تقودك الى بيروت مهما كانت عادية وتافهة . . كأن تهبط هنا الى

دكان البقال لتشتري الخبز . ستلحظ انه يتصرف في دكانه كملك ، باسطاً هيمنته فوق التفاح والبرتقال والعنب ، متوجاً رأسه بكهارب الطمأنينة التي تشع من ثقته بأن مدينته تحترمه كفرد . . . يركلك المشهد كطابة ، و (يشوطك) الى دكان مشابهة في بيروت . . .

كنت هناك تشتري الخبز قبل اشهر او اعوام . جاء مسلحون ، طردوك دونما تفسير وطلبوا من صاحب الدكان اغلاق متجره فوراً لأنهم يدعون الى اضراب تعبيراً عن رأي عام (ديمقراطي) ! . . . وتلملم حاجياتك وقهرك بسرعة والرشاشات تمس خاصرتك (برفق) ، ويلملم صاحب الدكان ذله ويبدأ بإغلاق المكان وانزال الباب الحديد المنزلق (الغلق) ، فينسحب المسلحون الى دكان آخر لقمعه . . . وبينما هو يضع القفل ، ويتمتم ببعض اللعنات السرية التي تشاركه فيها بشهية وحذر ، يأتي مسلحون من فئة اخرى ويطلبون منه العكس ، اي فتح الدكان ، فهم ضد الاضراب ، ويرغمونك على متابعة التسوق حتى اذا كنت قد انجزته او فقدت الرغبة في شراء الخبز ، والعلف الذي تخزنه في الملجأ توقعاً للتصعيد الاكيد . . . ويفتح صاحبنا دكانه ، والرشاش يمس عنقه ، ولا تمر عشر دقائق الا وتأتي الفئة الأولى ترغمه على اغلاق الدكان ، فالثانية . . ترغمه على فتحه . . فالأولى لاغلاقه . . الى آخره . . .

***

تمشي على شاطىء نهر السين بين « كي دي سيتروين » و « كي ويلسون » . تمر بك مظاهرة . للوهلة الأولى تفتش عن ملجأ قبل ان يلعلع رصاص التأييد او الشجب ، وتلتقي اخيراً بالرصاصة الطائشة التي ستقتلك . . .

ثم تتذكر انك لست في بيروت . . . فتتذكر ايضاً بحزن انك فكرت مرة في ٦ أيار ما ، بالمشي في تظاهرة في بيروت لا تحمل اي شعار سياسي ، وانما تحمل هماً طفولياً معيشياً : ايقاف القصف العشوائي . . . والسلام . . .

وقصفت المظاهرة بمفعول رجعي . . . قصفت الدروب التي كانت التظاهرة ستمشي فوقها ، ولم ينم ليلتها احد من سكان بيروت ، وعند الصباح ، وقت موعد التظاهرة ، كنا نرمم بيوتنا وجراحنا ونلصق اقدامنا المقطوعة في اماكنها ولا نقوى على الوقوف . . ومتنا ، فلم نخرج لنقول «لا للموت ، نعم للمحبة » .

وتحسد شعباً تستطيع نساؤه واطفاله التظاهر دون حماية حزب او ميليشيا عشيرة . . . او فرمان .

***

رغم كل ما كان ، وما سيكون ،

تظل اميرة الحزن تحتلك . . وحين تجلس مساء امام التلفزيون في وكر غربتك ، تتمزق لأن احداً لم يعد يذكر اسم بيروت . . . اميرة الحزن والحرية . .

كأنما نسّيتها الدنيا ، ولكنها تهب في اعماقك حارة كالرياح الاستوائية . . .

وتتساءل بغصة : هل خرجت بيروت عن خارطة العالم ، وبقيت منقوشة كالوشم فوق خارطة قلبك ؟

باريس ٢١/ ١١/ ٨٤

فهرس